هيلاري كلنتون

على كرسي الاعتراف



ألما هالبرت بوند

نقله إلى العربية

فاضل لقمان جتكر

العبيكان
Obeikan

Original Title
HILLARY RODHAM CLINTON
on the Couch
Inside the Mind and Life of Hillary Clinton

Author:
Alma H. Bond, Ph.d.

ISBN-10: 1610881648
ISBN-13: 978-1610881647

ح شركة العبيكان للتعليم، 1437هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بوند، ألما هالبرت

هيلاري كلنتون على كرسي الاعتراف./ ألما هالبرت بوند؛ فاضل لقمان جتكر.

- الرياض 1437هـ

400 ص؛ 14× 21 سم

ردمك: 8 - 863 - 503 - 603 - 978

1 - كلنتون، هيلاري رودهام 2 - السياسيون الأمريكيون

أ. جتكر، فاضل لقمان، (مترجم) ب - العنوان

ديوي: 923,2973 رقم الإيداع: 601 / 1437

الطبعة العربية الأولى 1437هـ - 2016م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 - فاكس: 4889023 ص. ب: 62807 الرياض 11595

ملاحظات تمهيدية

أنا المحللة النفسية والمؤلفة الدكتورة دارسي ديل (شخصية الكاتبة الخيالية) التي قد تكون معروفة عبر سلسلة بعنوان على كرسي الاعتراف المكتوبة إلى الآن عن مارلين مونرو وجاكي كندي أوناسيس.

منذ بعض الوقت، قررت أن آخذ إجازة تفرُّغ دراسي مستحقة منذ أمد طويل، وإن كانت جزئية وحسب من ممارستي العملية لتأليف كتاب عن هيلاري التي كنت راغبة في الكتابة عنها منذ زمن طويل، وتحقيقًا لذلك تعين علي أن أستأجر مكتبًا في واشنطن، لأكون قريبة من مسرح العمل. استأجرت شقة، ودَّعْتُ أصدقائي، ورحت أحزم حقائبي.

ما الذي دفعني إلى الكتابة عن هيلاري كلنتون؟ كنت على وشك الدخول في حال من الملل والسأم بسبب الغوص في التأملات الاستبطانية لكبار النجوم المولعين بمعاينة سررهم واستنطاقها، ظننت أن من شأن هيلاري أن تكون مختلفة، وموضوعًا صعبًا إن لم يكن مستحيلاً؛ معروفة هي بالاستحواذ والوسوسة إزاء حماية خصوصيتها وخصوصيات من هم قريبون منها وعزيزون عليها، غير أنني لم أكن يومًا ممن يهربون من التحديات.

لم تكن هيلاري كلنتون ذلك الشخص العصابي أو المريض النفسي الذي كثيرًا ما أختار الكتابة عنه، بل هي شخصٌ عاديٌّ مثلك ومثلي، باستثناء كونها قائدة سياسية رئيسة في أهم دولة بالعالم. لقد اعتقدت بأن من الممتع محاولة معرفة كيف أن هذه المرأة العادية يمكن أن تصبح من بين أهم الأشخاص الذين عرفهم العالم.

قرأت كل ما استطعت العثور عليه عن نساء خارقات واستثنائيات؛ لأني دائمة البحث عن مبدعات للكتابة عنهن سواء في المجلات المهنية أو في كتبي، ومن هنا فقد اهتممت بهيلاري كلنتون للمرة الأولى حين اعتلت المنصة السياسية داعية لزوجها (بِلّ) الطامح لشغل منصب حاكم ولاية آركنسو، وتابعتُ حياتها العملية بعناية واهتمام في الصحف، والمجلات، والكتب، وغيرها من وسائل الإعلام منذ ذلك التاريخ؛فاطلاعي على أكبر قدر ممكن من الحقائق عنها ساعدني – بلا شك– على فهمها.

ما سأرويه خلاصات جلسات خاصة عقدتُها مع هيلاري كلنتون؛ ففي نهاية كل يوم كنت أملي النقاط البارزة والمهمة من لقاءاتي معها بمقدار ما استطعت أن أتذكر، أحيانًا كان إملائي طويلًا، وأخرى وجيزًا، تبعًا للوقت الذي كان متوافرًا لدي للإملاء في ذلك اليوم المحدد.

بأي من المعاني ليست هذه الخلاصاتُ الأشياءَ كلَّها التي قلناها، هي وأنا، إبان جلسات الدقائق الخمسين التقليدية، أو ما فكرت به في ذلك الوقت؛ فقدبقي الأمر مقتصرًا على ما عَدَدْتُه الأكثر أهمية وحسب.

2013 08 19

قبيل موعد مغادرتي إلى واشنطن، اقتحمتْ سكرتيرتي الجنية ريفكا مكتبي المانهاتني بوجه يجسد جوهر الدهشة. أستطيع دائمًا أن أدرك من تعبير ريفكا ما إذا كان المريض الجديد الذي ينتظرني مثيرًا لي أم لا. وفي هذه المرة، لم يسبق لي أن رأيتها على هذه الدرجة من الذهول كما أراها اليوم، حتى حين أوصلت مارلين مونرو قبل عشر سنوات. تساءلت: ومن يمكنه أن يكون أكثر إثارة للدهشة من مارلين مونرو؟

قالت ريفكا: لن أخبرك عن الذي ينتظرك؛ أريد أن أفاجئك؛ صدقيني ستفاجئين، قلت في نفسي غير مبالية: إنني سأكتشف بعد قليل، عازفة عن منح ريفكا فرصة الارتياح إزاء معرفة أنها قد نجحت فعلًا في إثارة فضولي.

مشيت إلى داخل غرفة الانتظار، ألقيت نظرة على الشخص الوحيد الجالس هناك، وكدت أشهق؛ هيلاري رودهام كلنتون بالذات جالسة هناك.

يا للمصادفة! فكرت. إلا أن يونغ* بادرني قائلًا: ليس ثمة أي مصادفات، ربما شاء القدر أن نلتقي. (يا له من قدر جميل).

* كارل جوستاف يونغ عالم نفس سويسري ومؤسس علم النفس التحليلي، (1875ـ1961م).

كانت تبكي وتذرف دموعها في منديلها، حين رأتني حاولت إخفاء دموعها متظاهرة بأنها كانت تنظف أنفها.

للإحاطة بمظهرها كله، منحتها بعض الوقت للتعافي، فوجئت إذ وجدتها جميلة تمامًا، أفضل بكثير مما تبدو في الصور.

ممعنة النظر إليها في مثل هذه الأجواء الحميمية، استطعت أن أرى أنها صاحبة هيكل عظمي جيد، أسنان بيضاء لطيفة، وبشرة جميلة، شعرها الأشقر الواصل إلى الكتف ملفوف النهايات لفة ناعمة.

كنت قد قرأت في مكان ما أنها بطول (خمس أقدام وأربع بوصات) (165سم) ووزن (115) رطلًا (أي نحو 52 كغ)، ودائبة على متابعة وضعها بانتظام لتحافظ على هيئتها. (115) رطلًا؟ ربما كنت قد خمنت (130)، لعلها كذبة بيضاء صغيرة، وقد تكون أخف مما تبدو، لم لا؟

ولأن ملابسها كثيرًا ما تعرضت لأحكام قاسية منذ ظهورها بعصابة رأسها المخملية على شاشة برنامج ستون دقيقة عام 1992م، باغتني أن ألاحظ أنها كانت مرتدية زيًّا متقنًا، وإن كان عاديًّا؛ سترة فضفاضة كحلية بأزرار ذهبية شبيهة بقرطيها، وتحت السترة كانت ترتدي كنزة كشميرية سماوية اللون ذات ياقة عالية متناسبة مئة بالمئة مع عينيها الزرقاوين الطفوليتين. (اكتشفت لاحقًا أنهما كانتا زرقاوين بسبب العدستين اللاصقتين الزرقاوين). من مظهرها كان بوسعها أن تكون سيدة مجتمع نيويوركية أنجزت مهماتها التسوقية في محلات بيرغدورف.

متقدمة نحوها قلت: سعيدة أنا بلقائك شخصيًّا سيدة كلنتون. غير أني آسفة أن أراك مكتئبة إلى هذا الحد. انتصبتْ واقفة وبادرت فورًا إلى مد يدها. وكما توقعت فإن مصافحتها كانت ثابتة وقوية.

آسفة بسبب الدموع، غير أن أي امرأة حين تجد زوجها بادئًا للتو قصة غرامية جديدة، ستبكي أيضًا كما أتخيل. قالت وهي تنظر بشراسة إلى عيني، ثم أضافت : اكتشفت أن له عشيقة في تشاباكوا، حيث نملك بيتًا في نيويورك. ولزيادة الطين بلة، أنا متعبة تمامًا؛ بعد أن عملت وزيرة للخارجية بهذا الزخم والجدية، ظننت أنني سأحصل أخيرًا على لحظة راحة للنقاهة.

أجبتها متعاطفة بقوة – يقينًا كنت سأبكي أيضًا– : لكن تعالي ندخل إلى مكتبي حيث تستطيعين أن تحدثيني عن نفسك.

قالت: أظن أنك تعرفين كل شيء عني سلفًا من وسائل الإعلام.

قلت: وسائل الإعلام وأنا مختلفان في تفسير الوقائع المزعومة.

ابتسمت وقالت: يمكننا أن نتابع إذن.

دخلنا مكتبي. لم تتلفت هيلاري حولها بل جلست على الكرسي المقابل لمكتبي وراحت تعاين عقد أصابعها باهتمام. لم أكتشف إلا مؤخرًا أنها لم تغفل عن أي شيء في الغرفة وديكورها.

حسنًا، من أين سأبدأ يا دكتورة؟ من القصة الغرامية الجديدة؟

ليس مباشرة يا هيلاري، هل أستطيع مخاطبتك باسمك الأول؛ هيلاري؟ ربما ما كنت تجرأت على مخاطبة السيدة الأولى السابقة باسمها الأول، غير أن تلك هي طريقتي مع المرضى (الزبائن)، قررت ألا أعاملها بأسلوب مغاير. يسجل لها أنها أومأت موافقة، كما لو لم تكن تتوقع أي شيء آخر. لنبدأ حيث بدأت حياتك، بدايتها بالذات.

هل ذلك ضروري؟ جئت إلى هنا بسبب المشكلة مع زوجي، وأنا امرأة مشغولة، ليس لدي وقت أبدده.

صدقيني، أنا كاملة الإدراك لذلك؛ غير أن علينا أن نفهم جذر المشكلة ومكانها في حياتك كي نفهمها، ولماذا حصلت في الوقت الحاضر، لا بد لي من معرفة المزيد عنك قبل أن أتمكن من مساعدتك في التغلب على الصعوبات التي دفعتك إلى هنا، كذلك أنا شديدة الاهتمام بما قلته عن كونك مرهقة بعد شغلك لمنصب وزارة الخارجية. عدَّلت جلستي ورحت أنتظر.

بقيت هيلاري صامتة للحظات طويلة، منخرطة على ما بدا في نوع من الصراع الداخلي.

شعرت بالأسف عن هذه المرأة المرموقة التي كانت تجد قدرًا كبيرًا من الصعوبة في الكلام عن عواطف كانت ذات شأن بالنسبة إليها.

أخيرًا قلت: حدثيني عن نفسك؛ حتى ما تعدينه غير مهم بنظرك، قولي ما يخطر ببالك تمامًا.

ترددتْ، ثم قالت: ليس ذلك سهلًا علي؛ أجد الكلام عن نفسي صعبًا، وحين أتحدث عن شخصي أتجمد. لدى اضطراري إلى إجراء المقابلات أجد أن من الأسهل مناقشة موضوعات مثل الفقر في بورما، سوء معاملة الأطفال، أو التحامل على النساء، بل إنني حتى لا أفكر بمشاعري كثيرًا، كذلك من غير العادي أن أبكي أمام آخرين، لا سيما إذا كانوا ممن لا أعرفهم.

تصورت بابًا عليه عدد من الأقفال الثقيلة، وأنا دائبة على طرقه من دون نجاح؛ فكرت: قد تكون امرأة رائعة، لكن بُنْية شخصيتها ستجعلها –يقينًا– مريضة (زبونة) صعبة. أتذكر أنني قرأت في مكان ما أن جريدة مدرستها الثانوية منحتها لقب (الأخت ثلاجة). أعرف المغزى؛ فالناس شديدو الانغلاق على مشاعرهم بهذه القوة كثيرًا ما تتعذر معرفتهم.

ربما هي عصية على المعالجة، ويتعين علي ألا أوافق على استقبالها، لن أستطيع أبدًا أن أسامح نفسي إذا ما قبلت شخصًا بهذه الأهمية للتحليل النفسي

وأخفقت في مساعدته. مهما يكن، إذا استطعت فسأحاول من أجلها ومن أجلي أنا، وربما لأجل العالم. إن كتابة سيرة حياة فكرة لا بأس بها؛ فمن شأنها أن تكون أكثر جدوى لها ولبلدنا إذا ما استطعت مساعدتها على تحسين أدائها.

فكرت في عقلي مليًّا بالأسباب المحتملة الكامنة وراء درعها السايكولوجي الصلب غير القابل للاختراق، وافترضت أنها عاشت تجارب مؤلمة إبان الطفولة وبعدها، تجارب لا تطيق تذكرها، فتُسقطها على العالم الخارجي؛ حين تتناول مشكلات تهز كوكب الأرض على المستوى الفكري الخالص، فليست هيلاري التي تتألم، بل سائر نساء العالم وأطفاله الذين يعانون سوء المعاملة، تعيش هيلاري برأسها لا بقلبها، وتصر على صون ما تطلق عليه اسم (خصوصيات) عن حياتها الداخلية.

أقدمت هيلاري أخيرًا على كسر الصمت دافعة رأسها إلى الخلف، قالت: إنني أنبذ العاطفة الخالية من التفكير تمامًا؛ أجدها مثيرة للشفقة، في الحقيقة.

ارتعت وارتعبت؛ فالإنسان الذي لايعيش لمشاعره أكثر إثارة للشفقة بما لا يقاس، كما أرى - ونظرًا إلى ذلك الموقف غير القابل للتغيير على ما يبدو - فإن هيلاري كلنتون كانت - كما قررت - بعيدة عن المرشحة المثالية بالنسبة إلى المحللين النفسيين.

بنوع من اليأس قلت: لنحاول، سأساعدك على إتقان فن تحمل مشاعرك المؤلمة.

عادت الدموع تتدحرج على وجنتيها من جديد؛ أبعدت رأسها عني، ومسحت الدموع بسرعة بظاهر يدها: لست واثقة من قدرتي على ذلك.

قلت: لا يا هيلاري، من الأشياء كلها التي قرأتها وشاهدتها عنك، أعرف مدى شجاعتك واستقامتك؛ عايشتِ أسوأ أنواع الفضائح، أساءت وسائل الإعلام إليكِ كما لم يسبق لها أن فعلت مع أي سيدة أولى أخرى، غير أنك

نجوت مع ذلك، وعلى نحو جيد تمامًا. أعرف أنك تستطيعين أن تنتصري على هذا التحدي أيضًا.

بغتة انتصبت واقفة: ثمة إشاعة تقول إنك ستكونين في واشنطن مدة سنة، أفترض أنك ستستقبلين مرضى (زبائن) وأنت هناك؟ أومأتُ غير أنني لم أبلغها بعدم اعتزامي متابعة ممارسة متفرغة في أثناء وجودي في واشنطن، وإن كنت مستعدة –بالتأكيد– لاستثنائها. تابعتْ: أريد المغادرة الآن، وأنا بحاجة إلى إعادة التفكير بما إذا كنت راغبة في هذا.

صُدمت بآنيَّة قرارها المباغت، متصورة أنني أفسدت المقابلة التمهيدية، قلت: بالتأكيد يا هيلاري. أرجو أن تتصلي بسكرتيرتي إذا رغبت في تحديد موعد آخر، سأكون هنا أسبوعًا آخر، وريفكا ستستلم الرسائل بعد مغادرتي.

بخطوات متسرعة مشت إلي، ثم فاجأتني إذ وقفت، دارت إلى الخلف وابتسمت.

قلت محدثة نفسي: قد تعود آخر المطاف.

وبعد مغادرتها فكرت بما تعلمته من وسائل الإعلام عن شخصية هيلاري كلنتون، عن سلوكها المحيِّر أحيانًا، وعن مدى قابلية مقارنة ذلك بما كنت قد رصدته إبان الجلسة التمهيدية المختصرة. جُل ما رأيته للتو عنها كان مؤكدًا لما قرأته، مع أن علي أن أعترف أنني وجدتها جذابة أكثر مما صُورت في كثير من وسائل الإعلام؛ أعرف أنها ذكية، قرأت في أحد الأماكن أن لديها طاقة هائلة أتعبت أعضاء فريق عمل أكثر شبابًا بكثير. تعالوا نفكر بالأمر، أنا نفسي كنت أيضًا متعبة إلى حد كبير، ولم أرها إلا جلسة واحدة مدتها قصيرة!.

بحسب التقارير جميعها، قابليتها التنظيمية والقيادية غير مسبوقة، طموحاتها كبيرة على الصعيدين السياسي والمهني، لعلها أكبر – بالتأكيد – مما قد تعترف به، كذلك لاحظت أنها استثنائية الكاريزمية حين تختار أن

تكـون، مشـهورة هي بعمق التديـن، وقوية الالتزام بعائلتهـا. تأثرت مرات كثيرة بمـدى مـا لديهـا مـن حب لزوجهـا وابنتهـا، أقلـه كما يتجلـى في أفـلام الفيديو والصـور، قـدرت أن حبها لعائلتها هو الشـعور الأقوى الذي يمكنها أن تعترف به من دون تردد.

أمـا الجانـب الأكـثر قتامة فقـد كان معروفـًا أيضًـا – أقله عن طريق وسـائل الإعلام – أنها عصبية ومتكررة سَورات الغضب، وهـي محاربة متكررة الانهزام أمـام القلق، وأنهـا ضحية زوج دائم المغامرات الغرامية، وبوصفها كاسـبة قوت العائلـة ربمـا دوَّرت بعض الزوايا الأخلاقية في أوقات معينة للحصول على دولار أو اثنـين إضافيـين. وعلـى الرغـم من أن كثيريـن يحبونها فإن ذلـك يصعب أن يكون صحيحًا عبر الطيف كله.

إجمـالًا، امـرأة بالغة الإثارة كما أرى، مع أن فرويد نفسـه كان من شـأنه أن يعاني لو عالجها.

2013 08 21

عادت بعد يومين اثنين وحسب، بالفعل.

دخلتْ مكتبي وحيتني بابتسامة عذبة أخرى، فكرت: لا غرابة في أن تكون مثار إعجاب الناخبين، لا أعرف كيف هي في حياتها الخاصة، غير أن بوسعها حقًّا أن تكون ساحرة وجذابة عندما ترغب في أن تكون.

قالت: صباح الخير دكتورة! كما يمكنك أن تري قررت اختبار الأمر، أقله لبعض الوقت، ولكن إياك أن تتفاجئي إذا ما تركت بسرعة. مع أنني تابعت عددًا من دروس علم النفس بويزلي، فإن سيغموند فرويد ليس واحدًا من أبطالي.

وما الذي لا يعجبك فيه؟

هراؤه كله عن الغيرة القضيبية كلام فارغ – قالت بصوت تفوح منه رائحة اليقين – لم يسبق لي أن رغبت في امتلاك قضيب، ولو كان لدي، فماذا أفعل به؟ هل تصدقين أنت كل ذلك الهذر؟ إذا كنتِ تفعلين، فقد أكون في المكان الخطأ.

ابتسمت: الدراسات النسوية قطعت أشواطًا منذ فرويد.

حسنًا، يا له من انفراج! ربما سينشغل المحللون النفسيون آخر المطاف، غير أن عليكم أن تثبتوا ذلك لي قبل أن أمنحكم نجمة ذهبية، ما الذي تريدين أن تعرفيه عني يا دكتورة؟

كل ما تريدين أن تبوحي به لي.

أنت عون كبير، أستطيع أن أرى! صمتت لحظة، ثم قالت: أستطيع أن أبدأ من ولادتي؛ أنا إحدى أوائل زمن الإكثار من الأولاد، ولدت في السادس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر 1947م، بعد الحرب العالمية الثانية بعامين. توقفت ثم تابعت: أجدني ميالة إلى إخبارك عن أبي، هيو رودهام الذي ربما كان الشخص الأهم في حياتي. هل هذا يناسبك يا دكتورة؟

قلت: يقينًا، تكلمي عمن وعما تريدين. لم أستطع مقاومة صوغ فرضية جديدة: أبوها كان أهم في حياتها منها هي، الأمر الذي كشف لي – سلفًا – أشياء كثيرة عنها.

هوى كتفاها، وإن بقي وجهها خاليًا من العاطفة؛ انتظرت بصبر إلى أن لملمت نفسها، كانت قد أفلتت عاطفة فعلية وما لبثت – على ما ظننت – أن باتت نادمة على ما فعلته.

انسحبت إلى أمور عملية؛ بدأت تقول: إن أباها كان ابن اثنين من المهاجرين القادمين من ويلز، وما أخبرتني به عنه بعد ذلك سردته برتابة أخافتني؛ وصفت رجلًا خشنًا، متجهم الوجه، دأب على تعذيب أولاده بالسخرية القاسية المشحونة بالاحتقار وببخل خانق، وكان يجبر الصغار على متابعة إذلال أمهم وإساءة معاملتها باطراد. قالت إنه كان يضرب ابنيه، غير أنها لم تقل ما إذا كانت هي أيضًا قد ضُربت. تساءلت: هل كانت تحميه، أم أنها كانت مُفَضَّلته فبقيت دون مساس، ببساطة؟

بحسب روايتها ومهما كانت مزاياه – التي أظن أنها كانت كثيرة – فقد كان أبًا رهيبًا وقاسيًا ومُذلًّا لدرجة لا تجعلني أصدق أن شخصية هيلاري يمكن أن تكون كما هي عليها الآن. كيف نشأت لتصبح الشخص الذي أصبحته مع أب دنيء وسيئ المعاملة إلى هذا الحد أمر يفوق قدرتي على الإدراك. في هذه المرحلة المبكرة من رحلتنا أظن أننا ملزمون بالتعبير عن الشكر لما ورثته وربما لأمها.

قالت هيلاري: قضيت جزءًا كبيرًا من وقتي وأنا أحاول خطب ود أبي، نادرًا ما كنت أنجح، كان أحد الأمثلة الأنموذجية التي أثرت في درجاتي في المدرسة؛ دائمًا كنت طالبة عظيمة، وعادة كنت أعود بورقة علامات ملأى بأحرف (أ). ذات يوم عرضت عليه ورقة علامات فيها حرف (ب) واحد وباقي العلامات (أ). انتظرت بصبر، أصلِّي بصمت راجية سماع كلمة إطراء. جاء رده: «كيف تحصلين على (ب) واحدة؟». في الشهر التالي عرضت عليه ورقة علامات ليس فيها سوى(أ). كان رد فعله: «يا لها من مدرسة سهلة»!

ومهما كانت إجادة هيلاري، فإن أباها ظل يرفع مستوى الحاجز. يا لها من طفلة محبطة، دائبة بيأس على محاولة إسعاد أبيها الرافض لأن يرضى! يمكنني أن أرى سبب توقها لأن تُنتخب رئيسة للجمهورية؛ بلاد كاملة ملأى بالناس المقترعين لها قد تخفف من وطأة ذكريات الإخفاق الدائم في إسعاد رجل واحد كانت تضع رأيه فوق كل شيء.

أحد الجيران قال مرة عن هيو رودهام: «كان أقسى من عرنوس ذرة، وأشنع من الفظاظة». لم يكن مربيًّا، تاركًا تلك الوظيفة الأبوية لزوجه الألطف دوروثي التي كان متكرر الاستهزاء بذكائها ومواهبها، كان رجلًا فجًّا غير مصقول. (مثل أبيها تكون هيلاري سيدة، وتستطيع أن تبدو أيضًا مفرطة المباشرة والجفاف أحيانًا). حين كانت دوروثي تهدد بترك هيو بسبب معاملته السيئة

لهـا وللأطفال، كثيرًا مـا كان تعليقُه يتمثل بعبارة: «احذري من اصطدام قبضة الباب بمؤخرتك وأنت خارجة» بمعنى: أغلقي الباب خلفك! كما يقال بالعربية.

يا لها من طريقة تعامل زوج عامرة بالحب! قلت لنفسـي: لن أكون مسـتعدة للعيش مـع مثل هـذا الرجل مدة عشـر دقائـق! أحيانًـا كان الأطفـال يضحكون مـن التعليـق، قالـت هيلاري، ولكن ليس في الأوقـات كلها. مؤكد أنهم يشـعرون بالقسـوة الكامنة وراء التعليق، وإن بقوا عازفين عن الاعتراف بذلك علنًا، حتى الآن.

على العشاء كان هيو يستغرق في إطلاق مونولوجات طويلة عن الحياة رافضًا بقسـوة أي مقاطعـة أو اعتراض، جُل أفراد العائلة كانـوا يكظمون غيظهم وهم يتظاهرون بالإصغاء؛ وحدها هيلاري كانت تجادل إذا رأت أنه على خطأ. يبدو أنهـا الوحيـدة التي كان يُسـمح لها أن تختلف مع أبيهـا دون أن تعاني أي عواقب وخيمـة، أمـا إذا حاولت دوروثي أن تنطق برأي مخالف، فكانت تتعرض لاحتقار زوجها وسخريته ووصمها بعبارة بأبشع العبارات.

ومهمـا بلـغ اسـتفزاز هيـو وإسـاءته لزوجـه، فإن الزوجـين – كمـا أوضحتْ هيـلاري نجحا في إضفاء إحساس العائلة والحب المتبـادل على الأطفال، الأمر الذي حدد جزءًا كبيرًا من حياتها المستقبلية. لو نظرت إلى علاقتهما من منطلق تحليلي، لتعين علي أن أنعتها بعلاقة سادومازوخية، كانت تعني بالنسبة إلى هيو (كل رجـل يقتـل الشـيء الذي يحبه) بحسـب تعبير أوسـكار وايلـد. تصورت أن أنمـوذج حيـاة أبـوي هيلاري الزوجيـة هو الذي يجـب أن يكون متيحًـا لهيلاري فرصة تحمل خيانات زوجها.

مـا من أحد سـيئ مئة بالمئة، حتى هتلـر كان يحب كلبه. وذريعة هيو رودهام لسـوء معاملة أسـرته – كما قالت هيلاري – تمثلت بإيمانه بقيم عتيقة الطراز كانـت سـائدة منتصف القرن – بأن من شـأن المثابرة والانضبـاط، والتعليم في البيت، وفي المدرسة، وفي الكنيسة أن تتمخض عن تحقق حلم أي طفل.

قيل لهيلاري: إن عليها أن تستخدم عقلها كي تمتلك بعض التحكم في حياتها وهي راشدة؛ لذا تعين عليها - كما على أطفال عائلة رودهام الآخرين - أن تتفوق في المدرسة. تعليق هيورودهام المفضل كان: (خائب في المدرسة، خائب في البيت). وعلى الرغم من بشاعة شخصية الرجل، فإن الفلسفة الرودهامية حققت مكاسب غير عادية لهيلاري وإن لم تفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى أخويها. كان صاحب فضل في تلقينها أن من شأن فرص النجاح ألا تكون محدودة بجنسها، أقله على هذا الصعيد، كان هيو متقدمًا على عصره.

حاولتُ انتهاز فرصة، وإطلاق بالون اختبار؛ قلت: أنت تحيرينني يا هيلاري؛ تقولين أكثر الأشياء إثارة للعواطف عن أبيك، وتبقين رغم ذلك كاملة الهدوء، كيف تستطيعين أن تظهري على هذه الدرجة من عدم التأثر؟!

أجابت: لقد عشت التجربة طولًا وعرضًا مرات كثيرة حتى أدمنتها. راودتني الشكوك غير أني رأيت أن من الأفضل إرجاء المسألة إلى وقت آخر، مفترضة احتمال وجود مثل ذلك الوقت لاحقًا. تركت لدي انطباعًا أنها امرأة غاضبة - ليس الوقت كله، بل جله - دائبة قدر استطاعتها على إخفاء ذلك. ومما سبق لي أن سمعته فإن لديها أشياء كثيرة جديرة بالغضب؛ إلا أن ما هو أسوأ كان على الطريق.

كان أبي ضابط صف أول في البحرية إبان الحرب العالمية الثانية، كان يدرب مجندي برنامج (جينه توني) لجيش الولايات المتحدة، وهو نظام صارم ومتطلب جسديًّا قائم على تقنيات الملاكم الدفاعية الشهيرة. وحين عاد أبي إلى البيت كان قد افتقد البحرية؛ لأنه كان يعاملنا كما لو كنا امتدادًا للخدمة؛ كان يجلس متكئًا في غرفة المعيشة ليلًا نهارًا وهو يصرخ مطلقًا الأوامر الموجهة إلينا، ساخرًا منا، مستهينًا بإنجازاتنا، مستخفًا بنجاحاتنا، دائبًا باطراد على

رفع مستوى المعايير بالنسبة إلينا، وعاكفًا على ما كان يطلق عليه اسم (بناء الشخصية). لم أكف قط عن محاولة إرضائه.

كان يهدف إلى التحكم المطلق في أسرته؛ ما إن كان أحدنا يتحداه حتى كان يصر بلا رحمة على الإذعان لأوامره؛ إذا نسي أحدنا سهوًا – مثلًا – إغلاق ماسورة معجون الأسنان كان يرمي الغطاء عبر النافذة ويجبرنا على تحمل عناء استعادته، حتى لو كانت الأرض مغطاة بالجليد أو الثلج. وبصرف النظر عن مدى برودة ليالي الشتاء الشيكاغوي، فإن أبي البخيل كان يصر على إطفاء أجهزة التدفئة حتى الصباح.

اعترتني رجفة حين تصورت الأشياء الأخرى التي يمكن لهذه المرأة الفاتنة أن تكون قد عاشتها أيام طفولتها؛ في مناسبات قساوة والدها من الصعب تصور عزوف حتى البنت عن حمل مشاعر الاستياء منه، مع أن أحدًا لم يسمعها – بحسب علمي – متذمرة على الملأ، غير أنني – وكما قلت – لم أكن قد سمعت شيئًا بعد.

كنت مجنونة بأبي، بكل ما فيه حتى بخله، وكنت أراه وسيمًا شبيهًا بأي نجم سينمائي. ذات مرة، حين كنت في نحو الخامسة من العمر وكنت مغرمة به إلى حد الجنون، قلت له: هل ستتزوجني يا بابا؟ صُدمتُ إذ قوبل عرضي بضربة عنيفة على قفاي، ركضت باكية إلى المطبخ حيث تولت أمي طمأنتي وإرضائي بقطعة حلوى.

يا له من رجل رهيب! قلت لنفسي: ما من طفلة صغيرة عادية إلا وتعشق أباها وتكن له – كما فعلت هيلاري – رغبات مماثلة؛ إنها عقدة أوديب الشهيرة، أو عقدة ألكترا، بالنسبة إلى الفتيات. كم كان هيو رودهام جاهلًا! وكم كان قاسيًّا! لا غرابة أن تكون هيلاري قد عانت دائمًا مع الرجال.

قلت لها: تلك كانت حماقة منه يا هيلاري وخطأ جسيمًا؛ لم تكوني إلا معبرة بصوت مرتفع عما تشعر به أي طفلة إزاء أبيها.

غامت عينا هيلاري لحظات قصيرة ولكنها لم تبد أي رد فعل على ملاحظاتي. بدت مخترقة إياها، بالفعل. (دخلت من أذن وخرجت من الثانية كما يقال).

سألتها بإلحاح قوي: ألم يغضبك رد الفعل هذا؟

أجابت: لا، رأيت أنني أستحق الضربة.

هززت رأسي بحزن وفكرت، يكفي ما قيل عن ذلك الموضوع، أقله راهنًا.

كما لو كانت تحدس بأفكاري قالت: بعض الناس يغدون أكثر دماثة مع تقدمهم في السن، أما أبي فلم يكن منهم؛ فمع تقدمه في السن أصبحت دناءته أكثر وضوحًا باطراد. لم تكن لديه سوى القليل من الاهتمامات باستثناء قهر أسرته، وأخذت غطرسته ومناكداته تتعاظم.

بنظر هيلاري، رجال عائلة رودهام جميعهم كانوا مكتئبين، لم أفاجأ؛ فشقيق أبيها الأصغر (راسل) كان طبيبًا حاول شنق نفسه في سقيفة بيته العليا، أنزله هيو من المشنقة، منقذًا حياته، بعد ذلك عمل راسل ساقيًا في حانة، وانزلق إلى الإدمان على الكحول فغرق في بئر أعمق من الكآبة حتى قضى محترقًا في نار تسببت بها لفافة تبغ مشتعلة. قالت هيلاري: إنها تعاطفت بعمق مع حزن أبيها على مصير أخيه، مع أنني لم أكن لأعرف ذلك من نبرة صوتها المسطحة وغياب التعبير عن وجهها؛ بدت دائمة الحب لأبيها والتقمص العاطفي لمشكلاته، رغم سوء معاملته للعائلة. كانت ابنة أفضل من أن يستحقها.

أما شقيق هيو الأكبر (ويلارد) فقضى ثلاث عشرة سنة متوليًّا مهمة رعاية أبيه بعد موت أمهم، وحين رحل الأب في السادسة والثمانين من العمر، كان

ويلارد قد بات غارقًا في بحر من اليأس، ولم يلبث أن التحق بركب أبيه إلى القبر بعد خمسة أسابيع. شقيق هيلاري الأصغر (طوني) مات من الوحدة.

ومع رحيل أبويه وأخويه، عاش هيو مدة طويلة من الكآبة، وضاعف من انعزاله عن العالم أكثر فأكثر، ومع أنه لم يتجاوز الخامسة والخمسين من العمر، فإنه استقال من عمله وغاص في أعماق نفسه.

بالاستناد إلى تاريخ ذكور عائلة رودهام، ليس غريبًا أن يكون شقيقا هيلاري قد قضيا الكهولة غارقين في بحر من السوداوية المتشائمة.

بعد بلوغ سن الرشد، حاول أولاد هيو الثلاثة: هيلاري، طوني، وهيو، جميعًا أن يقنعوا أنفسهم بأن معايير والدهم الصارمة في تربية النشء كانت جزءًا من خطة كبرى هادفة إلى تمكين أولاده من أن يصبحوا مقاتلين أشداء، قادرين على المنافسة؛ لـ (شد أزرهم)، إضافة إلى غرس عناصر من (الواقعية) في نمط حياتهم المميز، من الصعب تصور أنهم كانوا يفسرون تصرفاته بهذه الطريقة الكريمة؛ لأنهم كانوا - في الحقيقة - أولادًا أُسيئت معاملتهم، ولعل الاحتمال الأقوى أنهم وظفوا آلية الإنكار الدفاعية، حيث لا يرى المرء ما يتمنى أن يكون غير صحيح.

قدَّرت أن الآلية نفسها ساعدت هيلاري على عبور سنوات خيانة زوجها، وكما يعرف الجميع أن الزواج الكلنتوني إبان رئاسة بل للجمهورية، نجا من سلسلة من الفضائح ولا سيما قصة مونيكا لوينسكي، فهبت هيلاري بقوة وأنكرت المزاعم، مؤكدة على شاشة أل (إن بي سي) في برنامج مشهد اليوم أنها لم تكن إلا من فبركات (مؤامرة يمينية واسعة) هادفة إلى إبعاد كلينتون عن البيت الأبيض.

مثير للسخرية! كنت قد قلت لنفسي آنذاك، وتساءلت عما كانت ستقوله بوصفها سياسية ذكية وحاذقة فيما لو تعرضت لإلقاء القبض عليها وهي

مصـرة علـى مثل هـذا الإنكار. آنذاك شـعرت بصدق أن هيـلاري كلنتون كانت تريد من أعماق القلب أن تنزع القشـرة؛ أما الآن فأنا مصممة على مسـاعدتها في الاهتداء إلى اللب، بصرف النظر عن مدى صعوبة البحث.

قالـت هيـلاري: أبي كان عملاقًا، قامته بطول سـت أقـدام وبوصتين، كتفان عريضتـان، صوت خشـن، مهيمن نفسـيًّا كما كان جسـديًّا؛ كنـا نصاب بالرعب حـين يغضـب، والجميع يعرفون أن حياة أمي معه كانت مؤلمة الإذلال؛ حتى أنا – ابنته المحبة – كنت أستشـيط غيظًا أحيانًا إزاء سـلوكه البغيض وبخله الشديد. مـرات كثـيرة دامـت تعنيفاتـه، وحمـلات شـتائمه، سـاعات طويلـة، بادئة وقت العشـاء، متواصلة إلى سـاعة متأخرة من السـهرة، ومسـتمرة ساعات أخرى في غرفة النوم. كنت أضع يدي على أذني وأغوص تحت الأغطية تجنبًا لذلك كله.

لم تكن دوروثي المتلقية الوحيدة لحمم غضب زوجها وعنفه، قالت هيلاري: أحيانًـا كان يفقد أعصابه وهو يقوم بتربيتنا، صارخًا بصوت أعلى ومسـتخدمًا مزيـدًا من العقاب الجسـدي ولاسـيما مع أخويَّ، أكثر مما كنـت أراه منصفًا أو ضروريًّا؛ غير أني لم أشك قط أنه كان يحبني، حتى في أوقات الغضب. وأضافت مبتسمة: لم يكن أبي يوفر العصا.

تساءلت بيني وبين نفسي بصمت: لماذا تبتسمين يا هيلاري؟ يجب أن تكوني شديدة الاستياء في مكان ما من أعماقك إزاء هذا الظلم والاستبداد.

لم تبح هيلاري قط بمدى قسوة ضرب هيو لأولاده، بالأماكن التي يستهدفها بالضرب من الجسد، أو بما إذا كانت هي أيضًا ممن تلقوا ضرباته، بما يبقيني جاهلة بالشعور الذي كان يراودها إبان (حملات التأديب).

فلسفة هيو رودهام في تدريب الأولاد، تلك الفلسفة القائمة على (عدم توفير العصا) لم تكن ناجحة كليًّا، أقله بالنسـبة إلى أخوي هيلاري طوني وهيو الابن اللذيـن دفعهمـا رودهام بلا رحمة مجبرًا إياهمـا على أن يحذوا حذوه كي يكونا

ناجحين مثله. كان طوني أفضل تكيفًا من هيو الابن الذي لم يتخل قط عن حلمه المستحيل بكسب ود أبيه. حاول أن يحذو حذو أبيه ولعب كرة القدم، وذهب إلى ولاية بنسلفانيا ولكن أباه كان يضاعف من إبعاده عنه كلما زاد هو من تكثيف محاولات استرضائه. فرد من العائلة تمنى أن يبقى مغفلًا قال في إحدى المرات: إن هيو كان أقسى مع هيو الابن لأنه كان ابنه الذكر الأول.

كان طوني رودهام شديد الاختلاف عن أخيه الأكبر؛ لم يبد مهتمًّا برأي أبيه فيه، ولم يفعل إلا ما يحلو له؛ لذا فاز بقدر كبير من تقدير أبيه في سن مبكرة. من الواضح أن هيو رودهام كان يحترم هيلاري وطوني أكثر من هيو الابن؛ لأنهما كانا يجرؤان على التصدي له. نجحت هيلاري في النجاة من عواقب العديد من المخالفات الثانوية للقواعد العائلية، حتى حين كانت هي نفسها مهندسة المشكلة فإن الصبيين كانا هما اللذين يُعاقبان.

ومما قاله طوني: «كانت فتاة البابا، ومن المستحيل أن تقع في خطأ».

بالرغم من عيوبه كلها، ومع أنه كان سينفي الأمر بازدراء، فإن هيو رودهام كان من أنصار الحركة النسوية بطريقة ما؛ فهيو هذا هو الذي لقن هيلاري أنها جيدة وأفضل من أي ذكر، بمن في ذلك شقيقاها، وصدقته هيلاري، إذ قالت: في المدرسة الثانوية تسربت إحدى أذكى صديقاتي من الدورات المكثفة؛ لأن صديقها لم يكن مسجلًا في هذه الدورات، وصديقة أخرى لم ترغب في إعلان علاماتها؛ لأنها أيقنت أنها حاصلة على علامات أعلى من تلك التي حصل عليها الشاب الذي كانت تواعده. هاتان الفتاتان كانتا قد التقطتا الإشارات الثقافية الدقيقة وشبه الدقيقة المحرضة لهما على الامتثال للصور النمطية، وصولًا إلى اختزال إنجازاتهما تجنبًا للتفوق على الشباب الذكور من حولهم. أضافت هيلاري: يعود الفضل لأبي في أنني لم أكن لأتصور التخلي عن الدراسة الجامعية أو عن مهنة ما طلبًا للزواج، كما كانت صديقاتي يفعلن.

حين كان طوني في التاسعة من العمر، أصيب بداء الروماتيزم الذي أجبره على البقاء في البيت وتناول الطعام وهو في الفراش مدة سنة كاملة. مرَّضته أمنا بمحبة ورعاية إلى أن تماثل لما يكفي من التعافي ليعود إلى المدرسة، تعامل أمي مع طوني كان أنموذجيًّا بالنسبة إلى سلوكها وهي التي كان الشابان يلوذان بها عند التعرض لأي صعوبات مع أبينا؛ كانت تعد قلب البيت بنظرنا جميعًا، واضطلعت بدور الحكم كلما تفاقم اشتباك لفظي أو جسدي بين أخويَّ وأبي.

ترعرعت بين دفع وشد قيم أبَوَي، وكانت معتقداتي السياسية الخاصة عاكسة لنمطي تفكيرهما كليهما، قالت هيلاري: والفجوة الجنسية (الجندرية) التي كان يكثر الحديث عنها آنذاك في سياسة الولايات المتحدة، كانت واضحة تمامًا في الأسر الشبيهة بأسرتي. أمي أساسًا ديمقراطية، رغم أنها أبقت الأمر مكبوتًا في بارك ريدج الخاضعة للهيمنة الجمهورية. أما أبي فكان جمهوريًّا محافظًا فولاذي الأضلاع، من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وفخورًا بذلك، شديد البخل بالنسبة إلى المال، لم يؤمن بالاقتراض أو الإفادة من الاعتمادات والقروض، وظل يدير عمله من منطلق الدفع المسبق الصارم. إيديولوجيته كانت نابعة من إيمانه بالاعتماد على الذات والمبادرة الشخصية.

أخشى أن أكون مثله على الصعيد الأخير، تابعت وهي تبدو محرجة: أعيد حبات الزيتون غير المستهلكة إلى الجرة، كما أعيد قطع الجبن الفائضة إلى البراد مهما كانت صغيرة. أخمن أنه غرس فيَّ الخوف من التعرض للوصول إلى مأوى الفقراء.

الوقت كله ظلت هيلاري تحدثني عن أبيها، وأنا واصلت الاندهاش من كلامها بمثل هذه النبرة المسطحة بهذا القدر الضئيل من التعبير على وجهها، سبق لي أن أصغيت إلى العديد من مثل هذه القصص على مرِّ السنين، وأعرف أن المرضى جميعهم؛ ذكورًا وإناثًا، يتعرضون عمليًّا للانهيار وذرف الدموع حين

يتحدثـون عن مثل هـذه الأمور، أما هيلاري فهي مختلفة؛ بدت كما لو كانت تتلو قائمة موجودات إحدى البقاليات.

هـل كانـت تتصرف بتلـك الطريقة أمـام أبيها أيضًا؟ في مـكان ما، بطريقة معينـة، اهتدت هيـلاري الصغيرة إلى الجرأة اللازمة للوقوف في وجهه وإخفاء رعبهـا. أظـن أن هـذا أدى إلـى صقلها وتصلب عودهـا بما أفضى إلـى أن تكون هيـلاري الراشـدة قادرة على تحـدي زوجها، وحصَّنَتْها ضد فسـاد الصراعات السياسية.

ذات مـرة قالـت إليانـور روزفلت*: إن المرء بحاجة إلـى جلد وحيد القرن في السياسـة. علقـت هيـلاري: «كانـت إليانور تعـرف ما تتحدث عنـه، تعلمت كيف تتلقـى الانتقـاد بجدية، ولكن ليس على نحو شـخصي. من المعروف أن السـيدة روزفلت قالت: ما من أحد يسـتطيع أن يشـعرك بالدونية ما لم توافق أنت. تربح يومًـا، تخسـر آخـر، لا تأخـذ الأمـر علـى نحو شـخصي؛ تنهض كل يـوم وتتابع المسير».

يـا لهـا مـن امـرأة حكيمـة هـذه الهيـلاري! قلـت في نفسـي، أقله علـى ذلك الصعيد.

من الواضح أنها كانت حكيمة سلفًا وهي طفلة، وأدركت أن نقد أبيها العنيف لم يكن شخصيًّا بل مجرد جزء من شخصيته. كان الأب هيو وسيلة لتصليب جلد هيلاري إلى المسـتوى الضروري ما سـاعدها على النجاة من الحجارة والسـهام التي رُميت بها إبان حياتها السياسـية والمهنية. لولا (مسـاهمته) لما كانت قادرة ربمـا على متابعة حياتها في البيـت الأبيض. كم منا يمتلكون قوة إليانور روزفلت أو هيـلاري كلنتـون ويسـتطيعون الخـروج من مثل تلـك المحن القاتلـة بمثل هذا

* زوجة الرئيس الثاني والثلاثن للولايات المتحدة الأمريكية فرانكلين روزفلت، (1884 ـ 1962م).

النجاح؟ شخصيًّا لا أدعي ذلك. يكفيني تحمل انتقاد المرضى الذين أشجعهم على البوح.

تمثل جزء من مشكلة هيو رودهام بأنه كان منذ شبابه إنسانًا خائبًا، محبطًا؛ أراد أن يكون لاعب حلقة أولى في ولاية بَنّ، وأبلغ الجميع بأنه كوفئ بزمالة كرة قدم جامعية. للأسف كان يكذب؛ فالسجلات تبين أنه لم تكن هناك أي زمالات كرة قدم ممنوحة في تلك الأعوام (1931–1935م) بولاية بنسلفانيا «كان ممثلًا تافهًا»، علق أحد أفراد العائلة ذات مرة.

كان والد هيو رودهام عامل نول حياكة في مصانع سكرانتون الكبرى، وبدلًا من أن يصبح لاعب كرة قدم شهيرًا حذا الابن الساخط حذو أبيه في سن مبكرة؛ أما أمه حنه جونز رودهام فعرفت بالعناد والفظاظة مثل ابنها، وكانت مسيطرة على حياة العائلة.

غير أن هيو كان متحليًا بمهارة عظيمة واحدة بارزة: كان بائعًا جوالًا ناجحًا جدًّا؛ «كان الوالد أعظم بائع في العالم»، قال طوني رودهام ذات مرة «لم أره قط خاسرًا في صفقة». بوصفه حرفيًّا يصنع الستائر والأغطية المخرمة للفنادق، المكاتب، إلخ.. من الواضح أنه كان يستطيع إقناع الجميع بشراء منتجاته، يبدو كثير الشبه ببل كلنتون على هذا الصعيد، إذ يقال: إن بل قادر على إغراء الطيور واجتذابها من الشجر. من المؤكد أن بل عرف كيف يسحر هيلاري التي وقفت معه بالرغم من سلوكه المشين، تمامًا كما كانت أمها قد وقفت مع أبيها، بصرف النظر عن مدى إذلاله لها في المعاملة.

تابعت هيلاري كلامها قائلة: كان يوظف قروشه بالحكمة التي تليق بأي بخيل. حين كنت في الثالثة من العمر اشترى بيتًا جورجيًّا زائفًا في باين ريدج بمبلغ 35000 دولار، دفع الثمن نقدًا لأنه لم يكن يؤمن بالاقتراض، لتوفير الفائدة التي كان سيتعين عليه دفعها بحسب أقوى الاحتمالات. لم يملك أي بطاقة اعتماد قط، ربما للسبب نفسه، عادة يعود إلى البيت بين الثالثة والرابعة

بعد الظهر، ويستلقي على الأريكة مادًّا ساقه المعطوبة أمامه. كان يمضي وقته متابعًا التلفاز، محتسيًّا البيرة، ومطلقًا قسطه اليومي الرتيب من الصرخات الموجهة إلى أولاده.

تواصل كلنتون: من خلال عائلته تمكن أبي من أن يبقى القائد، وإن لم يعد ضابط صف في البحرية. بدلًا من دفع المال لمهنيين متخصصين بصيانة البيت، كان يوفره بتكليفنا بالمهمة العظيمة حتى صار البيت خرابًا بحسب تعبير صاحبة المكتب العقاري التي تولت إعادة بيعه لاحقًا. لم يكن يدفع لنا مقابل المساعدة بالتأكيد، كان يقول: ألا تأكلون؟! ذلك يكفي.

أظن أنه لا يجوز لنا أن نبالغ في لوم هيو رودهام على بخله، فكرت. مثل الأطفال الآخرين الذين تربوا إبان أزمة الكساد الكبرى، كان قد رأى كثيرين أصبحوا بلا مأوى أو على حافة الجوع، فكان دائم الخوف من أن يلتحق هو والعائلة بركب أولئك، فكان شعاره الأكثر تكرارًا هو: «هل تريدوننا أن نؤول إلى مأوى الفقراء؟» ظل دائم التذكير لأولاده بأنهم متفوقون في أشياء كثيرة على أبناء جيله هو، بقي يردد على مسامعهم: «لن تعرفوا أبدًا، كم أنتم محظوظون!»، عبارة سمعتها هيلاري مرات أكثر من أن ترغب في عدها.

إذا تجرأت على مطالبة أبي بمصروف جيب إضافي، أو سلفة على مخصصي الزهيد، كنت أحصل على محاضرة أن المال لا ينمو على الشجر، فأسارع إلى التوقف عن المطالبة.

قالت: أبي كان عقائديًّا متشددًا، بعبارة ملطفة؛ وفي المناقشات النشيطة بل الحامية أحيانًا في عائلتنا حول مائدة المطبخ عن السياسة أو الرياضة عادة، تعلمت أن أكثر من رأي يمكن أن تتعايش تحت سقف واحد. ومع بلوغي الثانية عشرة من العمر كانت لي مواقفي الخاصة من قضاياي، كما تعلمت أن أي شخص لم يكن سيئًا بالضرورة لا لشيء إلا لأنك لم تتفق معه، وأن امتلاكك

لإيمان قوي بأمر ما يجعل من الأفضل لك أن تبقى مستعدًّا للدفاع عن إيمانك هذا. ذلك ساعدني كثيرًا بوصفي زوجَ سياسي كما بوصفي سياسية.

من المؤكد أن إحساسها بالمال كان متأثرًا بقلق أبيها دائم الحضور، وقد سمعت أن هيلاري مغلولة اليد أيضًا. كتبت مورين داود، إحدى كبار معلقات النيويورك تايمز تقول: إن آل كلنتون مشهورون بخلط أمور المال، فيبدون شرهين في الأثناء. إذا كان هذا صحيحًا عن هيلاري، فإنه قابل للفهم. عانت كثيرًا بخل أبيها وقلقه الاقتصادي الدائم. لا شك أن تمكنها من مراكمة كمية كبيرة من المال في مؤسسة حقوقية، بوصفها عضو مجلس شيوخ، وشاغلة منصب قومي، ولا سيما عبر كتبها، شكل بالضرورة عامل ارتياح عظيم بالنسبة إليها.

شفة هيلاري السفلى برزت إلى الأمام مع انكماش الشفة العليا وانسحابها إلى الخلف، مؤكدة صواب مشاعري حول علاقتها بالمال. قالت: كان أبي استثنائي البخل بالنسبة إلى الملابس، نادرًا ما كان يُسمح لنا بأن نشتري ملابس جديدة حتى تكون القديمة قد اهترأت أو صارت أصغر من أجسادنا. ما أكثر ما كنا نبدو أشبه بالأيتام أو الأطفال المشردين.

لم تكن دوروثي؛ أم هيلاري، تهتم بما ترتديه، ذلك كان أمرًا جيدًا، أقله بالنسبة إلى الزواج؛ لأنها كانت ملزمة به. ولم يكن هيو يرى في ملابس الفتيات سوى وسائل لتغطية عريهن.

لا غرابة أن هيلاري كانت ترتدي أطقمًا سروالية غير مناسبة قبل أن تصبح سيدة أولى! فكرت بسخط، لم تتعلم قط كيف تلبس ملابس مناسبة في سن كان يجري فيها تلقين الفتيات جميعهن مثل هذه المهارات.

قالت هيلاري بأسى، كما لو كانت تريد استهداف أفكاري: الفتيات الأخريات في المدرسة الثانوية جميعهن كن مجنونات ملابس، وكان أبي يرى أن ذلك أمر تافه لا يجوز إنفاق المال عليه، وأجبرني على ارتداء ملابس غير

جذابة. أمي لم تكن قادرة على المساعدة، حين كنت أشكو لها قائلة إن الفتيات الأخريات جميعهن أفضل مني ملبسًا، كانت تقول إنها لا تقيم أي وزن لما ترتديه الفتيات الأخريات، كانت تقول لي: أنت فريدة ولست بحاجة إلى أن تفعلي ما يفعله الآخرون! يمكنك أن تكوني مستقلة بتفكيرك، غير أني لم أردَّ عليها مؤكدة رغبتي في ارتداء ملابس أنيقة بالرغم من استقلالي بتفكيري. لم يكن من شأن ذلك أن يجدي. وهل كانت تلك النقطة المضيئة التي رصدتها في عين هيلاري دمعة؟

استأنفت الكلام قائلة: وحين حل موعد الحفلة الراقصة في الثانوية، دفعني أبي إلى شراء أرخص الأثواب في المتجر؛ باستثنائي بدت الفتيات الأخريات جميعًا كما لو كن عارضات أزياء، أحيانًا يخطر لي أن رُخصه أفسد أنوثتي، وأدى إلى جعل تعاملي المريح مع الشباب صعبًا. تدريجيًّا، ما لبث بخله ونقده المتمادي أن تمخضا عما يشبه القطيعة الكاملة في علاقتنا.

ومن سيلومها؟! فكرت. استغرابي الوحيد أن الأمر لم يحصل في مرحلة أبكر من حياتها.

امتد الانقطاع إلى ما بعد أسلوبي في الملبس، بتنا مختلفين حول أبسط الأمور؛ السياسة، الحرب في فيتنام، أو الحركة النسوية، وازداد عناده وعدم تسامحه مع آرائي. غير أنها بوصفها هيلاري إياها، شعرت بضرورة إضافة: ولكنني كنت أعرف دائمًا أنه كان يحبني، وإن اختلفنا حول كل شيء.

بيتهم كان صغيرًا، بيت من الطوب بطبقتين مدهون بألوان باهتة محاط بأشجار القيقب والدردار. كثيرون من جيران عائلة رودهام كانوا قد نزحوا من شيكاغو هربًا من تدفق الأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية الآتين من الجنوب. كان رودهام يحتقر الزنوج، ويستخدم أحط التعابير في وصفهم.

لا غرابـة، لم يكـن ثمـة أي يهـود، أو زنوج، أو آسـيويين في بـارك ريدج قريبًا من بيته المفضل. مين الشرقية، حيث تابعت هيلاري تعليمها الثانوي حتى أنهت الصـف الحادي عشـر، كانـت في ذلك الوقت تؤوي العـدد الأكبر من القوقازيين مقارنة بأي ثانوية في البلاد. من الجدير بالإطراء أنها، بالرغم من تأثير أبيها، لم تكـن منحـازة عنصريًّـا – بعيـدة عن ذلـك في الواقع،واسـتنادًا إلى جهودها الرامية إلى مسـاعدة نسـاء الأعراق والأجناس جميعها في طول العالم وعرضه، أعتقـد أنهـا بريئة كليًّا من الانحياز، بالرغم مـن بعض القصص المناقضة التي انتشرت أيام حملتها الرئاسية عام 2008م.

كانت بارك ريدج ضاحية ذات نمط مختلف تمامًا عن نمط تلك الشيكاغوية الواقعـة علـى الشـاطئ الشـمالي الإقصائـي؛ كانـت البيـوت أجـدد، شـيدت في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته، ومن دون الاستعراضات المميزة للأحياء السـكنية الأكـثر حصريـة. أمـا الثمـن الـذي دفعه رودهـام مقابل بيتـه فكان– بالتأكيد– أقل بكثير من كلفة بيوت الوجاهة على الشاطئ الشمالي. ومع متابعة هيلاري كلامها الرتيب عن بيوت الحي، كتمتُ تثاؤبي؛ لم تكن الأسهل دائمًا من حيث الاستماع إليها.

كان أبـي يعـد نفسـه جمهوريًّا، حـاول فرض قناعاتـه السياسـية علينا عنوة (تابعت هيلاري). في عام 1952م أرغمنا على متابعة المؤتمر القومي الجمهوري علـى التلفـاز، وأبى السـماح لنا بمتابعـة المؤتمر الديمقراطي. غـير أني ضمنت زيارة صديقة حين علمت بموعد عرض الديمقراطيين.

لا غرابة على الإطلاق.

قال بل كلنتون إن حماه لم يتخلَّ، حتى بعد أن أصبح صهره رئيسًا للجمهورية، عن الأمل في أن ينقلب هذا الصهر، جمهوريًّا، ويقدم على إلغاء ضريبة الأرباح على الرساميل كليًّا.

أنـا لسـت خبيرة في السياسـة، غير أن بقـاء رودهام حالمًـا باحتمال انقلاب صهره بل كلنتون؛ رئيس جمهورية الولايات المتحدة، وقلب الحزب الديمقراطي، على ولائه الحزبي وصولاً إلى تلك المحطة التي يصبح فيها جمهوريًّا، من شأنه ألا يكون معقولاً. إلى أي حد يمكن للإنسان أن يكون منفصلاً عن الواقع، لا واقعيًّا؟

بأكثر النبرات فتورًا قالت لي هيلاري: مات أبي في السابع من نيسان/أبريل 1993م في الثانية والثمانين من العمر. فقط البريق في عينيها أشار إلى انطواء تصريحهـا على أي معنى خاص بالنسـبة إليها. تابعت: رغـم تعامله مع العائلة، حزنـت عليه كثـيرًا، وبالفعل فإن موته ألزمني حتى بأخذ إجازة عامة فيما كنت عاكفة على الانشغال بفريق عملي الخاص بالرعاية الصحية.

قـدرت أنهـا حزنت عليه حتمًا أكـثر مما عرفت، وظننت أنهـا كانت تتحدث عنـه حـين كتبت لاحقًا: «لكل منا خياره، أعتقـد أن واحدًا من التحديات الكبرى التـي نواجههـا في الحياة اليومية، هو أسـلوب التعامل مـع الخيبات والإحباطات الخاصـة، ومـا إذا كان المـرء قادرًا على العفو عن الألم الذي تسـبب به لآخرين، وبصراحـة الاعـتراف بـالألم الذي يكون المرء قد سـببه لآخريـن. أصلي كل يوم راجية، كما تقول الوصية الإنجيلية، تعلم مسامحة أعدائي».

ألقـى رئيـس الجمهوريـة كلنتـون كلمـة التأبـين في جنـازة هيو رودهـام. هل أثارت الكلمة إعجاب هيلاري؟ هل كانت راضية؟ هل رأت أنه كان قادرًا على أن يتصرف بطريقة أفضل؟ لن أعرف أبدًا. لم تبح بشيء.

بدلاً من ذلك، قفزت واقفة وقالت: عليَّ أن أغادر الآن.

أراهن أن عليك أن تفعلي، فكرت. فلتتدخل السماء نفسها لمنعك من الانهيار باكية!

2013 08 26

كانت الجلسة التالية في مكتبي الجديد بواشنطن، المكتب الذي كنت قد أثثته ليكون شبيهًا جدًّا بمكتبي المانهاتني القديم – واصلة حتى إلى درجة شحن أريكتي التحليلية الجلدية البنية. دخلت هيلاري كما لو أن شيئًا لم يتغير، وكما في نيويورك لم تعلق على المكتب، غير أني واثق من أنها مستوعبة كل شيء.

قالت: اليوم أريد أن أحدثك عن أمي: دوروثي هاول رودهام. بادئة بالوقائع، كانت هيلاري أقل تحفظًا مما سبق لها أن كانت عند الكلام عن أبيها. وشخصية دوروثي كانت مختلفة كليًّا عن شخصية زوجها؛ وُلدت في شيكاغو عام 1919م للأبوين أدوين جون هاول الابن، أحد إطفائيي شيكاغو، والسابقة الذكر دليا موراي. شقيقة دوروثي الوحيدة (إيزابيل) ولدت في 1924م. أجدادهما كانوا إنجليزًا، إسكوتلنديين، ويلزيين، فرنسيين، وهولنديين، وجدهما الأبوي كان مهاجرًا جاء من بريستول الغلوسترية. حشد من أجدادها المعاصرين كانوا قد عاشوا في كندا.

قالت هيلاري: طفولة أمي كانت بالغة السوء بما جعلها جديرة بأن يكتب عنها من قبل ديكنز*، عندي كوابيس عنها.

سألتها: هل تستطيعين إخباري عن الكوابيس؟

أجابت: لا أتذكرها.

كان علي أن أكون أذكى من أن أسألها.

واصلت هيلاري رواية قصة أمها: كانت العائلة تعيش في بيت مزدحم جنبًا إلى جنب مع أربع عائلات أخرى، وتكرر نقل أمي من مدرسة إلى أخرى. زواج أبويها كان بائسًا وغير موفق، وكانا مثل أبوي أنا، في شجارات عنيفة كثيرة، لم يكونا يلتفتان إلى طفلتيهما إلا لمامًا قبل طلاقهما في 1927م. ما لا يصدق أن أمي الصغيرة وأختها الأصغر إيزابيل أُرسلتا وحدهما بالقطار من دون إشراف؛ لتعيشا مع جديهما لأمهما في ضاحية الهامبرا اللوس- أنجيلوسية، بكاليفورنيا.

سألتِ هيلاري معبرة عن أقرب عاطفة سبق لي أن سمعتها منها إلى الآن: هل تستطيعين أن تصدقي؟ كيف يستطيع كائن من كان أن يسمح بذلك؟ ألم يبالوا بالأخطار التي يمكن أن تتعرض الطفلتين لها، وحدهما أيامًا في قطار مفتوح أبواب العربات مع غرباء كليًّا؟ هل هم بلا قلوب؟ في ذلك الوقت لم تكن دوروثي- المسؤولة عن شقيقتها الصغرى- إلا في الثامنة من العمر، وإيزابيل في الثالثة وحسب.

صُدمتُ رعبًا مثل هيلاري وتساءلتُ عن مدى إمكانية أن يكون أبوان (أو جدان) بلا قلوب، لم أقل شيئًا غير أنها لاحظت بالضرورة صورة الرعب على صفحة وجهي.

* تشارلز ديكنز روائي إنجليزي تميز بأسلوب الدعابة البارعة والسخرية اللاذعة. (1812_1870م).

ابتسمت وقالت بنعومة: جيد أن تشعر بأنك مفهوم.

وبعد مدة صمت قصيرة استأنفت: حياتا الشقيقتين لم تتحسنا مطلقًا في مأواهما الجديد؛ لأنهما عوملتا بقسوة من قبل جديهما غير المحبين منذ لحظة تخطيهما عتبة الباب، فدليا هاول كانت أساسًا قد تخلت عن أمي حين كانت في الثالثة أو الرابعة فقط من العمر، تاركة إياها وحيدة لأسابيع متواصلة مع بطاقات وجبات طعام صالحة للاستعمال في مطعم قريب من شقتهم الكائنة في مبنى الطبقات الخمس في الطرف الجنوبي من شيكاغو. هل يمكنكِ أن تتصوري طفلة في الثالثة أو الرابعة من العمر وهي تتناول وجبات طعامها وحدها في مطعم؟ حين أقارن ذلك بالاهتمام المفعم بالحب الذي نوليه، بلْ وأنا، لكل نزوة من نزوات تشلسي ينفطر قلبي أسى على أمي. اتسعت عينا هيلاري ألمًا.

لا، ذلك مستحيل! أمر لا يقبله العقل! قلت، حلَّلت كثيرين عبر السنين، غير أنني لم أصادف مريضًا تعرض لمثل هذا القدر من الإهمال، ولم أتصور أن يكون المعنيون من أجداد وجدات سيدة أمريكا الأولى!

يبدو أن السيد هاول، وهو أحد عمال المدينة، تخلى عن مهمة رعاية الطفلتين كليًّا لزوجه دليا التي تتذكرها دوروثي امرأة صارمة ذات ملابس سوداء دائمًا غير مستعدة للسماح لطفلتيها باستقبال الزوار أو حضور الحفلات، ودائبة على معاقبتهما جراء أتفه المخالفات، كانت دليا امرأة ضعيفة وأنانية أمضت معظم وقتها في سنواتها الأخيرة في متابعة المسلسلات التلفازية الصابونية الخفيفة.

قالت هيلاري: كانت الطفلتان هدفين ثابتين لسهام النقد، الاستهزاء، والعقاب القاسي. وحين اكتشفت السيدة هاول حضور أمي احتفال عيد القديسين جميعهم، عاقبتها بالمنع من الخروج من البيت إلا إلى المدرسة. دامت العقوبة بضعة أشهر، حتى جاءت شقيقة السيدة هاول، لحسن الطالع، لزيارة أختها ولتضع حدًا لقسوة دليا.

يا له من عقاب غير قابل للتصديق لمثل هذا السلوك الطبيعي! فكرت. يبدو أن المرأة ذهانية أو مضطربة عقليًّا.

كانت هيلاري نفسها تحتفظ بذكرى عن جدتها، ذكرى تلقي الضوء- مثل أي شيء- على نوعية تلك المرأة بوصفها شخصية أنانية ولامبالية. كانت دليا تتولى رعايتي وأخوي ونحن أطفال حين اصطدمت عيني بسور معدني لملعب باحة المدرسة. تدفق الدم مغطيًّا وجهي، هرعت إلى البيت باكية في حالة من الرعب، حين رأتني دليا أغمي عليها، تعين علي أن أسرع إلى الجيران طلبًا للنجدة، وحين عادت دليا إلى الوعي استشاطت غضبًا مني لتسببي بسقوطها مهددة إياي بغضب زاعمة أنني كدت ألحق بها الأذى، وتعين علي انتظار عودة أمي لأخذي إلى المستشفى وتقطيب الجرح، فيما بقيت جدتي جالسة أمام التلفاز تغمغم تذمراتها.

عادت هيلاري إلى التركيز على قصة أمها: مع أنه كان أوج أزمة الكساد، فإن أمي تحلت بما يكفي من الحكمة وهي لا تزال في الرابعة عشرة من العمر،إذ تركت بيت جديها غير السعيد وعثرت على عمل مقابل ثلاثة دولارات في الأسبوع مدبرة منزل، وطباخة، ومربية أطفال في سان غابرييل الكاليفورنية. لحسن الطالع لقيت معاملة أفضل من ربة عملها التي اكتشفت ذكاءها وشجعتها على القراءة وعلى الالتحاق بالمدرسة. قالت لي أمي: لولا تلك المدة مع عائلة لطيفة، محبة، لما عرفت كيف تربينا.

التحقت دوروثي بمدرسة الهامبرا (الحمراء) الثانوية حيث انتسبت إلى نادي الزمالة والنادي الإسباني، وحظيت بتوجيه معلمتين: الآنسة دريك التي كانت تعلمها الخطابة والتمثيل، والآنسة زيلهوفر معلمة الكتابة. «كانت تعلم الإنجليزية وبالغة الصرامة». كتبت دوروثيرودهام في 1998م في سجل إحياء الذكرى المئوية للمدرسة: «خرجنا من صفها محترمين إياها ومزودين بلغة إنجليزية سليمة. ما ميزها كان متمثلًا برغبتها في جعلنا نفكر نقديًّا».

من المؤكد أن هاتين المعلمتين المربيتين ساهمتا في أن تصبح دوروثي مثقفة. وتبدو هذه الفرضية مدعمة بملاحظة هيلاري أن بوسع راشدين حريصين ليسوا أبوين لطفل أن يلبوا حاجاته (ها) العاطفية. غير أن دوروثي حملت بالضرورة جملة الندبات المؤلمة لسوء معاملة وإهمال أبويها وجديها طوال حياتها. والاحتمال الأقوى هو أنها أصبحت أمًّا رائعة بتعلمها منهم ما يجب تجنبه في تربية الأطفال.

فور تخرجها في المدرسة الثانوية، فوجئت بدعوة أمها المتزوجة من جديد للعودة إلى شيكاغو، مع وعد بتقديم المال اللازم للالتحاق بالجامعة. طارت دوروثي من الفرح. قالت لابنتها بحدة: «كنت شديدة التوق لمحبة أمي فانتهزت الفرصة لأكتشف». إلا أن المحبة والتمويل الجامعي لم يتحققا؛ تبين أن الشيء الوحيد الذي كانت أم دوروثي تريده من لم الشمل تمثل بالحصول على مدبرة منزل مجانية.

كانت أمها قد تزوجت رجلًا يهوديًّا يدعى ماكس روزنبرغ، الأمر الذي أدى لاحقًا بالضرورة إلى سحق هيو رودهام المعادي للسامية، مع مفارقة انتساب إلى عم زوج يهودي. محاولة لم الشمل المحزنة بين الأم وابنتها كانت فاشلة كليًّا، إذ أحبطت دوروثي وزادت من يأسها لأنها باتت على يقين من استحالة تحقق أحلامها المعقودة على الفوز بمحبة أمها. لم يؤدِّ الأمر إلى شلها طويلًا؛ أقدمت الشابة الباسلة على أخذ أمور حياتها بيدها، وانتقلت إلى شقتها الخاصة، واهتدت إلى عمل مكتبي تكسب منه رزقها.

سأراهن أن هيلاري كانت مرشحة لأن تفعل الشيء ذاته في ظل ظروف مماثلة، هكذا فكرت. أستطيع أن أرى المنبع الذي استمدت ونهلت منه قوتها وتصميمها على الصمود وعدم الانسحاق.

أعزو اهتمامي الخاص برخاء الأطفال إلى حياة أمي المبكرة. قالت هيلاري بعينين براقتين. أساعدها رمزيًّا عن طريق تحسين حيوات أطفال يائسين في طول العالم وعرضه.

وافقتها: بصيرة ناجحة يا هيلاري.

في أثناء حملتها الرئاسية غير الموفقة عام 2008م، قالت هيلاري: مدينة أنا بإلهامي لشخص واحد: أمي التي لم تفز بأي فرصة تمكنها من التحدي، والتي عاشت طفولة بالغة الصعوبة، ولكنها زودتني بالإيمان بالقدرة على فعل كل ما أقرر فعله. هنا، للمرة الأولى في جلساتها، عبرت هيلاري عن شيء من العاطفة. أضافت: على الرغم من الأجواء القمعية الخاضعة لتحكم أبي، فإن أمي استطاعت أن تشجع طموحي وشغفي بالتعلم. على الدوام أقر بأن الفضل في امتلاكي للأدوات والصلابة اللازمتين لاقتحام السياسة يعود لأمي.

كانت دوروثي رودهام تستخدم أسلوبًا فريدًا في تعليم أولادها فن التزام الهدوء في زحمة الفوضى. حملت إحدى أدوات النجارة (ميزان الزئبق)، وقالت: «انظروا، أليست هذه أداة؟ تصوروا أنها في دواخلكم، عليكم دائمًا أن تحاولوا إبقاء الفقاعة في المركز». قلبت الأداة لبيان كيفية انتقال الفقاعة إلى الأعلى أو إلى الأسفل، موجهة الصغار إلى وجوب الحرص على إعادة الفقاعة إلى الوسط دائمًا. كانت تطلق على العملية اسم «تجريد العواطف من الحساسيات».

من شأن التقنية أن تكون قد أنقذت رجاحة عقل هيلاري إبان سنوات البيت الأبيض الصعبة. يعود الفضل لأداة النجار (ميزان الزئبق)، قالت هيلاري علمتني كيف أبقى متماسكة في أثناء العيش في البيت الأبيض في عين سلسلة طويلة من العواصف. ولكن مهما كان نجاح عملية تجريد العواطف من الحساسيات في مساعدتها على التعايش مع أب مستحيل الإرضاء، والاضطلاع بدور سيدة أولى في أيام عسيرة، فإن الأمر معضلة مؤكدة بالنسبة إلى أي تحليل نفسي ناجح.

تابعت هيلاري: كانت أمي امرأة غير عادية جدًّا؛ كنت فخورة بكونها متمتعة بوعي اجتماعي لم يكن متوافرًا إلا عند قليلين، كانت على الدوام تحاول مساعدتنا على فهم ما هو منصف وعادل، شجعتنا على الصراحة، وعدم الاكتراث بما يراه الآخرون فينا، وأن نكون أنفسنا لا أكثر ولا أقل.

يا للموهبة العظيمة التي زودت هيلاري بها! لا غرابة في أنها متحلية بهذه الصراحة حيثما شاءت.

ومع أنه كان صعبًا، فإن هيو رودهام ساهم أيضًا في نجاح هيلاري السياسي. هيو رودهام هذا كان حرفيًّا، ودوروثي رودهام حاصلة على الثانوية فقط. معًا أسقطا على ابنتهما طموحًا يائسًا إلى تحسين وضعها. وشغف دوروثي رودهام بالقراءة يتجلى في ابنتها التي تقرأ بنهم مدهش. وعلى نحو غير قابل للتصديق، فإن هيلاري قرأت سير حيوات السيدات الأوليات الواحدة والأربعين اللواتي سبقنها جميعًا. (بل وقرأت حتى سلسلة الروايات الملغزة التي كتبها إليوت روزفلت حيث تبدو أمه إليانور تحررية هاوية).

وبحسب رواية هيلاري، فإن أمها، فيما كانت تتقدم بطلب للعمل ضاربة آلة كاتبة في إحدى شركات النسيج عام 1937م، التقت بائعًا جوالًا يدعى هيو الزوورث رودهام، يكبرها بثماني سنوات. وبعد مدة غزل طويلة، اقترنا زواجًا أوائل عام 1942م، كان اقترانًا بائسًا بقيت دوروثي نادمة عليه حتى موت هيو، غير أنها حافظت على العلاقة الزوجية؛ لإيمانها – كما قالت هيلاري – بأن لا شيء أهم من بقاء الحياة الزوجية مستمرة بالنسبة إلى الأولاد.

لم أقتنع بذلك، غير أني لم أكن مستعدة للبوح بذلك لهيلاري؛ أعتقد أن دوروثي كانت – بطريقة شاذة ما – تحب زوجها، تمامًا كما أظن أن هيلاري

تحب بلِّ. وبالنسبة إلى السوداويين (السادومازوخيين*) فإن الحب لا يمكنه أن يكون حبًّا بلا ألم.

تفرَّغت دوروثي لبناء صرح العائلة، عاكفة على تنشئة أطفالها الثلاثة، قاضية ساعات بعد الظهر في المكتبات والمتاحف. تألقت عينا هيلاري حين قالت: الفضل كله يعود لأمي في تشجيعي على عشق المعرفة، على التحلي بالفضول إزاء العالم من حولي الذي لم يتح لها قط أن تراه، وعلى امتلاك إرادة مثابرة فولاذية. كانت خبيرة في ذلك، مدهش حقًّا أنها استطاعت تشجيعي على حب التعلم ومتابعة التعليم والاحتراف، تلك الأمور التي لم تحصل عليها هي قط، وعلى النقيض من آراء أبي الجمهورية الصارخة، فإن أمي كانت ديمقراطية أساسًا، وإن لم تشتهر بذلك. في سنواتي الأولى كنت جمهورية صلبة مثل أبي، غير أنني ما لبثت – لاحقًا – أن بدلت حزبي وأصبحت ديمقراطية متشددة، وأدى التغيير إلى تقاربنا؛ أمي وأنا، أكثر من أي وقت مضى.

كانت السيدة رودهام تصر على تصدي هيلاري للمتغولين، مَلَكَة أبقتها في حالة جيدة إبان حياتها السياسية، كانت دوروثي تدفع أولادها إلى الصمود في وجه مضطهديهم، كما قالت هيلاري: مرة وأنا في الرابعة هرعت إلى أمي باكية إثر تطاول ابنة جيران اسمها سوزي عليَّ؛ لم أفز بأي تعاطف من أمي الجبارة التي أكدت – بدلًا من ذلك – أن لا مكان للجبناء في عائلتنا، ولا أستطيع أن أكون خائفة، قالت أيضًا إنني مخولة بالرد على الاعتداء.

أخبرتني لاحقًا أنها كانت تراقب من خلف الستارة حين عبرت الشارع شادة كتفي، عدت بعد بضع دقائق مشعة من أخمص القدم إلى قمة الرأس، وقلت: أستطيع الآن أن ألعب مع الصبية؛ بل يمكنني أن ألعب حتى مع سوزي، وبالفعل أصبحنا صديقتين ناجحتين ولا نزال.

---

* تعرف السادية على أنها اضطراب نفسي يتجسد في التلذذ بإيقاع الألم على الطرف الآخر. أما المازوخية فهي اضطراب نفسي يتجسد في التلذذ بالألم.

كذلك بادرت هيلاري حين كانت في السنة الأولى بكلية ويزلي في ماساتشوستس، إلى الاتصال بأمها للاستفسار عن مدى قابليتها للبقاء في كلية رابطة آيفي ومواصلة التنافس، مرة أخرى رفضت السيدة رودهام أن تمنح ابنتها فرصة نفض اليد. «لا يمكنك أن تتركي»، اقتبست هيلاري كلام أمها «لا بد لك من أن تكملي ما بدأتيه وذلك هو ما فعلته».

ذكرني ذلك بملاحظة أخرى من رصيد ملاحظات إليانور روزفلت: «نكسب قوة، شجاعة، وثقة في كل مرة نتحدى فيها الخوف وجهًا لوجه؛ علينا أن نتعلم كيف نقوم بالشيء الذي نظن أننا لا نستطيع فعله».

سمعتْ هيلاري كلام أمها، أتقنت فن تحدي الخوف، فصارت أقوى وأقوى.

بقيت في ويزلي إلى أن حصلت على درجة ألـ بي إيه في 1969م، قالت: جئت إلى ويزلي حاملة قناعات أبي السياسية وأحلام أمي، وغادرت حاملة بدايات قناعاتي وأحلامي الخاصة.

تعلمتْ دروسًا ثمينة كثيرة من ولزلي من خلال حشد من المصادر المتنوعة، خلطتْ هذه الأفكار معًا لتصوغ أهدافها المستقبلية الخاصة، أسلوب التخطيط للتحرك من أجل بلوغها أخلاقًا عملية قوية كانت قد امتدت إلى ما بعد ما جلبته معها إلى ويزلي أشواطًا، وثقة بأنها مؤهلة للتطاول نحو النجوم، كذلك غادرت متمتعة بقوة شخصية مهنية، ساعدتها على الصمود أمام الهجمات القاسية المشحونة بالحقد التي شنها الجمهوريون عليها إبان رئاسة بل للجمهورية، ووابل الحجارة والسهام الديمقراطية التي استهدفتها في أثناء حملتها الترشيحية عام 2008م.

بحسب كلام إيرنست ريكتس، أحد أصدقاء هيلاري في مرحلة الطفولة كان «أحد الأشياء التي قالتها دوروثي هو أن هيلاري كانت دائمة التمتع بألوان الكفاءة، الثقة، والعناد اللازمة لبطح الشيطان أرضًا. تمثل حلم دوروثي بأن

تكبر هيلاري حتى تصبح المرأة الأولى في المحكمة العليا، وفيما بعد علقت مازحة أن ساندرا داي أوكونور كانت قد تفوقت عليها للأسف، إلا أنني تصورت أن إنجازات هيلاري اللاحقة عوضت عن حلم يقظة لم يتحقق.

يا لها من أم رائعة تلك التي كانت لهيلاري! كانت مسؤولة، كما هي بالنسبة إلى سائر الأشياء عن نجاح ابنتها العظيم كما عن قوة شخصيتها، تقول مخرجة هوليوودية وصديقة عائلة كلنتون تدعى لندا بلودوورث ثوماسون: «دوروثي رودهام هي الشخص الذي شكل هيلاري أكثر من أي شخص آخر، وكل من يعرف دوروثي لا يمكنه إلا أن يرى مدى انخراطها في صوغ ابنتها، تلك المرأة الهادئة دوروثي رودهام كانت حاضرة دائمًا لنجدة هيلاري وعائلتها، سيكولوجيًّا، واقفة خلف الستار، داعمة الجميع بهدوء».

غير أن هيلاري ودوروثي – بالرغم من عظم حب كل منهما للأخرى– لم تكونا قريبتين مثل الكثير من الأمهات والبنات عادة، لم تكونا صديقتين حميمتين مؤتمنتين على أسرار بعضهما. قالت دوروثي لأحد المراسلين، مثلًا: إنها لم تكن تناقش أي شيء مع هيلاري حول زواجها، حول شخصها، أو حول أي أمور ذاتية. أفادت بأنهما لم تكونا تتحدثان عن أي أمور شخصية عميقة. يصعب التصديق، غير أن ذلك هو ما قالته دوروثي. أنا لا أصدق بصراحة!

لعل الأدق هو تصريحها: «وُلدت هيلاري راشدة؛ لم يسبق لها قط أن بدت بحاجة إلى تهذيب أو دفع. ما إن تبادر إلى أي شيء حتى تكمل الطريق مثل عجلات القطار السريع». إذا عنت دوروثي أن ابنتها كانت – من البداية – قمة الكمال العقلاني والوجداني، فإن ملاحظتها غنية بالمعاني.

أحيانًا أتساءل عما إذا كان الناس يغدون – فعلًا – شخصياتهم مع النضج. مرة شاهدت فلم فيديو عن رضع صغار حيث كانت صور فعالياتهم وهم رضع تقارن بنظيرتها التي تكشف عن سلوكهم الراشد. لم يجد الناس صعوبة في عطف الرضع على أشخاصهم بعد أن كبروا، لم يتغيروا كثيرًا في الحقيقة.

كانت دوروثي رودهام جاهزة لمساعدة الأصدقاء جنبًا إلى جنب مع عائلتها. تقول صديقة عمرها هازل برايس: إن «دوروثي كانت موجودة دائمًا عند الحاجة إلى أي شيء، حاضرة كانت بالنسبة إلى الصغار كما الكبار، غارسة احترام الذات والثقة في نفوس صغار الحي كما في نفوس أولادها باستعدادها للإصغاء إليهم باهتمام وهم يتحدثون عن مشكلاتهم وصراعاتهم». يبدو أنها كانت أفضل إصغاء لأطفال الحي منها لابنتها الراشدة أحيانًا، إذا صدقنا كلمات دوروثي المسجلة حول الموضوع.

غاصت هيلاري في أريكتها وهي تستغرق في التفكير بذكريات أخرى عن دوروثي. أشرق وجه هيلاري فعلًا إذ تذكرت كلمات جارتها السابقة عن أمها، كما لو كانت راغبة في الاستزادة: «لم تكن جدية وحريصة على الدوام، كانت عظيمة التفاعل مع روح النكتة، هي وأبي كانا راقصين ماهرين؛ كانت تعشق الرقص».

عواطف السيدة برايس تجاه صديقتها كررها كثيرون بمن فيهم زوج موظفة سجلات ناحية لاكاوانا إيفي رافالكو ماكنولتي التي تتذكر – كما قالت هيلاري – دوروثي رودهام امرأة لطيفة، قريبة من القلب كانت ذات تأثير إيجابي في أولادها وأحفادها: «كانت سيدة قادرة على الوصول إلى العالم عن طريق ابنتها وصهرها، غير أنها لم تفكر بذلك قط» قالت ماكنولتي: «بدت الأم والجدة المتفانية التي كانتهما، لم تهوَ الأضواء والنجومية قط، لم تكن تريد أن تكون إلا دوروثي رودهام. ذلك هو ما كانته».

البنت صورة أمها –قلت في نفسي– اقتنعتُ بأن هيلاري لا تريد أن تكون إلا هيلاري، مهما كلفها ذلك، غير أني أخشى أن تكون مقاربتها لفكرة (جذب الأضواء) مختلفة عن مقاربة أمها.

كان أفـراد عائلـة رودهام يترددون على الكنيسـة الميثوديـة* المتحدة الأولى علـى مسـافة أربـع بنايـات عن مسـكنهم بشـارع ونز في بايـن ريدج، مـع أن هيو كان متكـرر الغيـاب عن صلوات أيام الأحد مبرِّرًا بأنه يفضل الصلاة في البيت، تصـورت أن صلاتـه كانـت ثانوية بالنسـبة إلى متابعتـه للبرامـج التلفازية. أما هيـلاري الميثوديـة الورعـة فكانت ممارسـتها متطابقة مـع مواعظهـا؛ كثيرًا ما كانت – هي وفريقها الشـبابي الكنسي – تتولى رعاية الأطفال المحرومين للعمال المهاجريـن المكسـيكيين الذيـن كانوا يعملون في جني المحاصيـل قريبًا من بيتها. على الدوام كانت هيلاري ترتاح كثيرًا في دين ظلت تستمتع بتقاسمه مع آخرين منـذ طفولتهـا، في إحدى المـرات– حين كان بل كلنتون حاكمًا لآركنسـو– طافت على الولاية متحدثة عما يعنيه أن يكون المرء ميثوديًّا.

لم تكـن الجرائـد راضيـة دائمًـا عـن سـلوكها؛ إحـدى النشـرات المتطرفـة المحافظة وصمت هيلاري بـ «نسـوية متطرفة لا تقيم وزنًا لقيم الدين، بل وحتى لوحدة العائلة التقليدية». تساءلت عن مصدر معلوماتها باستغراب.

في مؤتمرهـم القومـي عـام 1992م، اتهـم الجمهوريون هيـلاري بالتأثير في زوجهـا لدفعه إلى اعتماد أجندة ليبرالية سـرية، وقعوا في خطأ شـنيع؛ قناعات هيلاري الدينية سـاعدت على تشـكيل شـخصيتها وتبقى نواة مـا تكونه؛ مؤمنة هـي بالفلسـفة الميثوديـة القائمـة على تصويب شـؤون العـالم بالقيـام بالأعمال الصالحـة، ومازالـت تصطحـب الإنجيل حيثما ذهبت وهي تقرأ فيه باسـتمرار وتضع الإشارات.

وكمـا فعلـت في ميادين أخرى كثيرة، حذت هيـلاري حذو أمها على الصعيد الدينـي؛ فـ «المجـيء من طفولة محرومـة من الحب – كما درجـت هيلاري على

* الميثودية أو المنهاجية هي طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة علـى يـد جـون ويـزلي، وانتشـرت في بريطانيـا ولاحقًا من خلال الأنشـطة التبشـيرية في المسـتعمرات البريطانية حتى الولايات المتحدة الأمريكية. كانت موجهة بشكل أساسي للعمال والفلاحين والعبيد.

تسميتها – إلى شخصية مفعمة بالحب ونكران الذات، يفسر تمامًا ما كانته روح دوروثي غير القابلة للقهر»، كما قال رئيس بلدية سكرانتون جيمس باريت ماكنولتي عن دوروثي رودهام: «تمتلك هيلاري الروح ذاتها، صلبة، ولكنها ملأى بالرحمة والشفقة في الوقت نفسه. أن ترى هيلاري كلنتون، يعني أن ترى دوروثي رودهام».

باعتزاز قالت هيلاري: كانت موجودة دعمًا لحفيدتها تشلسي أيضًا، أحبت تشلسي أمي إلى درجة العشق، واتصلت بها كل يوم، عبرت عن اندهاشها إزاء كثرة المصاعب التي كانت جدتها قد تغلبت عليها، وكذلك عن امتلاكها القدرة على بناء حياة أفضل لأولادها بالرغم من المصاعب الراعبة التي وضعتها الحياة في طريقها، أفادت بأنها طامحة إلى تقليد جدتها وفعل ما فعلته للأطفال الذين تأمل في إنجابهم يومًا؛ وفي العمل يطيب لها أن تعمل لصالح الأطفال الأقل حظًا.

في التاسع عشر من أيلول/ سبتمبر 2011م، دوَّنت تشلسي على موقعها في الفيسبوك: «يلهمني أبواي وجدتي كل يوم، في كل من العمل والحياة اليومية على حد سواء؛ أفكر بأفضل طرق العيش وفق شعاري جدتي التوأمين اللذين يقولان: (1) ليست الحياة إعادة نهائية (بروفة أخيرة)، و(2) ليست الحياة ما يحدث لك، بل ما تفعله بما يحدث لك؛ بما يصيبك منها».

«عاشت جدتي حياة بالغة الإثارة وانتصرت على تحديات حين كانت طفلة، تحديات لا أستطيع حتى تصورها»، قالت تشلسي: «وتصميمها على بناء حياة أفضل لأولادها، الأمر الذي علم أمي وأبي كيف يبنيان حياة أفضل لي، شيء أشعر بالاعتزاز والفخر به».

في 1987م، انتقلت السيدة رودهام وزوجها إلى ليتل روك الآركنسوية، ليكونا قريبين من ابنتهما وحفيدتهما، وبوصفها طالبة ممتازة في شبابها، باتت

السيدة رودهام أخيرًا قادرة على متابعة دورات جامعية في مواد معينة مثل السايكولوجيا (علم النفس)، المنطق، وتنشئة الأطفال، لم تتخرج قط؛ لأنها لم ترغب في الاستقرار والانتقال إلى السنة الثانية في أي مادة دراسية، ابنتها المحبة لم تنفض يدها قط من النهاية الخرافية لرحلة دوروثي من فتاة صغيرة مهملة وحدها في قطار إلى أم السيدة الأولى للولايات المتحدة.

قالت: «تصورت أنها قصة غير قابلة للتصديق، مندهشة أنا كيف خرجت أمي من مأزق حياتها المبكرة المعزولة لتغدو هذه المرأة الحنون، المتوازنة، وراجحة العقل». لم تتوقف دوروثي رودهام عن التعلم طوال حياتها. انظروا إلى ابنتها هيلاري أيضًا مقتفية خطا أمها، وهي دائبة على مواصلة توسيع معرفتها كل يوم من أيام حياتها.

مات هيو رودهام في 1993م، وتساءلت عما إذا افتقدته دوروثي كثيرًا أم أنها ارتاحت لغيابه، ربما راودها الشعوران كلاهما. ظلت نشيطة إلى نهاية حياتها، إلا أنها كانت حريصة على صون خصوصيتها، ونادرًا ما تحدثت إلى وسائل الإعلام، فالجمهور لا يعرف – إذن – إلا القليل جدًّا عنها. ظهورها في عرض أوبرا وينفري عام 2004م كان استثناء، وفي 2006م انتقلت إلى بيت عائلة كلنتون الفسيح بوايت هيفن في حي كالوراما في واشنطن، العاصمة.

في كانون الأول/ديسمبر 2007م، أقدمت وهي في الثامنة والثمانين من العمر على نوع من الظهور النادر في آيوا وعدد من الولايات الأولية المبكرة؛ للترويج لحملة هيلاري من أجل الفوز بالترشيح للرئاسة، مثل ابنتها درجت دوروثي على الظهور في مناسبات ذات علاقة بقضايا نسوية في أحد الإعلانات التلفازية لحملة كلنتون. سُلِّطت الأضواء على حياتها في كانون الثاني/ يناير 2009م حين حضرت الأم المزهوة حفل تنصيب هيلاري وزيرة خارجية الولايات المتحدة، ولكن الأهم من ذلك كله أن بادرت هيلاري إلى التعبير عن حبها العميق لأمها وعن مدى عدِّها إياها جزءًا لا يتجزأ من أسرتها؛ إذ جعلت دوروثي تظهر معها

هـي وتشلسـي علـى المنصة الرئاسـية حين أدى بل كلنتون القسـم لـدى تنصيبه رئيسًا لجمهورية الولايات المتحدة.

كانـت دوروثـي رودهام متقدمة علـى عصرها من نواحٍ كثـيرة. خلافًا لحال أمهات صديقات هيلاري، لم تكن دوروثي تلازم البيت مشغولة بالتدبير المنزلي النهـار كلـه، بـل كانـت تقضي أي وقـت إضافي تتمكـن من اقتطاعـه في المكتبات والمتاحـف. وقـد تحدثـت التقارير عن أنهـا زادت كثيرًا من قربهـا من حفيدتها تشلسـي بعـد مـوت زوجهـا. سـافرت إلى باريـس مع هيـلاري حين قام الرئيس بزيارة رسمية لتلك العاصمة، كانت تلك سفرتها الخارجية الأولى.

تقـول هيلاري وهي تهز رأسـها: كانـت أمي مغرمة بحب بيتهـا وعائلتها، إلا أنها كانت تشعر بأنها مقيدة بالعدد القليل من الخيارات المتاحة للنساء في ذلك الزمن. من السـهل الآن نسـيان مدى قلة تلك الخيارات بالنسـبة إلى جيل أمي، بعد أن باتت خيارات النساء طاغية.

لو كان ذلك قبل جلوس هيلاري كلنتون أمامي، لأقسـمت أنني رأيت وميض الدمـوع في عينيهـا وهـي تتحدث. ثم راحت هيـلاري تصف أمها امـرأة متحلية بروح دعابة هائلة، امرأة مطلقة التفاني ونكران الذات لأسرتها، ومسلحة بقدر كبـير مـن حب المغامرة. قالـت هيلاري: كانت أمي امرأة دافئـة، كريمة، وقوية، مثقفة؛ امرأة كانت تروي نوادر عظيمة وتتلقفها دائمًا؛ امرأة كانت صديقة غير عاديـة، إضافة إلى كونها – قبل كل شـيء – زوجًـا، وأمًا، وجدة عامرة بالحب. هذه المرة كنت واثقة من تسابق الدموع في عينيها.

كان مـن شـأن دوروثـي رودهام أن تكون امـرأة جديرة بالأمومـة، من المؤكد أنها أسهمت بقوة في بناء شخصية ابنتها، أفادت هيلاري بأنها نشأت في العائلة الأسـرية العاديـة، حيـث تتولـى الأم مهـام المسـاعدة والتشـجيع، ويضطلع الأب بـدور كسـب المال الـلازم لتغطية تكاليـف حاجات العائلة. ربمـا بطرق مختلفة،

كان للأبوين أهمية متكافئة في إعداد ابنتهما لتصبح وزيرة خارجية الولايات المتحدة.

حين وضعت هيلاري حدًّا لحملة ترشحها للرئاسة بإلقاء خطاب في حزيران/ يونيو 2008م، بمبنى المتحف القومي في واشنطن كانت دوروثي تتابع عن بعد، وشوهدت وهي تمسح دمعة حين نطقت ابنتها بالتنازل عن الترشح لباراك أوباما. أما بعد بضعة أشهر، حين وقفت باعتزاز فيما كانت ابنتها تؤدي يمين قسم تولي منصب وزيرة خارجية أوباما، فقد بدت مختلفة كثيرًا.

ألغت هيلاري سفرة خارجية كانت قد خططت لها إلى لندن وإستانبول لتبقى بجانب سرير أمها المحتضرة. رحلت السيدة رودهام بعيد منتصف الليل في إحدى المشافي، محاطة بعائلتها المحبة، في واشنطن العاصمة. سبب الموت غير معروف، وتقصدت هيلاري ألا تخبرني، غير أن الاعتقاد السائد هو أنها كانت تعاني مشكلات قلبية. موت السيدة رودهام أنهى مدة طويلة تولت فيها هيلاري بإخلاص مهمة رعاية أمها.

حُزْنُ هيلاري على فقد أمها كان هائلًا إلى درجة أدت إلى عجز وزيرة الخارجية المدمنة على العمل عن استئناف عملها لبعض الوقت، كانت هيلاري عميقة الحب لأمها؛ فبعد موت دوروثي لم تعد الحياة هي ذاتها بالنسبة إلى هيلاري أبدًا، وربما إلى الأبد؛ باتت هيلاري وحيدة قليلًا، غير أن دوروثي رودهام مازالت مفعمة بالحياة بوصفها الأنموذج المثالي للأم، للمعلمة التي علمت ابنتها كيف تكون أمًّا ممتازة، وللحركية الناشطة الدائبة على السعي لتحسين حيوات الأطفال في طول العالم وعرضه.

قامت مؤسسة بتوجيه هذا البيان المؤثر عن رحيل دوروثي رودهام إلى وسائل الإعلام:

«ولدت دوروثي هاول رودهام بشيكاغو في الرابع من حزيران/يونيو 1919م، ورحلت بعيد منتصف الليل بتاريخ 2011/11/1م في واشنطن العاصمة، محاطة بعائلتها المحبة، قصتها كانت أمريكية من حيث الجوهر؛ لأنها كتبتها بيدها بالذات في المقام الأول، تفوقت على الإهمال وهزمت المصاعب وهي فتاة صغيرة حتى أصبحت السيدة المرموقة التي كانتها.

كانت دوروثي وستبقى على الدوام حية في الذاكرة المحبة لكل من ابنتها وصهرها؛ هيلاري رودهام كلنتون وبل كلنتون؛ لكل من ابنيها وكنتيها، هيو رودهام وماريا، وطوني وميغان رودهام؛ لكل من حفيدتها تشلسي وزوجها مارك ميزفينسكي، حفيدها زاخاري رودهام، حفيدتها فيونا رودهام، وحفيدها سايمون رودهام. تترك وراءها أصدقاء كثيرين من مراحل حياتها وأمكنتها جميعها، أصدقاء من كاليفورنيا عاشت معهم في الثانوية، أصدقاء من ليتل روك وواشنطن تقاسمت معهم استكشاف العالم، الناس الذين كانوا أطباءها أولًا ومن ثم أصدقاءها في مستشفى جورج واشنطن، وأولئك الذين التقتهم عن طريق أولادها وأحفادها ممن صاروا أصدقاء لها كما لهم. كانت عائلتها وستبقى إلى الأبد شاعرة بالامتنان لأنها حصلت على نعمة حياة دوروثي إضافة إلى ذكريات ستحتفظ بها إلى الأبد».

في سيرة حياة هيلاري، امرأة مسؤولة، بقلم كارل بيرنشتاين، يقال: «غرست دوروثي هاول في أولادها إحساسًا طاغيًا بالعائلة وحبًّا لبعضهم، إحساسًا وحبًّا كانا منطويين على أهمية استثنائية فريدة بالنسبة إلى هيلاري». صبت دوروثي في أذن هيلاري طوفانًا من الكلام عن أن أحدًا من عائلة رودهام لم يكن مطلَّقًا. تكرارًا قالت: «إياك أن تتخلي عن بل كلنتون؛ تستطيعان تسوية الأمر معًا، يجب ألا تفرطا بحياتكما الزوجية! لابد لأي طفل (طفلة) من أب!».

قالت هيلاري موافقة: نعم، علمتني أمي أن الحفاظ على تماسك العائلة هو مفتاح إبقاء الفقاعة في المركز. وأضافت: إذا تزوجت لمدة أكثر من عشر دقائق

فإن عليك أن تسامحي قرينك على هفوة ما، وبل ليس أسوأ من الآخرين. ثم قالت هيلاري ونظرة بعيدة في عينيها: لن أنسى ذلك أبدًا.

مع تدهور حالة زوجها الصحية، صارت دوروثي حتى نوعًا من الروح الحرة، عاطفية حينًا، تحليلية آخر، روحانية مرة وميالة إلى المغامرة أخرى؛ إلا أنها لم تنسَ دينها قط، وظلت تدرس في مدرسة الأحد مثلما ستفعل ابنتها لاحقًا.

تغيرت دوروثي مع مرور الأيام، وواصلت النمو وزيادة النضج حتى آخر حياتها، من اللافت أن أفلامها المفضلة لم تكن تلك العائدة إلى أيام طفولتها، بل مغامرات بريسيلا The Adventures of Priscilla، ملكة الصحراء Queen of the Desert (قصة مهرجة أسترالية)، والفلم الدامي الكلاسيكي بالب فكشن Pulp Fiction.

ردًا على سؤالي قالت هيلاري: أنا أيضًا أحب الأفلام السينمائية وكذلك بل، أحيانًا نتابع برنامج الساعة الخامسة، الساعة السابعة، والساعة التاسعة، على نحو متواصل. كان صعبًا علينا أن نغادر البيت الأبيض، فكنا نتابع الأفلام على التلفاز، كنت أعشق جلسات المشاهدة التلفازية الجماعية وسيقاننا ممدودة ونحن على كراسي البيت الأبيض الرائعة، مواصلين قضم الفشار (حبات الذرة المشوية). مؤخرًا غردت مع كبيرة إداريي فريق اتصالات تويتر، راشيل هورفيتز لأقول لها إني مهووسة مثلها بمسرحية الطبقة العليا–السفلى، داونتون آبي Downton Abbey [دير داونتون].

سألتها: وما الذي يعجبك فيها؟

ترددت قليلًا، ثم ردت معترفة: أستطيع مشاهدتها وأتظاهر أنا أيضًا سيدة الدارة الإنجليزية. من نواحٍ كثيرة، لا يختلف الأمر عن كون المرء سيدة أولى.

ضحكت وقلت: أنا أيضًا أحب داونتاون آبي. سعيدة أنا أن أسمع منك يا هيلاري أنك تسترخين فعلًا أحيانًا، مثلنا نحن الناس العاديين.

ردت: بل أفعل، غير أن استرخائي الرئيس يكون حين أعكف على حل ألغاز الكلمات المتقاطعة؛ ذلك يضاعف من قوة الدماغ.

يا لها من امرأة! (قلت في نفسي)، كنت أعلم أنك لست مستعدة للقيام بأي شيء لمجرد اللهو!

تابعت هيلاري: حين كنت أسعى للحصول على ترشيح انتخابات ألـ 2008م، قلت للواشنطن بوست إن موهبتي الخفية هي حل ألغاز الكلمات المتقاطعة، أتقاسم شغفي هذا مع نانسي بيلوسي التي قالت إنها تسهر إلى وقت متأخر في الليل عاكفة على حل ألغاز الكلمات المتقاطعة في النيويورك تايمز.

واصلت هيلاري الكلام عن اهتماماتها، واكتشفتُ أنها أوسع مما كنت قد عرفت؛ حاولتْ في البيت الأبيض التماس الفهم الذاتي والإلهام من نسويي العصر الجديد، من اختصاصيي المعالجة، ومن اللاهوتيين من أمثال القس مايكل ليرنر، الأنتروبولوجية ماري كاثرين بيتسون، والسيكولوجية جان هوستون التي قالت: «في عصرنا، جئنا إلى المسرح حيث يبدأ عمل الإنسانية الفعلي».

إلا أن النبأ الأغرب جاء من ملاحظة ذات علاقة بتجربة هيلاري في مدرسة الحقوق؛ ملاحظة أن إحدى مدرساتها في مركز دراسة الطفل بييل كانت آنا فرويد، من كان يمكن أن يقدر؟! كانت هيلاري ملأى بالمفاجآت، قد لا يتعين علي أن أفاجأ، أنجزت عملًا رائعًا إذ قامت بتربية تشلسي، ربما وظفت ما تعلمته من آنا فرويد في هذا القطاع الأهم من حياتها.

لا يتفق الجميع على أن هيلاري إنسان رائع؛ أفترض أن أي محلل نفسي ملزم بالنظر إلى جوانب الصورة جميعها؛ هاكم إذن ما لدى كارهي هيلاري من كلام:

كتبت كاميي باغليا في السليت تقول: «حان وقت إطلاق جيلي، جيل وفرة الأولاد! عشنا أيامنا ونجحنا في تلويث أشياء كثيرة وتحويلها إلى زبالة. يبقى

محيرًا كيف أن أحدًا يمكن أن يتصور أن هيلاري كلنتون هي أفضل فرص حزبنا. مثقلة هي بحقائب، مسودة أكثر من أي قطار ذي (90) عربة. وما الذي سبق لها بالمطلق أن أنجزته بدقة؛ عدا التغطية الغبية لفضيحة زوجها محترف الغزل؟ من المؤكد أنها مشغولة، غارقة في العمل، دائمة الحركة بنوع من الإدمان المَرَضي للعمل النفقي الضوء لشخص يحاول طمس أفكار خاصة مزعجة».

يجب أن أكون قد أوشكت على فقدان الموضوعية التي يتعين على كل محلل نفسي أن يتحلى بها إزاء مرضاه، إذ أثارت تعليقات باغليا حنقي.

وقفت وقلت: آسفة أنا يا هيلاري، حان وقت المغادرة.

نظرت إلى ساعتها وقالت: أليس الوقت مبكرًا؟ للتو دخلت في هذا الموضوع، ألا يمكنني أن أبقى بعض الوقت الإضافي؟

أجبتها: ثمة مريضة أخرى بانتظاري.

تقديري أن من يقولون (لا) لهيلاري ليسوا كثيرين. وقفت منتصبة القامة، أبرزت شفتها السفلى، ثم مشت متشامخة إلى خارج الغرفة.

قلقةً من الإخفاق في مساعدة شخص خارجي التوجه مثل هيلاري، هربت إلى النوم تلك الليلة ورأيت حلمًا؛ تجسد وجه كارل يونغ مسودًّا أمامي، لا شيء آخر، وجهه العملاق وحسب، مع شاربه الأنيق، مالئًا شاشة الحلم. حين استيقظت، تساءلت: يونغ؟ لماذا يونغ؟ أنا لست يونغية؛ لم يسبق لي قط أن وجدت مؤلفاته ذات فائدة كبيرة، غير أن من شأن ذلك أن يدفعكم – إذن – إلى الظن بأنني انتهازية، سيكولوجية دائبة على توظيف أي مدرسة سيكولوجية تقدم لي خدمة في عملي، رحت أحاول تذكر ما كنت قد درسته عن يونغ منذ سنوات طويلة.

الشـيء الأول الـذي خطـر ببالي هـو مؤلَّفه المبكـر عن الانطـواء على الذات والانبسـاط خارجهـا، نعـم، نعـم، نعـم؛ يجـب أن يكون ذلـك هو معنى الحلـم، فكرت منتشـية. كان يونغ يؤمن بوجود أسلوبين متعارضين للكينونة في العالم: الانطواء – نوع من الانكفاء على الداخل بعيدًا عن الأشياء الخارجية – مقابل الانبساط الـذي هـو الانصراف عن الذات الداخلية والتوجـه نحو العالم الخارجي. قررت اكتشـاف مدى قدرتي على الاهتداء إلى أي شـيء كان قد قاله عن الانبساط من شأنه أن يكون مجديًّا في علاج هيلاري.

بالرغم من الساعة، قفزت من السرير ورحت أقلب دفاتري القديمة. أكدت صـواب مـا تذكرته؛ صواب أن الانبسـاطي متميـز بطاقة متدفقـة نحو الخارج، باهتمـام بالأحداث، بالنـاس، بالأشـياء المرتبطة به والشـاعرة بالاعتماد عليه، بضرر الوقوف على حقيقة مشاعره (ها).

تضاعفـت دهشـتي أكثر فأكثر مع غوصي أعمق في دفاتـري؛ أفادت دفاتري بأن الانبسـاطي مدفوع عادة بعوامل خارجية وشـديدة التأثر بالبيئة؛ اجتماعي وواثق في أوسـاط غير مألوفة؛ تهوى المنظمات والأحزاب والحفلات؛ وتنزع إلى التحلي بالتفاؤل والحماسة.

لمثـل هذا الشـخص نقاط ضعفه – بطبيعة الحـال – منها الحاجة إلى ترك انطبـاع إيجابي، بناء العلاقات وهدمها بسـهولة، عد التأمل ممارسـة مرضية، تجنب النقد الذاتي، كره الوحدة، والقبول بأعراف العصر ومعاييره الأخلاقية.

ظننت أن ذلك منطبق، بالتأكيد على هيلاري. ينبغي أن يكون يونغ قد التقى بنظيرتـه المنتميـة إلـى القـرن الواحد والعشـرين. غُصْـتُ بعصبيـة في دفاتري الأخـرى ورحـت أقلبها لأرى مـا إذا كان قد قدم أي مقترحـات مفيدة للاهتداء إلى كيفية معالجة مثل هذه الشـخصية. قلبت الصفحات، صفحة صفحة، غير أنني – لخيبتي الشديدة – لم أجد شيئًا، ولم أعثر على أي توجيه في أي من كتب يونغ الأخرى التي كرست ساعات لتدقيقها.

وما جدوى أي وصف لشخصيتها بالنسبة إليها هي أو بالنسبة إلي أنا؟ فكرت بغضب. إنها انبساطية، إذن! أعرف ذلك سلفًا. ما الذي يتعين علي أن أفعله الآن؟ تتردد المرأة على عيادتي طلبًا للمساعدة، وأنا لا أدري ما إذا كنت قادرة على أن أفعل شيئًا لخدمتها، أشعر كما لو كنت دجَّالة. في الحقيقة أظن أن كثيرين من الانبساطيين يلجؤون إلى المحللين النفسيين؛ لأنهم يهربون من النظر إلى دواخلهم، بما يبقي أي نصيحة صادرة عن المحلل بلا أي فائدة بالنسبة إلى الشخص موضوع التحليل.

مع حلم أو من دونه، كنت على صواب عند محطة الانطلاق! بيأس فكرت، لعل من الأفضل لي أن أنام فأرى حلمًا أكثر انطواء على الأمل.

2013 08 28

حيتني هيلاري بابتسامة لطيفة، فوجئت أنها كانت قد عادت وحيدة وبوجه مشرق يوحي بالسعادة، قررت مفاتحتها برد فعلي؛ كانت المرة الأولى التي أبدت فيها ولو إشارة إلى عاطفة، أردت تشجيعها، فقلت:

تبدين سعيدة بوجودك هنا يا هيلاري. هل أنت كذلك؟ أجابت:

نعم، أنا كذلك.

لم أستطع تصديق أذني، لم يقف الأمر عند كونها فرحة بمجيئها إلى جلستها، بل تجاوزه حتى إلى الاعتراف بذلك. سألتها:

وما الذي يعجبك في المجيء إلى هنا؟

يعجبني أنك تصغين إلي فعلًا، ولا يبدو أنك تصدرين أي أحكام؛ أستطيع الاسترخاء معك، لست دائمة التحصن بجلد وحيد القرن، وإن كان الناس يتوهمون أنني أفعل؛ مريح معرفة أنك لن تهاجمينني مهما بلغ مدى بوحي لك.

أجبتها: شكرًا يا هيلاري! يسرني أن تكوني شاعرة بما تقولين. كنت صادقة. (قلت في نفسي)، انبساطية أم لا، قد نصل إلى مكان ما آخر المطاف.

سـألتْ هيلاري: ما الذي سـنتحدث عنه اليوم يا دكتورة؟ هل نستطيع تناول موضوع مونيكا لوينسكي من الآن؟ الآخرون جميعًا تواقون إلى ذلك.

ظننت أنها كانت تستفزني، فقلت: قد أفضل أن تحدثيني عن حياتك أولًا.

شحب وجهها، غير أني أقدمت قائلة: حسنًا، أنت الدكتورة، كيف يتعين علي أن أتابع؟

حدثتني عن طفولتك وأبويك، إلا أنني لا أعرف شيئًا عن مراهقتك.

لا شيء جدير بالكلام؛ لم أكن إلا فتاة عادية... .

أشك أنك كنت عادية في أي وقت من الأوقات يا هيلاري. امتحنيني، وسوف نرى. ما كنت أفكر به فعلًا هو أنها كانت تخاف الكشف عن الألم الذي كان قد لازمها وهي مراهقة من دون شك.

غير أنها، ما إن بدأت الكلام حتى انطلقت بقدر غير قليل من خفة الدم والتوابل الكلامية المنكهة؛ قالت: حين أفكر بالمراهقة، أتذكر المدرسة، فمنذ البداية كنت ناجحة فيها؛ لأنني كنت أجتهد كثيرًا وأعود إلى البيت بورقة علامات ليس فيها إلا الدرجات القصوى، باستثناء تلك التي سبق لي أن أشرت إليها حيث حصلت على درجة (ب) في مادة وحيدة، أقدر أنني كنت المنجزة الكبرى في الصف، كان ذلك مصدر سعادة لأمي، حتى أبي يجب أن يكون قد شعر بالسعادة، وإن لم يُظهر سعادته، كنت على الدوام مدللة المعلمة، ما أسهم كثيرًا في دفع الصغار إلى كرهي، غير أن ذلك كان ثمنًا عادلًا.

أما ما عانيته دائمًا فهو قصر نظري الشديد، حيث وصف لي الطبيب نظارات بسُمك قعر قوارير الكوكاكولا وأنا لم أكن قد تجاوزت التاسعة من العمر بعد، حاولت تعديل النظارات وجعلها ألطف باختيار إطارات ملونة، حمراء،

وردية... إلخ، إلا أن ذلك لم يفد. الصغار في المدرسة كانوا يضايقونني بلا رحمة ملقبينني بـ(وجه البومة). أحيانًا لدى شعور بالزهو، و عند الاضطرار لحضور حفلة كنت أترك نظاراتي في البيت، وكانت إحدى الصديقات تجرني خلفها مثل كلاب المكفوفين. كثيرون من الصغار كانوا يظنون أنني متكبرة؛ لأنني لم أكن أحييهم، لم يكونوا يعرفون حقيقة أنني لم أكن قادرة على رؤيتهم.

واصلت استخدام تلك النظارات إلى أن حصلت على عدستين لاصقتين للمرة الأولى وأنا في الثالثة والثلاثين من العمر، أعرف أنني أبدو أفضل مع العدسات، ولكن هل تصدقين أني مازلت أشعر كما لو كنت (وجه البومة)؟ أحيانًا يكون الشعور طاغيًا فألوذ بالمرآة للتأكد. بدت حزينة.

تعاطفت معها وقلت: بصرف النظر عما كان شكلك وأنت طفلة، فأنت الآن امرأة جميلة.

أشرق وجهها وقالت: لا تقولين ذلك يا دكتورة لطمأنتي، أليس كذلك؟ لستِ في النهاية إلا في مهنة متدهورة، تقبضين ثمن جعل المرضى يشعرون بالارتياح.

أجبتها: لا يا هيلاري، حين تعرفينني على نحو أفضل ستجدين أنني لا أكذب على الإطلاق؛ قد أقول دائمًا ما في ذهني، غير أن ما أقوله هو الصدق دائمًا. بقي أن يتم اكتشاف ما إذا كانت قد صدَّقت أم لا.

تابعت هيلاري: مع أنني لم أكن جيدة الرؤية، تمكنت من أن أصبح رياضية ناجحة؛ كنت مفتقرة إلى الرشاقة في البداية، إلا أن أبي كان يصحبني يوميًّا إلى ملعب المدرسة، ويعلمني لساعات طويلة لعبتي كرة القاعدة وكرة القدم، وقد تدربنا كثيرًا حتى أصبحت في النهاية قادرة على مواكبة حتى الصبية.

فكرت: أليست تلك هي هيلاري؟ ما كانت لترضى مطلقًا بأداء أي شيء على نحو متواضع.

منذ أيام المدرسة الابتدائية طورت علاقات عميقة مع البنات. أما الصبية فكانوا يأتون بعد ذلك. في الصف السادس أصبحنا بتسي إبلينغ وأنا أفضل صديقتين، نفعل كل شيء معًا، حتى أخذ دروس البيانو من الأستاذ نفسه بعد أن تملقت أبي البخيل وأقنعته بشراء آلة عمودية (بيانو) قديمة. صديقي في الصف آرت كورتس يتذكر أننا وقفنا خارج بيتي وناقشنا السياسة، أصيب بالدهشة إذ وجدني قادرة على مناقشة باري غولدووتر معه، في حين أن جل الفتيات اللواتي كان يعرفهن لم تكنَّ مهتمات إلا بالملابس والفتيان.

في الثانوية كانت هيلاري – كما قالت – تتولى إدارة أمور فرقة المرشدات، بما فيها كرنفالات الحي، ولدى وصولها إلى مستوى ثانوية (مين إيست) كانت فاعلة في الأنشطة جلها الموفرة في المدرسة من خارج المنهاج الدراسي: أنشطة إصدار الصحف، الحكومة الطلابية، جمعية الإخوة، هيئة القيم الثقافية، لجنة حفلات الرقص، وفريق العرض الأكاديمي الذي كان يتنافس مع المدارس الأخرى على الشاشات التلفازية (حيث كانت هيلاري من أعضاء الفريق). كذلك انتُخبتْ بوصفها واحدة من المتفوقين الواصلين إلى الدوري النهائي الأحد عشر على النطاق القومي.

في تلك الأيام – قالت هيلاري – كنت أريد أن أصبح طبيبة؛ إلا أنني نفضت يدي من الفكرة حين غبت عن الوعي عندما رأيت الدم للمرة الأولى، وبعد ذلك كان ثمة حشد من الأمور التي حلمت بالقيام بها عبر سنوات المراهقة، بغية اختبار أنماط مختلفة من أساليب الحياة والشخصيات قبل الاستقرار على ما أردت أن أكونه. كنت مغرمة بالسفر إلى إفريقيا، وآسيا، وأوروبا، وعبر أرجاء الولايات المتحدة. كنت تواقة جدًّا لزيارة كاليفورنيا الشمالية، حيث كان (الهيبيون) (الخنافس) يعيشون لمجرد التسكع والتجول أينما شعرت أني راغبة في السفر.

كذلـك راودتنـي أحلام يقظة كثيرة حـول احتراف الفنـون والمهن، احتراف التمثيـل المسـرحي، التمثيل التلفـازي، والتمثيل السـينمائي، ولقاء أنواع البشـر جميعهـم في طـول العـالم وعرضـه. تصـورت أننـي كنـت سـأقوم بهـذا كلـه في العـام الـذي يلي تخرجـي في الكلية، ولكن قبل الالتحاق بمعهد الدراسـات العليا (دراسـات ما بعـد التخرج). عندئذ لم يخطر ببـالي أن خططي كانت لا واقعية بعض الشيء؛ ولكن أليست تلك هي المراهقة؟! مساعدة أي ناشئة على اكتشاف من وما يطيب لها أن تكونه/ها؟

قلت: تمامًا، أصبت الهدف بدقة.

ابتسمت.

لـو طُلـب إليَّ أن أصف نفسـي وأنا طفلـة بكلمة واحدة، لقلـت طموحة. أذكر ذات مرة أنني كنت جالسـة في حلقة على الأرض مع عدد من المرشـدات، وكانت القائدة تدور حول الحلقة وتسأل كل واحدة منا عما ترغب أن تكون بعد النضج. الفتيـات جميعهن قلن الشـيء نفسـه تقريبًـا؛ أردن أن يكـبرن فيصبحن أزواجًا وأمهات. وحين سألتني القائدة، قلت لها: صحيح أننـي أريد أن أصبح زوجًا وأمًّا ذات يـوم، غـير أن ذلـك ليس مـا أردت أن أكونـه. فوجئت وسـألت عمـا عنيته. قلت لها إنني راغبة في أن أكون رائدة فضاء، وسأراسـل ناسـا (NASA) –وكالة الفضاء الأمريكية– عن كيفية التهيؤ لذلك. سائر الفتيات ضحكن مستهزئات، غـير أني لم أبـال، فقط أشـفقت عليهن. يجب على كل إنسـان أن يحمل أحلامًا كبيرة.

راسلت ناسا (وكالة الفضاء)، وغضبت كثيرًا حين جاء ردهم متضمنًا عدم الاهتمـام برائـدات فضاء. أبي كان يقول دائمًا إن البنات مسـاويات للصبية في كل شيء، ويجب تمكينهن من القيام بأي شيء يرغبن في القيام به بعد النضج. أعتقـد أنـه كان علـى صـواب. الرفض آلمنـي طويلًا؛ أذكـر أنني أبـرزت بغضب

ضفيرة مؤخرة رأسي، وصرخت: عندما أكبر سأعمل من أجل تمكين النساء جميعهن من أن يصبحن ما يرغبن في أن يكنَّه؛ مازلت مصممة على ذلك.

حين كانت هيلاري في الرابعة عشرة من العمر، وقع حدث كان من شأنه أن يقلص إلى حد غير قليل من فرصها، وأن يغير من تفكيرها إلى الأبد؛ جد بتسي التقدمي اصطحب حفيدته وصديقتها هيلاري إلى سماع الدكتور مارتن لوثر كنغ الابن وهو يناقش قضية التمييز شمالاً وجنوبًا، صُدمت هيلاري إذ عرفت أن الأطفال الزنوج كانوا بين الأفقر والأكثر تعرضًا للحرمان في الأمة.

كان لمحاضرة كنغ تأثير عميق فيها، إذ لم يكن قد سبق لها قط أن عرفت زنجيًّا (عن كثب). ومنذ ذلك التاريخ وصاعدًا باتت راسخة القناعة بأن مأساة العلاقات العنصرية في أمريكا يجب أن تتغير، وبأنها ستفعل كل ما بوسعها لتحسين الوضع. لاحقًا، كثيرون من أصدقائها كانوا من الزنوج، وماريان رايت إيدلمان مؤسسة صندوق الدفاع عن الأطفال وظفت هيلاري لتحسين مصير الأطفال والمهملين، وما لبثت أن أصبحت راعيتها المهنية.

وعلى الرغم من أنها كانت من أوائل مؤيدي مارتن لوثر كنغ الابن، فإن هيلاري ظلت تعد نفسها جمهورية مثل أبيها. وحين كانت في الخامسة عشرة أصبحت إحدى فتيات غولد ووتر اللواتي اكتشفن التلاعب بالتسجيل في أحياء الأقليات بشيكاغو. بوصفها مراهقة مميزة، تمكنت شخصيًّا من رؤية مستوى حياة الحشود من الأمريكيين الأفارقة المفقرين، وهذا الاطلاع سحقها تمامًا.

تابعت هيلاري كلامها قائلة: ومع أنني كنت كثيرة الاستمتاع بالفعاليات الاجتماعية، فإن علاقتي مع أبي كانت تشهد تدهورًا بشعًا؛ صارت خسَّته تضغط على أعصابي أكثر فأكثر؛ لم يكن مستعدًا – مثلًا – للسماح لي بأخذ دروس في الرقص، على الرغم من أن صديقاتي جميعهنَّ كن يذهبن لحضور حصة الرقص مساء كل جمعة، وأنا كنت مغرمة بالرقص دائمًا، كان يعبر عن عدم رغبته في أن أراقص الشباب، غير أنني لم أكن أصدقه. لم يكن يعترض

حين كنا نقضي معهم وقتًا في لعب الكرة، الذهاب إلى السينما معًا، أو القيام بأي شيء مع الشباب، شرط ألا ينطوي الأمر على أي تكلفة مالية.

واصلت هيلاري تقول: لم يكن الشباب يجدونني فائقة الجاذبية، على أي حال، وتمثل أحد أسباب ذلك ببخل أبي الذي كان يحول دون ارتدائي لملابس لافتة، ونظاراتي السميكة المرعبة كانت سببًا ثانيًّا، يضاف إلى هذا وذاك كان لمظهري هيئة نسوية، في حين أن الشباب كانوا أميل إلى الفتيات ذوات المظهر الشبابي. كذلك كنت أعاني بسبب شَعْري ومازلت، وما الجديد أيضًا؟ كان الشباب يظنون أني ميالة إلى السيطرة، ويلقبونني فيما بينهم بـ (الأخت ثلاجة)، كان ذلك يعكرني فعلاً.

فكرت بذلك التعليق غير اللطيف حين سمعت نكتة جاي لينو غير الصحيحة حول الموضوع، «فوجئت برسم صورة لهيلاري. رأيت أن تمثالاً من الجليد كان من شأنه أن يكون أنسب». كنت أتمنى ألا تكون قد سمعت (النكتة) وإلا فإن انزعاجها كان سيتضاعف.

استأنفت هيلاري الكلام: أزعجني ذلك لأنني لم أكن قد استكملت اجتراح الجلد السميك بعد، كان الشباب يرونني فأرة كتب غير اجتماعية، ومع أنني كنت أتألم آنذاك، فإن علي أن أقر بأنهم كانوا على صواب؛ مازلت غير اجتماعية على الرغم من أنني تعلمت وصرت أجيد فن التخفي.

2013 11 01

بدأت هيلاري الكلام قائلة: ما قلته لك عن نفسي وأنا مراهقة إلى الآن قد يجعلني أبدو (فاضلة) حقًّا، وبما أنك تريدين أن تعرفي كل شيء عني، فقد قررت أن أخبرك بأنني لم أكن فوق مستوى اللوم دائمًا.

يا إلهي! هل تعني أنها من البشر في النهاية؟ فكرت، ورحت أصغي باهتمام وانتباه استثنائيين، إلا أنني لم أكن مستعدة للقرصة التي شعرت بها في المعدة حين تكلمت. يبدو أن هناك جوانب أكثر من تلك التي حلمت بها ذات علاقة بشخصية هيلاري رودهام كلنتون.

قالت: لدي شيء أعترف به لك يا دكتورة، إذا وعدت بألا تخبري تشلسي. تعلمين أنه حين سئل بل عما إذا تعاطى تدخين الماريجوانا، أقر بأنه فعل، ولكنه لم يستنشق الدخان إلى الرئة. أما قصتي أنا مع المخدرات فأكثر التباسًا بكثير؛ في الستينيات بدأت استكشاف المحرمات والتجارب الاجتماعية المميزة لنمط حياة ذلك العقد، أظن أنني كنت بنت عصري واشتهرت بوصفي إحدى (الهيبيات).

ماذا؟ لم أصدق أذنيَّ، وحاولت كبت مشاعري المصدومة ومنعها من الظهور على وجهي؛ من كان يمكن أن يتصور أن الفتاة الصغيرة الميثودية مفرطة الوجدانية (هيلاري) ذات ماضٍ كهذا؟

حـين كنـت مراهقـة، تجلـى تمـردي بتعاطـي المخـدرات؛ كانـت لي صديقـة (لورين) أخذتني إلى بيتها بعد المدرسـة، حدثتني عن انتشـاء ابن عمها جيمي عـن طريق (تجرُّع) شـراب السـعال. قلَّبنا مـا في خزانة أدويـة أبويها ولكننا لم نعـثر علـى المطلـوب، ثم اهتدينا إلـى علبة (سـوكريت)، وتناولـتُ كل منا ثلاث حبات، جلست وأغمضت عيني مدة ربع ساعة، غير أن شيئًا لم يحصل، فقررت أن شيئًا لم يحصل وتأهبت للذهاب إلى المطبخ لتناول الطعام.

مـا إن هممـت بالنهوض حتى بدأت الغرفـة تدور مثل (الدويخـة)، وأصبت بالـدوار وسـقطت علـى الأرض، كانت لورين سـريعة الكلام، لم أفهـم ما قالته، فتحت عيني وبدأ كل شيء يتباطأ، كما يحصل عندما توقف مشغل الأسطوانات، أخـيرًا توقف الدوران كليًّا وتمكنت من التقاط أنفاسـي، لم يسـبق لي أن أصبت بمثل ذلك الرعب في حياتي، ومع ذلك فقد قررنا أخذ المزيد من المادة في اليوم التالي.

بعـد ذلـك بقينا نتنـاول ما في عبوة السـوكريت إلـى أن راود الشـك صيدلي الحـي ورفض بيعنـا المزيـد، بعد ذلك حاولنا شـم صمـغ إلمر، ولكنه بدا شـديد الضعف بالمقارنة.

أردت الانتقال إلى شيكاغو حيث يستطيع المرء الحصول على ما يستطيع دفع ثمنه من السوكريت، كذلك أردت الذهاب إلى هناك لأتمكن من لقاء فتى وسيم وتعاطـي السـوكريت معـه. في ذلك الوقت كان أسـاتذتنا يكلفوننـا بمقادير أكثر من طاقتنا من الوظائف البيتية. كان مخدر السوكريت يساعدنا على التحمل.

رغـم كل ألـوان التـوق هـذه، نجحـت في الحفـاظ علـى نظافتي جـل المرحلة الثانويـة، غـير أننـي في خريـف سـنة تخرجـي، وأنا مرهقـة من خوض الحملة الانتخابيـة بعـد المدرسـة لمصلحـة بـاري غولـد ووتر، بدأت أشـم شـرائح ورقية كـي أتمكـن من مواصلة العمل، بدأ الأمر كما لو كان شـيئًا عابـرًا، مؤقتًا، ملاذًا أخـيرًا في أيـام زاخرة بالضغوط، ثم بدأت أصطحب شـرائح مشـبعة آخذ منها

شـمة صغـيرة عند الحـاجة. تمثلـت الخطوة التالية باصطحـاب رزمة كاملة من الشرائح المشبعة في ظرف من المقوى حيثما ذهبت. أقدِّر أن بإمكانك أن تقولي إنني أصبحت مدمنة.

علقتُ ساخرة: أظن أن بإمكانك أن تقولي ذلك.

يوم السبت السابق ليوم الانتخاب، حلت كارثة؛ أُلقي القبض عليَّ وأنا أحاول اقتحـام مكتـب المديـرة لإعـادة تذخـير شـرائحي المخـدرة، وبدلًا مـن الاتصال بالشـرطة بـادرت المديـرة – التـي كانـت معجبة بـي بوصفي زعيمـة طلابية في المقام الأول – إلى إطلاق سراحي بعد تنبيهي الصارم إلى ضرورة تغيير سلوكي وإلا. كان ذلك ناجحًا. شيء ما في داخلي كان لايزال منتميًّا إلى الباحث المطيع. أقلعت كليًّا عن شم الشرائح المشبعة.

غـير أنني جرَّبت بعد ذلك تعاطي (بيـز) للمرة الأولى مع صديقتي لافيرن، علمتنـي المـادة أنني كنت ألهو بحماقة مع سـائر المواد الأخـرى؛ جعلتني لافيرن أسـتلقي علـى الأريكـة؛ سـحبت رأس (ميكـي) إلى الخلـف، قطـرة صفراء من الحلوى خرجت من فوهة العبوة وسـقطت في فمي، قلت (همم) وطلبت المزيد، ابتسمت لافيرن وهزت رأسها.

ثـم عـدت إلـى البيـت. كانـت أمي تعـد طبقًا مـن الفطائـر باللحم وهريس البطاطـا، التهمـت كل شـيء بنهم، فاسـتغربت أمي، وقالت إنه لم يسـبق لها أن رأتني أجهز على مثل هذه الكمية من الطعام بمثل هذه السرعة، بعد ذلك هدني التعـب وأويـت إلى السـرير، وبالكاد اسـتطعت ترديد صلواتي قبـل الانطفاء. في اليوم التالي لم أستطع انتظار لقاء لافيرن.

مـع كوكتيـل (ميـدول نـو– دوز)، تطلـق عليـه فتيـات ويـزلي اسـم (مـاري الداميـة) اهتديـت أخـيرًا إلـى منبهي المثالي. تميـز الكوكتيل بكل مـا في (بيز) مـن تنبيـه ولكـن من دون أي مـن العواقـب الصباحية اللاحقة. لم يكـن ثمة أي

إمكانية لإدمان جدي، كنت سأقوم بتلك (الرحلة) مرة واحدة فقط في الشهر. والعثور على (الميدول)، لم يكن صعبًا نظرًا إلى توافره في علب الفتيات الطبية، والحصول على ألـ (نو-دوز) بسهولة من شباب هارفارد وآمهرست الذين كانوا يتزاحمون بكثافة حول مجمع ويزلي السكني كل نهاية أسبوع.

مدرسة الحقوق أحدثت مدة توقف مؤقتة لعادة تعاطي المخدر عندي. على امتداد الجزء الأكبر من سنتي الأوليين في ييل، بقيت غائبة عن التعاطي باستثناء حفنة من مناسبات اللقاءات الخاصة في مهجع أحدهم. وبعد ذلك، في 1970م، حل إدماني على بل كلنتون بدل تعلقي بالمخدرات.

أقلعت عن (الحبش البارد الحلو)، وبعد بضعة أسابيع من صيانة كريميرا تحت إشراف طبي، بدأت أحتسي قهوتي بلا حليب كما لاأزال أفعل إلى اليوم. الاقتران زواجًا ببل في 1975م، والتزامات محامية شابة صاعدة وزوج سياسي مرموق، أديا إلى اختزال حاد لتعاطي المخدرات، وبعد ذلك في 1979م، بعد وقوفي على حقيقة أني حامل بتشلسي، واستعدادًا لدوري الجديد أمًّا، توقفت عن مطاردة المخدرات تمامًا، مئة بالمئة. تأوهتُ ونظرتْ إليَّ، وقالت: حسنًا يا دكتورة، صدمتك؟ ابتسمتُ ولم أكن موشكة على التعبير عما شعرت به؛ ليست هيلاري الوحيدة التي يمكنها أن تتحلى بالحشمة.

بدلًا من ذلك كررت ما سبق لمحلل نفسي حكيم أن قاله ذات مرة؛ ليست ثقافة المخدرات إلا علة سوسيولوجية. وجدتْ هيلاري ذلك بالغ الإثارة: لم أكن أنا مريضة إذن، المجتمع هو الذي كان مريضًا!

أجبتها: يمكنك قول ذلك.

المراهقة مرحلة زمنية يحرص فيها الناس على الانفصال سيكولوجيًّا عن آبائهم وأمهاتهم. يبدو أن هيلاري كانت شديدة القرب ما أدى إلى إلزامها بالانغلاق الكامل عنهما من أجل أن تصبح فردًا. من الواضح أنها بادرت -

نتيجـة لذلـك – إلـى التخلي عـن الآباء والأمهـات افتراضًا، جنبًـا إلى جنب مع أبيها وأمها الفعليين. إبقاء الأمر في نوع من الفراغ الداخلي الذي حاولت شـغله بالمخدرات.

ثـم تذكرت شـيئًا قالته لي آنـا فرويد ذات مرة، أفادت بأن أحدًا لا يسـتطيع أن يتنبأ بما سـيؤول إليه أي شـخص عندما يبلغ سـن الرشـد برصد شـخصيته المراهقـة. مـن المؤكـد أن آنـا أصابت كبـد الحقيقة فيما يخص هيـلاري. عمليًّا كانـت مدمنـة مخـدرات. ولو كنـت أعرفها آنذاك، لمـا راهنت ولو بقرشـين على احتمال تعافيها، وانظروا إليها الآن!

2013 11 06

قالت هيلاري: لنتحدث عن الدين اليوم.

قلت في نفسي: من المجاري إلى قمة الجبل بخطوة سهلة واحدة. بالفعل كنت أفضل سماع المزيد عن تجاربها المخدراتية.

قالت هيلاري: عائلتي كلها شديدة التدين؛ يتحاورون مع الرب، يدرسون معه، يناقشونه، كما أفعل أنا؛ أقله جُل الوقت. لحسن الطالع لم يكتشفوا أي شيء قط عن تجاربي مع المخدرات؛ كان من شأن ذلك أن يقتل أمي شديدة الاعتزاز بأخلاقي؛ ظلت طوال حياتها تعلم في مدارس يوم الأحد، وأنا كنت أحضر دروس الإنجيل بانتظام ومنتمية إلى فريق المذبح. حين كنت في نحو السادسة عشرة من العمر زار البلدة رجل بالغ الأهمية: الكاهن الميثودي المسؤول عن الشباب المحترم دون جونز الذي بقي فارس أحلامي إلى أن ظهر بل كلنتون. لم يكن دون قد تجاوز السادسة والعشرين ولم يبدُ أكبر سنًّا مني بكثير. للتو كان قد سُرِّح من البحرية وتخرج في معهد درو الجامعي اللاهوتي.

لم يكن قد سبق لي قط أن التقيت أحدًا مثله من قبل. كان وسيمًا جدًّا، وبالغ النشاط، لدى وصوله في سيارته التشيفي المكشوفة الحمراء، سرعان ما

أصبح بالنسبة إليَّ أبًا، أمًّا، أخًا، معلِّمًا، ولي نعمة، وعاشقًا خياليًّا متحفظًا، كل ذلك في سلة واحدة؛ ما لبث أن صار الشخص الأهم في حياتي، مستشاري الذي أسهم كثيرًا في توسيع دائرة فهمي للدين، في تلقيني فنون الاشتباك مع التنوع، وفي تعليمي كيف أنقذ روحي بالأعمال الخيرية، الأمر الذي كان جيد التناغم مع فلسفة الحياة التي كنت قد شكلتها سلفًا. لم يكتفِ بتوجيهي إلى مواكبة الفنون، والآداب، وأسفار الكتاب المقدس، بل أوصاني بمضاعفة معرفتي بها جميعًا.

ذات يوم أحضر نسخة من لوحة الغرنيقا لبيكاسو، لوحة أثارت فيَّ خوفًا شديدًا وفتحت عينيَّ على أهوال الحرب المرعبة بعد حين. علمنا عن دوستويفسكي، تولستوي، سالنغر، وكان رجل نهضة مئة بالمئة، غير معارض لسماع أسطوانات بوب ديلان. كان ذلك صيف 1961م، ذات الوقت المثير حيث كانت مسيرات الحرية متواصلة في أعماق الجنوب. وحين جاء مارتن لوثر كنغ (الابن) إلى شيكاغو اصطحب دون فريقنا لسماع كلامه عن (النوم عبر الثورة)، الذي يحرك رسائل الرب المشحونة بالضمير.

حدثت نفسي: ما أشبه هذا بالبابا فرانسيس!

تابعت هيلاري تقول: مازلت أعود إلى تعاليمه كلما احتجت. أراسله منذ ما يزيد على عشرين سنة، وظل هو وزوجه يزوراننا – بل وأنا – تكرارًا في البيت الأبيض.

لمت نفسي بصمت على انقباضي لدى مبادرة هيلاري إلى إثارة موضوع الدين. سعيدة أنا الآن لأنها فعلت، وإلا لما عرفت مدى أهمية الدين بالنسبة إلى شخصيتها. منذ طفولتها، مثابرة هي على الصلاة كل ليلة قبل النوم، وبقيت الصلاة منبعًا لا يقدر بثمن للعزاء والهداية بالنسبة إليها. أسهم الدين في جعلها مواطنة محترمة، مراعية للقوانين، في شد أزرها أيام الإدمان، وفي دعمها عمومًا. يفسر ذلك القوة التي تهاجم بها القوى التي تعارضها،

انضباطها الذاتي الخارق، ونجاحها في تجاوز محن بالغة القسوة قادرة على إغراق أي شخص أضعف.

أمضتْ الصيف الفاصل بين سنتيها الأولى والثانية في الجامعة عاملة باحثة لدى أستاذ بجامعة ويزلي يدعى أنتوني داماتو، كان عاكفًا على تحرير كتاب عن الحرب الفيتنامية بعنوان الوقائع الفيتنامية: تقييم جمعية ريبون. وجمعية ريبون هذه كانت حركة جمهورية ليبرالية اعترفت بأنها مؤمنة بأن «من شأن مستقبل البلد أن يكون متوقفًا لا على التطرف بل على الاعتدال». من السهل رؤية مدى مناشدة فلسفتها حتى لهيلاري الشابة.

أسهم الأستاذ الجامعي السابق أكثر في تثقيف هيلاري من خلال تزويدها بكتب للاطلاع من تأليف مارشال مالكوهان، والموسوعي اليسوعي والترجي أونغ، وكلاهما كاثوليكيان ليبراليان أثارا إعجاب هيلاري لكون فلسفتهما متناغمة مع توجهها الويزلي. كتب أونغ عن إيجاد (قرية كوكبية)، كان من شأنها أن توفر إمكانية إطلاق وسيلة إلكترونية كان سيستخدمها بل كلنتون لاحقًا في خدمة أغراض سياسية بالغة العمق. كانت هيلاري مؤمنة بأن كتاب أونغ كان أحد أهم الكتب التي سبق لها أن قرأتها. تساءلت بصمت ما إذا كان عنوان كتابها، يغدو قرية (It Takes a Village) مستلهمًا من كتابات أونغ.

حين سألت هيلاري عن علاقاتها المبكرة بالرجال، حدثتني عن ارتباطاتها بالجنس المقابل إبان سنوات دراستها الثانوية. قالت إنها وأصدقاءها من الجنسين كليهما كانوا يتسكعون معًا بعد المدرسة في شارع الوجبات السريعة، ويذهبون معًا أواخر الأسبوع إلى السينما. كل ذلك كان بريئًا. (الثنائيات) كانت ثابتة، وكانت الأكثرية صاحبة خبرة.

اعترفتْ بخجل واضح: لم أذهب بعيدًا على هذا الصعيد. ربما لأن كثيرين لم يرغبوا في الذهاب معي.

تابعت هيلاري تقول: حين وصلت إلى ويزلي، كانت أكثرية الفعاليات مع الرجال؛ مع أفراد من كليات آيفي ليغ، وتألفت في المقام الأول من مشاوير في شارع بوسطن العام، رحلات قطارية إلى مانهاتن ونيوهيفن، مباريات كرة قدم، حضور حفلات موسيقية، وزيارة متاحف. أكثر الأحيان كنا نعتمد على مناسبات الاختلاط أواخر الأسابيع مع شباب من مدارس آيفي ليغ بنيوانغلند، التي كانت تتمخض أحيانًا عن مواعدات أكثر جدية. وفي ليالي آخر الأسبوع كنا نعود جريًّا إلى مهاجعنا التزامًا بمنع التجول بعد الساعة الواحدة. كان مسموحًا للشباب في مهاجع ويزلي بالتحرك فقط أيام الأحد بين الثانية والخامسة والنصف بعد الظهر. ونظام (قاعدة القدمين) كان نافذًا في غرف المهجع؛ اثنتان من الأقدام الأربع كان يجب أن تكونا على الأرض كل الوقت. كنت أحب الرجال دائمًا قالت هيلاري، وهي تحدق في بؤبؤ عيني. تساءلت عما كانت تريد إبلاغي به ولا تقوله.

تابعت الكلام قائلة: كان صديقي المهم الأول جيوف شيلدز التقيته في موعد ثنائي بحفلة في هارفارد حين كنت في السنة الأولى. في أثناء الرقص همس في أذني: أنت فتاة جميلة، راقصة عظيمة، والكلام معك ممتع. جمَّدني الكلام. لم يكن قد سبق لي أن شعرت بأن الرجال يرونني حسنة المظهر أو حتى لافتة. كدت لا أصدق أن رجلًا أكبر سنًّا جذابًا، فارسًا ونجم كرة قدم بالولاية، قد انجذب إلي. كتبت رسائل إليه في هارفارد تحرجني الآن عندما أتذكرها. كانت رسائل عاطفية، مولعة بالنجم ورومانسية.

أما شخصيًّا فكنا أكثر الوقت نتحدث في السياسة وفي كيفية حل مشكلات العالم، مواعيدنا كانت عادة تبدأ مع إحدى الحفلات في ونثروب هاوس، حيث كنا نقيم، كنا نرقص خدًّا على خد، على أنغام إلفيس برسلي والخنافس، غير أنني كنت دائمة التفضيل للجلوس ومناقشة السياسة بدلًا من الرقص في حفلة أو الذهاب إلى لعبة كرة قدم. كانت كرة القدم تشعرني بالسأم. ذلك هو ما كان

يجعلني أصطحب كتابًا كلما ذهبت إلى لعبة، الأمر الذي بدا مخيفًا بالنسبة إلى بعض الفرسان.

كان وقت يقظة فكرية بالنسبة إلي؛ كثيرًا ما كنا نستغرق في حوارات حامية حول الحرب الفيتنامية، الحقوق المدنية، أو القضايا العنصرية. كنت معجبة بوجود شريكة زنجية في الغرف؛ لم يكن ذلك مألوفًا في تلك الأيام. كنا نناقش الأدب، والسياسة، والموسيقى، والفلسفة؛ لاسيما الفلسفة، أتذكر بشغف إحدى المناقشات المحمومة حول احتمال وجود شيء مثل أخلاق مطلقة، أم هناك أخلاق نسبية وحسب. كنت محظوظة بصديق قادر على مواكبتي فكريًّا؛ جل الشباب في سني لم يكونوا أقل مني اهتمامًا.

أبواي كانا متشددين جدًّا معي (قالت بحزن) ويرفضان السماح لي حتى بالبقاء مع صديقة ليلًا، فضلًا عن الذهاب إلى نيويورك؛ كانا يقولان خطر جدًّا! لا نستطيع تركك تتسكعين هناك! ماذا لو عرفا عن عادة التعاطي؟! غير أنني استطعت وأنا في سنتي الجامعية الثانية أن أتسلل من تحت أجنحة أبوي، وانطلقت إلى حفلة نهاية أسبوع بدارتموث، وهناك التقيت شابًا أعجبني، وأمضيت معه الليل في هانوفر. كنت شديدة الاعتزاز بنفسي (قالت مع ابتسامة) صباح الإثنين لم أستطع سحب نفسي من السرير، حتى للذهاب إلى درس الإنجيل. كنت قد بدأت أتغير بالرغم من وجداني الميثودي الصارم.

كشَّرتُ وفكرتُ: أحسنتِ يا هيلاري!

منذ سنتها الثانية، كانت هيلاري إحدى زعيمات ويزلي، بعد اختيار ست زميلات صف للعيش معها في أحد المهاجع. كُنَّ يتناولن وجباتهن جميعها معًا في كازينو حجري، وطوَّرنَ ما كان سيُعرف لاحقًا باسم (الشقيقات). على الدوام ظلت هيلاري راغبة في معرفة المزيد عن الأمريكيين ذوي الأصل الإفريقي (الأفارقة الأمريكيين)، وكانت تصطحب طالبة زنجية إلى الكنيسة. في تلك الأيام كان ذلك تصرفًا جريئًا. الصديقات كن ينتقدنها بعنف على ما عددنه

عدم نضج سياسي بعيدًا عن أي تطلع إلى الاندماج. بقيت هيلاري مترددة قليلًا.

قالت: كنت أختبر بنفسي وغيري من رواد الكنيسة. في صفي المؤلف من أكثر من أربع مئة طالبة وطالب، ستة فقط كانوا زنوجًا، ولم يكن بين أعضاء الهيئة التعليمية أي زنوج بالمطلق. مع مرور الوقت كنت سأصبح حليفة سياسية للطلاب الزنوج، غير أني في ذلك الوقت لم أكن سوى صديقة، للأسف لم أكن طرفًا في أحداث الحقوق المدنية الانعطافية التي شهدها جيلي.

تابعت الكلام قائلة: مع أنني كنت داعمة للحقوق المدنية في أعماقي، فإنني لم أبادر إلى الالتحاق بركب الصغار المعتصمين من:

Student Nonviolent Coordinating Committee (SNCC) الذين ذهبوا إلى سلما الآلابامية؛ لأنني شعرت بأن ما كانوا يفعلونه كان غلوًّا في التطرف، اجتهدت كثيرًا للوقوف على كل ما استطعت الوصول إليه عن الزنوج وعن مشكلات الفقر ذهنيًّا أكثر منه على نحو تجريبي؛ لأن تلك هي طريقتي. وبسبب اهتمامي الفعلي بالعلاقات العنصرية كنت إحدى أوائل طلاب ويزلي الملتحقين بدورة سوسيولوجيا مدينية وجدتها بالغة الإقناع. تبقى العلاقات العنصرية إحدى هواجسي الحياتية الكبرى.

علمني داماتو أن الوقائع هي الأدوات الوحيدة لاكتشاف الحقيقة، ولابد من غض الطرف عن الأحكام الموضوعية، إنها الطريقة العلمية الذكورية الكلاسيكية لرؤية العالم، وهي تعني الكثير بنظري.

كتاباته وتعليماته أسهمت في زيادة غربتها عن حدسها ورؤاها. لم أفاجأ حين قرأت أن كثيرين من أصدقائها الطالبات والطلاب كانوا يرون هيلاري خالية كليًّا من الاستبطان، ويعتقدون أنها كانت على الدوام تلوذ بالخارج حين تفسد الأمور؛ بحثًا عن الأسباب. وطوال بقائها قادرة على دفن مشكلاتها

الخاصة عن طريق التماس الحلول لمشكلات العالم، لم تكن ملزمة بالغوص في أعماقها الذاتية. كذلك كانت قادرة على العزوف وفراغ الصبر حين كان الناس يعارضونها. لم تكن تكشف إلا عن القليل من حياتها الداخلية أمام من هم حولها. وكيف تفعل، وهي نفسها مفصولة عن ذاتها؟

عندما قرأت التعليق في كتاب أو آخر، لم أكن أعرف أن هذا النزوع الهيلاروي كان سيصبح لعنة وجودي. كيف تتولى تعليم شخص مدمن على الهرب من الألم الناجم عن النظر إلى داخله؟ الرب وحده يعرف، أما أنا فلا أعرف بكل تأكيد.

كانت ثمة مشكلة كبرى واحدة ناتجة من طريقة هيلاري في النظر إلى العالم؛ لم تكن دائمة التأكد ممن تكون. قالت بطرافة: ليتني ألتقيها مرة! واثقة أنا من أنني سأعجب بها.

أعرف أنك ستفعلين. قلت لها.

هذه الميزة لم تبدُ دافعة زملاء هيلاري في الصف الدراسي إلى تقليص إعجابهم بها. اشتُهرت بالدفء، بالطرافة، وبالاجتهاد، وبكونها تلك التي تعرف كيف تنجز. كانت سمحاء وكريمة، وكان الناس يحبون صحبتها. ذات صفات قيادية فطرية منذ الولادة، درجت على إطراء الآخرين دونما أثر للأنانية متذكرة تفاصيل حيواتهم المهمة بنظرهم.

2013 11 08

سألت هيلاري: ما الذي سنتحدث عنه اليوم؟ وما الذي يجول بخاطرك أنت يا هيلاري؟

أنا شخص يحب النظام في حياته، أبدو كما لو كنت أسرد لك قصة حياتي بنوع من التسلسل التاريخي، ما يجعلني أقدر أنني سأستمر على النحو ذاته. هل أنت موافقة على ذلك؟

يقينًا.

عندما حان موعد اختيار الكلية، كنت أعرف أنني راغبة في الذهاب إلى مدرسة إناث بما يقيني من الانشغال بالرجال؛ لم أكن أريد إضاعة سنواتي الدراسية الثمينة وأنا غارقة في التفكير بما إذا كان الزميل الجالس في الصف المقابل يراني جميلة، كذلك كنت أظن أنني سأحب الذهاب إلى إحدى مدارس الشقيقات السبع؛ لأنها كانت أفضل الأمكنة بالنسبة إلى أي امرأة تريد الحصول على تعليم رائع؛ فوقع اختياري على ويزلي.

وما الذي جعلك تختارين ويزلي؟

بدت سعيدة بسؤالي، وقالت: نعم! ثمة عدد من الأمور؛ مدرِّسة ثانوية كنتُ معجبة بها كانت قد تخرجت فيها ومدحتها كثيرًا، أفادت بأن من شأني أن أحصل على دورات أكثر إثارة في ويزلي، وبأن البنات كن أذكى من نظيراتهن في مدارس الأخوات الأخرى، كذلك كنت قد رأيت صورًا للكلية ودُهشت بمناظرها الجميلة، بمساحاتها الخضراء الفسيحة، بمسارات خيلها المحصورة بين صفين من الأشجار، وببحيرة وابان الجميلة التابعة لها، ذكرتني بكوخ بناه جدي على ضفة وينولا في جبال بوكونو على مسافة عشرين ميلًا إلى شمال غربي سكرانتون، حيث قضيت العديد من فصول الصيف الملأى بالفرح. ومما ساعد أن الكلية بدت صورة طبق الأصل لما كنت قد تصورت الالتحاق بها في أحلام اليقظة.

إلا أنني لم أكن – للأسف – قد تصورت قط النوعية المتوقعة للطالبات الأخريات. سرعان ما اكتشفت أنني كنت قد اخترت مدرسة ملأى بنساء صغيرات السن فاتنات متحذلقات مغرمات بالتبرُّج المبالغ فيه حتى في الصفوف الدراسية، بارتداء أرواب السهرة في حفلات رقص نهاية الأسبوع. كنت قد وصلت ومعي حقيبة ملأى ببلوزات (بيتربان) وتنانير مجعدة التقطتها لي أمي، مع عدد من الجوارب الواصلة إلى الركبة والأحذية الزحافة.

لبعض الوقت، كنت أشعر بالحرج لدى الظهور أمام الطالبات الأخريات، وأطرق كلما مررت بإحداهن، غير أنهن كن يتغيرن أحيانًا، وما لبثت أن اكتشفت قدرتي على منافستهن على الصعيد الثقافي والفكري. توقفت عن الاهتمام بملبسي وعكفت على العمل والاجتهاد. صديق صار لاحقًا وزير عمل بل يدعى روبرت رايش، وصفني لصديق مشترك مرتدية سروال جينز قصير السرج، بشعر مكوي طويل، بلا أي تبرُّج، كنا معًا من دعاة الإصلاح؛ كنا نشارك في مسيرات الحقوق المدنية ونطالب بقبول المزيد من الطلاب الزنوج في الكلية، كانت أحلام كبيرة تراودنا حول إذابة الأمة في بوتقة واحدة، غير أننا لم نكن ندرك مدى سذاجتنا.

لحظات من الصمت عمَّت المكان.

كنت في السنة الأولى بويزلي حين أُصبت بالاكتئاب للمرة الأولى.

استنفرت أذنيَّ. اكتئاب! ما الذي يجعلك تظنين أنك كنت مكتئبة يا هيلاري؟

لا أعرف.

هل السبب هو افتقادك لأسرتك، ربما؟

لم أفكر بذلك قط، إلا أنني أفترض أن من شأن ذلك أن يكون صحيحًا؛ لم يكن قد سبق لي أن ابتعدت عن البيت وحدي، ولو في أي نهاية أسبوع. اتصلت بأمي وأخبرتها بعجزي عن مواكبة ويزلي وبرغبتي في العودة إلى البيت، قالت بنبرة بالغة اليقين إنها لم تكن تريدني أن أترك الجامعة، فبقيت. صرت أفضل حالًا لبعض الوقت وأقمت عددًا من الصداقات، إلا أن سنتي الثانية صفعتني من جديد. مع أنني حصلت على تقدير (آ) في المواد جميعها، كنت أواعد رجلًا من هارفارد ذا شعبية، وكنت على علاقة حميمة مع فتاة زنجية في السابعة من العمر كنت أعلِّمها، فقد كنت أبالغ في إطالة النوم، أغفو في الصفوف الدراسية، وكنت مقتنعة بأن أفراد الهيئة التدريسية كانوا قليلي الاهتمام بي.

ما الذي فعلته للحصول على مساعدة من أجل التغلب على الاكتئاب؟

راسلت دون جونز الذي بقي مستشاري، مرشدي الروحي، وموضع ثقتي. أقنعني بأن حياتي ستكون زاخرة بالنعم، ولا بد لي من أن أثابر وأواصل التقدم. كان على صواب؛ فبعد مدة تحسنت أحوالي.

كان رجلًا حكيمًا يا هيلاري. تحسنين صنعًا إذ تتذكرين أن حالات الاكتئاب، بما فيها حتى أسوأها، تتحسن مع مرور الزمن.

2013 11 11

على الرغم من اهتمامها بمارتن لوثر كنغ الابن وفرسان الحرية، فإن الستينيات مرت مرور الكرام بهيلاري، إذا استثنينا قصة غرامها مع المخدرات، ومع أن المئات من طالبات وطلاب ييل هارفارد، كولومبيا- وفاسار، شاركوا في المسيرات السيارة والراجلة، فإن نساء ويزلي بوجه عام كن الأقل انخراطًا. بالنسبة إلى هيلاري وغيرها من طالبات الدراسات كان وقت الإصغاء والتعلم، والمشاركة بتهذيب في السياسة قد حان.

بدلًا من الالتحاق بركب فرق الاحتجاج خارج المدينة الجامعية عملت على إبقاء الأمور تحت السيطرة، وتولت حركة مناهضة الحرب في ويزلي مع إبعاد الغضب الطلابي جراء اغتيال مارتن لوثر كنغ الابن عن المجابهة مع السلطات وإدارات المدارس التي كانت قد اجتاحت مثل التسونامي عددًا كبيرًا من المدن الجامعية. أصبحت هيلاري قائدة في نادي ويزلي للجمهوريين الشباب، ومع نهاية سنتها الأولى انتخبت رئيسة.

غير أنها ما لبثت أن راحت تجد نفسها مبتعدة عن قناعات أبيها باتجاه الجناح الليبرالي في الحزب. ومما أحزن أبيها كثيرًا أن جريدة النيويورك تايمز صارت صحيفتها المفضلة، في الوقت نفسه أصبح هيو أكثر عداء لآراء هيلاري

حول الحركة النسوية، بشأن الحقوق المتكافئة، وعن الحرب الفيتنامية، وحين باتت متأثرة بجون وزلي* وبمريديه، وبمنظِّري اليسار الجديد من أمثال كارل أوغلسبي الذي صار فيما بعد أحد قادة جمعية الطلاب الديمقراطية المتطرفة، وجدت هيلاري نفسها مبتعدة حتى أكثر عن الآراء الجمهورية.

قالت هيلاري: كنت ضد الحرب الفيتنامية كليًّا، واهتمامي الشديد بكل قضايا الأطفال والمساواة العنصرية كان واضحًا سلفًا عندما بدأت أعلِّم أطفالاً مفقرين من الزنوج.

حين اصطحبت زميلة صف سوداء إلى قداس الكنيسة في البلدة كنت عازمة على امتحان نفسي مع غيري من رواد الكنيسة، غير أن أبي لم يكن راضيًا عن هذا كله، وندم كثيرًا لأنه سمح لي بترك البيت والالتحاق بالكلية. كانت هيلاري مع صفها في ويزلي مسؤولة عن تغييرات في الكلية أكثر من أي مدة أخرى في تاريخ هذه الكلية؛ فحين جاءت عام 1965م، لم يكن أي رجال يُسمح لهم بدخول المهاجع أيام الأسبوع، ولم يكن مسموحًا للطالبات والطلاب أن يقودوا السيارات داخل المدينة الجامعية؛ سراويل الجينز والملابس الفضفاضة كانت محظورة في المطعم، أما عند تخرجها فإن ويزلي كانت تبدو كلية مختلفة جذريًّا.

راسمة على وجهها تعبير الاستغراب والعجب قالت هيلاري: يصعب تصديق حصول هذه التغييرات كلها في مثل هذه المدة القصيرة، ونتيجة لأنشطتنا نحن في المقام الأول أُضيفت الدراسات الزنجية إلى المنهاج، وقُبل عدد من الطلاب الزنوج، وزاد عدد أعضاء الهيئة التدريسية المتعاقد معهم، الفعاليات المناهضة للحرب باتت مسموحة في المدن الجامعية، رُفع الحظر عن سراويل الجينز

---

* جون ويزلي (1703 ــ 1791) رجل دين ولاهوتي مسيحي أنجليكاني. أسس مع شقيقه تشارلز ويزلي الحركة الميثودية. اعتنق ويزلي لاهوت الأرميني الذي يتعلق بمسألة الخلاص وفقًا للاهوت الأرميني (نسبة إلى جاكوب أرمينيوس)، وأصبح أبرز أعلام الصحوة الإنجيلية في بريطانيا في القرن الثامن عشر، وشاركت أسرته وسلالته في نشر وتأسيس المذهب الميثودي. (المراجع).

والملابس الفضفاضة، وصارت الدرجات تمنح من منطلق النجاح والرسوب، نادرًا ما كنت أتخلف عن أي اجتماع لجنة أو هيئة، عملت على تحسين نظام إعادة الكتب إلى المكتبة، وطوَّرت خطة تختزل عدد الدورات المطلوبة للتخرج.

برأي أصدقائها وصديقاتها سرعان ما أصبحت هيلاري قدوة ذات مكانة فريدة في المدينة الجامعية، كانت مهووسة بالقضايا الاجتماعية، باعثة على الارتياح مظهرًا وشخصية، وناجحة في التعبير عن آرائها بوضوح. كانت شخصية مولعة بالمرح كما بالاجتهاد في الدراسة، أصدقاؤها كانوا يحترمونها؛ بدت واعية لذلك، ودأبت على إبراز ذلك الإعجاب بوصفه جزءًا من هويتها.

في أوقات الفراغ القليلة التي كانت تتوافر لها كانت هيلاري تحاول إنقاذ حياة الأجناس المهددة بالانقراض؛ قالت: صدقي أو لا تصدقي، كنت من الناشطات دفاعًا عن الحيوانات، ذات يوم فيما كنت ماشية على شاطئ بحيرة ميتشيغان الملوث، صادفت مئات الأسماك النافقة التي كانت عيونها الميتة تحدق فيَّ كما لو كانت تقول كيف يمكنكم أن تسمحوا بتعريضنا لهذا؟ وقبل أن أتمكن من متابعة سيري بسلام، بادرت بعصبية إلى إهالة الرمل عليها لتغطيتها.

في أثناء مناقشة سنواتها في ويزلي، قالت هيلاري: لعل أروع الأشياء التي حصلت معي في ويزلي هو أنه طُلب إليَّ إلقاء خطاب التخرج الأول الذي يطلب من أحد الطلاب للمرة الأولى في ويزلي، زميلاتي الخريجات وأنا قررنا أن طالبة يجب أن تلقي خطابًا في حفل تخرجنا، في عصر الاحتجاجات الطالبية هذا، وإلا فلن تحضر أي منا.

فوجئنا إذ أقدمت رئيسة الجامعة روث آدمز على الموافقة، طالما هي متأكدة من أن المرشحة للكلام هي أنا؛ وقالت عني في تقديم خطابي إنها مرحة، حسنة

المزاج، جيدة الحضور، وصديقة ناجحة لنا جميعًا. ما أروع سماع عبارات كهذه تقال عن النفس من قبل رئيسة الجامعة! فكرت بأنه وصف يصعب الارتقاء إلى مستواه؛ ولاسيما حسن المزاج، إلا أنني أقسمت على أنني كنت بالتأكيد سأبذل كل ما بوسعي على هذا الصعيد. ماذا كان الخطاب؟ سألت، مقدِّرة أن من شأن ذلك أن يلقي بعض الضوء على شخصية هيلاري وهي في الحادية والعشرين من العمر. أجابت: سأجلب لك نسخة عنه في الجلسة القادمة.

2013 11 13

خطـاب هيـلاري التخرجـي في ويـزلي جـاء بعـد كلمـة ألقاها عضو مجلس الشيوخ الجمهـوري إدوارد بروك الماساتشوستسـي، الرسـمي المنتخب الزنجي الأعلى مرتبة في أمريكا في ذلك الوقت، وعضو مجلس شـيوخ الولايات المتحدة غير القوقازي الوحيد، إنه شخص كانت هيلاري قد نشطت في حملته الانتخابية بقـوة؛ غـير أن هيـلاري الجريئـة أزاحـت نصها المكتـوب جانبًـا، وانقضت على السـيناتور الـذي كان – برأيهـا – قـد أطلق بعض الملاحظات غـير الصحيحة وغير الودية حول التقمص العاطفي.

كان الرجـل قـد قـال إنـه كان – رغـم تعاطفـه مع بعض أهـداف المحتجين المناوئـين للحـرب والمطالبين بالحريـات المدنية – يعارض تكتيكاتهـم التي رآها (قسـرية). وبالنسـبة إلـى هيـلاري بـدا مدافعًـا لا عن الحرب وحسـب بل وعن أسـلوب الرئيس نكسـون في مواصلة اقتراف الأخطاء، كذلك استغربت هيلاري أن بروك (وهو زنجي) كان قد أخفق في الإتيان على ذكر جريمتي اغتيال مارتن لوثر كنغ الابن، وروبرت كندي، ذينك الحدثين اللذين كانا قد حددا مواصفات العقد إلى الآن.

قرأتُ نص خطابها: «لسنا بعد في مواقع القيادة والسلطة، إلا أننا مكلفون بأداء تلك المهمة التي لا يمكن الاستغناء عنها، المهمة المتمثلة بالنقد والاحتجاج البنَّاء، وأجدني مضطرة للرد بإيجاز على بعض الأمور التي قالها السيناتور بروك؛ جزء من مشكلة التقمص العاطفي مع الأهداف المعلنة يكمن في أن مثل هذا التعاطف لا يساعدنا في شيء؛ نمتلك فيضًا من التقمص العاطفي، لدينا طوفان من العواطف، إلا أننا نشعر بأن قادتنا طالما وظفوا السياسة لجعل الممكن مستحيلًا. ما معنى سماع أن (13,3%) من شعب هذا البلد هم تحت خط الفقر؟ إنها نسبة مئوية؛ نحن لسنا مهتمين بإعادة البنى الاجتماعية؛ إنها عملية إعادة بناء إنسانية. كيف نستطيع أن نتكلم عن نسب مئوية وتوجهات؟».

تابعت مع ما كانته هي وزميلاتها عند مجيئهن إلى الجامعة قبل أربع سنوات: مسألة الممكن والمستحيل كانت مسألة جلبناها معنا إلى ويزلي قبل أربع سنوات، وصلنا ولم نكن بعد نعرف ما لم يكن ممكنًا؛ توقعنا إذن أشياء كثيرة، مواقفنا سهلة الفهم، بوصفنا قد امتلكنا الوعي في الأعوام الخمسة من هذا العقد – أعوام سادها رجال حالمون، أناس أعضاء في حركة الحقوق المدنية، فصائل السلام، برنامج الفضاء – فوصلنا إلى ويزلي واكتشفنا – كما فعلنا جميعًا – أن هناك فجوة بين التوقعات والوقائع، ما فعلناه صعب الفهم غالبًا بالنسبة إلى بعض الناس. كثيرًا ما يسألوننا: لماذا أنتم باقون في المكان إذا كنتم غير راضين؟ ما أشبه ذلك بما اعتادت أمي على تكراره قائلة: سأحبكم دائمًا، غير أن هناك أوقاتًا لا تعجبونني فيها!

واصلت مناقشة جملة التغييرات التي كان صفُّها قد استحدثها في ويزلي قائلة: حبنا للمكان، هذا المكان بالذات (كلية ويزلي) مصحوب بتحررنا من عبء واقع غير صادق، مكَّننا من مساءلة الفرضيات الأساسية الكامنة وراء تعليمنا. قبل أيام المظاهرات المنسقة غالبًا من أجل وسائل الإعلام، كنا نعقد اجتماعاتنا هناك في بقعة مرآب المؤسسين.

اعترضنا على شرط التوزيع الأكاديمي الجامد. عملنا من أجل نظام قائم على نجاح/ رسوب. طالبنا باختزال بعض إجراءات صنع القرارات الأكاديمية. لحسن الطالع كنا في مكان كان فيه – حين تساءلنا عن معنى التعليم الليبرالي – أشخاص متحلون بخيال يكفي للتجاوب مع تساؤلنا، ذلك هو ما جعلنا نحقق تقدُّمًا. أنجز جل الأشياء التي رأينا في البداية أنها ناقصة في تلك الفجوة بين التوقع والواقع.

اهتماماتنا لم تكن – بالتأكيد – أكاديمية وحسب، كما نعرف جميعًا؛ كنا مهووسين بمسائل ويزلية داخلية متعلقة بآليات القبول، بنوعية أولئك الذين يجب أن يلتحقوا بركب ويزلي، وبالسيرورات الكفيلة بإيصالهم إلى هنا، تساءلنا عن المسؤولية التي يجب أن نضطلع بها إزاء حياتنا أفرادًا من ناحية وأعضاء في فريق جماعي من ناحية ثانية.

وجدتني عاكفة على التفكير معجبة بمدى جدارة جملة هذه التغييرات الكثيرة التي استطاع الطلاب أنفسهم إحداثها في تعليمهم؛ كم كانت الأمور مختلفة أيام دراستي الجامعية، حين كانت أي اقتراحات صادرة عن الطلاب تتعرض فورًا للرمي في أقرب سلة مهملات.

وهيلاري التي طالما كانت مثقلة بالمشاعر حول المحرومين في العالم، تابعت معبرة عن تمنياتها لخير الجنس البشري. «جنبًا إلى جنب مع اهتمامنا بالمجتمع هنا في ويزلي كنا مهتمين بما هو حاصل هناك خلف بيت هاثاواي، كنا نريد أن نعرف طبيعة العلاقة التي ستنسجها ويزلي مع العالم الخارجي، وأحد الأشياء الأخرى التي فعلناها تمثل ببرنامج الصعود الإلزامي، ثمة أشياء كثيرة جدًّا يمكننا أن نتحدث عنها؛ محاولات كثيرة جدًّا، أقله طريقتنا في النظر إليها، في أسلوب انخراطنا بالعالم الخارجي. وأظن أننا نجحنا؛ سيكون برنامج صعود إلزامي، مثالًا واحدًا فقط، في المدينة الجامعية هذا الصيف».

أرادت هيلاري بخطابها أن تقدم وصفًا لحياتها الجديدة شابة مثالية، كثرة من الأمور التي ذكرتها – تلك القائمة على افتراض السلطة والمسؤولية – كانت همومًا عامة في المدن الجامعية في العالم من أوله إلى آخره. غير أن في عمق الهموم ثمة موضوعًا معينًا، موضوعًا بالغ التفاهة والقدم؛ لأن الكلمات بالغة الألفة والتكرر، ثمة كلام عن الاستقامة، الثقة، والاحترام. ونحن دائبون – جميعًا بلا استثناء – على اسكتشاف عالم لا يفهمه أحد منا، وعاكفون على محاولة إيجاده في إطار ذلك اللايقين.

غير أن هناك أشياء معينة نشعر بها؛ شاعرون نحن بأن حياتنا الطاغية، الاستحواذية، والتنافسية بما فيها، مأساويًّا، جامعاتنا، ليست طريقة الحياة المناسبة لنا. نحن عاكفون على البحث عن نمط عيش أكثر مباشرة، أوفر إثارة، وأعمق انخراطًا. كذلك هي مسائلنا بشأن مؤسساتنا، بشأن كلياتنا، بشأن كنائسنا، وبشأن حكوماتنا تبقى مستمرة. رأينا في الصحف أنها مسائل يجري الترويج لها والتبشير بها، وقد اقترح السيناتور بروك بعضها هذا الصباح؛ غير أننا – جنبًا إلى جنب مع إطلاق هذه الكلمات (كلمات الاستقامة، الثقة، والاحترام) فيما يخص المؤسسات والقادة– متطرفو التشدد ربما مع أنفسنا بالذات بشأنها.

لا أعرف بالنسبة إلى الطالبات الأخريات، غير أن الكلام كان ولايزال صحيحًا مئة بالمئة بالنسبة إلى هيلاري.

وقالت هيلاري التي كانت لاتزال مراهقة، هيلاري كثيفة الانشغال بتشكيل هويتها: «ما من احتجاج، اعتراض، سواء أتمثل بمداخلة أكاديمية فردية أم بمظاهرة في مرآب المؤسسين إلا وهو – بلا خجل أو مواربة – نوع من السعي لاجتراح هوية محددة في هذا العصر الخاص، وذلك المسعى كان – بالنسبة إلى العديد منا، يعني، طوال السنوات الأربع الماضية – تصالحًا مع إنسانيتنا، مع كوننا بشرًا.

(تساءلت عما إذا عنت أنها كانت قد غفرت لنفسها انحرافها وتورطها في تعاطي المخدرات).

«إدراكنا للواقع هو أنه كثيرًا ما يتأرجح بين إمكانية وقوع كارثة واحتمال التلبية الإبداعية القائمة على خصوبة الخيال لحاجات الناس. ثمة نبرة محافظة شديدة الغرابة تخترق جوانب كثيرة من اليسار الجديد، من الاحتجاجات الجامعية التي أجدها شديدة الإرباك؛ لأنها مرددة لأصداء الكثير من الفضائل القديمة بدلًا من إنجاز أفكار أصلية، وهذه أيضًا تجربة أمريكية فريدة. إذا لم تفعل تجربة العيش البشري فعلها في هذا البلد، وفي هذا العصر، فإنها لن تفوز في أي أمكنة أخرى.

إلا أننا نعرف أيضًا أن التعليم يجب أن يستهدف تحرر البشر؛ تحررًا يمكِّن كلًّا منا من تحقيق قدرته على أن يكون حرًّا في الإبداع داخله وحوله. لا بد للتعليم من أن ينعكس على الفعل، وهنا نسأل أنفسنا مرة أخرى كما سبق لنا أن سألنا آباءنا وأمهاتنا وأساتذتنا عن معاني الاستقامة، والثقة، والاحترام. تلك الكلمات الثلاث تعني أشياء متباينة بالنسبة إلينا جميعًا.

مثلًا، الاستقامة: شجاعة التكامل، العيش جنبًا إلى جنب في شعر الوجود الغزير. إذا كانت حيواتنا هي الأدوات الوحيدة التي نلوذ بها في النهاية، فإننا نوظفها بالطريقة التي نستطيعها باختيار أسلوب عيش مؤهل لعكس نمط شعورنا ومعرفتنا».

الثقة: حين سألت الصف في اجتماعنا الأخير عما هن راغبات في أن أقوله باسمهن، الجميع طلبن أن أتحدث عن (الثقة). طلبن أن أتكلم عن الافتقار إلى الثقة بين الأشخاص وعن الإحساس بالآخرين. ما الذي يمكنك أن تقوليه عن الثقة؟ ما الذي تستطيعين قوله عن شعور يخترق جيلًا، شعور ليس حتى مفهومًا ربما من قبل أولئك الذين هم من غير الموثوقين؟ كل ما يستطاع فعله هو مواصلة المحاولات مرة بعد أخرى، فثالثة ورابعة؛ إنه ذلك البيت الرائع في

قصيدة (كوكر الشرق) لإليوت عن عدم وجود طريقة أخرى غير المحاولات المتكررة مرات ومرات للفوز من جديد بما سبق لنا أن فقدناه من قبل».

دار في خلدي: البيت وصف لهيلاري الراشدة جنبًا إلى جنب كل ما أعرفه عنها. إضافة إلى كل ما ترغب هيلاري أن تناضل من أجله مرة بعد مرة، بعد مرة.

ويتواصل نص خطابها: «ثم نصل إلى كلمة احترام. ثمة تلك التبادلية للاحترام بين الناس، حيث لا يقيم الناس من منطلق نسب مئوية. حيث لا تقوم باستغلال الناس. حيث لا تكون حريصًا على هندسة الناس اجتماعيًّا».

فكرت: ألم يكن الحصول على رئيس جمهورية مؤمن بذلك أفضل؟!

«النضال في سبيل حياة متكاملة تنعم بأجواء الثقة والاحترام، نضال ذو عواقب سياسية واجتماعية شديدة الإلحاح، وكلمة (عواقب) تقذفنا بالتأكيد إلى قلب المستقبل. يبقى الخوف دائم الحضور، غير أننا أكثر انشغالًا من أن نلتفت إليه؛ لا وقت لدينا؛ ليس الآن».

اختتمت خطابها بقصيدة رائعة ألفتها نانسي شايبنر ، قصيدة كان من شأنها أن تكون مكتوبة من قبل هيلاري نفسها. هاكم المقطع الأخير من القصيدة:

أنت وأنا يجب أن نكون طليقين
لا لإنقاذ العالم في حرب (صليبية) مجيدة
لا لنقتل أنفسنا بألم قارض لا اسم له
بل لنمارس بكل ما لدى كياننا من مهارة
فن جعل العيش في هذا العالم ممكنًا.

رأيت أنه كان خطابًا ساحرًا، لاسيما عندما نتذكر أن الخطيبة لم تكن تتجاوز الحادية والعشرين من العمر. عبرتُ عن رأيي على مسامع هيلاري.

ابتسـمت ابتسامة مشـرقة وقالت: أنا سعيدة جدًّا برأيك! مع أن أبي حضر حفل التخرج، فإن أحد أكبر أسباب أسفي في الحياة هو أن أمي كانت مريضة وعاجزة عـن الحضور، شـعرت بكثير مـن الخيبة بعد كل الذي فعلتـه لضمان نجاحي في الكلية. من نواحٍ معينة، كان الاحتفال لها هي، وليس لي أنا. استمتاعك بخطابي يشكل نوعًا من التعويض عن غيابها.

أصابتنـي نوبـة رعب: هل تحاول وضعي في مـكان أمها تعويضًا؟ لم أنتبه إلى ذلـك. مهمـا يكن، آمل أن يكون جواب التسـاؤل إيجابيًّا، كان بوسـعها أن تغوص بتحليلها إلى مستويات أعمق بكثير.

في الوقـت نفسـه قدرت أن مـن الأفضل لجم أمومتي المقابلـة، وهو رد الفعل الذي يبرزه المريض أو المريضة لدى أي طبيبة أو طبيب معالجة. لماذا أنا معجبة بهـا كل هـذا الإعجـاب؟ لأنها جديـرة بالإعجاب، ذلـك هو السـبب. إنها ذكية، لطيفـة، واسـعة الاطـلاع، وأنـا أتعلم منها أشـياء كثيرة. متفوقة هي على سـائر المرضـى الآخريـن في التحلي بالقدرة على الإمتاع. يضـاف إلى ذلك أنها نجمة لامعـة، ومجيئهـا إلي يشـعرني بقـدر كبير مـن الزهو. مـن قال إنك لا تسـتطيع أن تُعجـب بمرضـاك؟ مـا هـذه المهنة المجنونـة التي يثـير فيها صاحبهـا الريبة إذا أُعجـب بزبائنـه؟ من الأفضل لي أن أكون محاسـبة في سـوبرماركت حيث لا ينتقدني أحد إذا تبادلت الضحك والمزاح مع الزبائن.

علـى أي حال، يبدو أن العـالم كله اتفق مع تقييمي لخطاب هيلاري. محررو مجلـة لايـف رأوا أنـه كان مثالاً لما كان يحدث في المـدن الجامعية في طول البلاد وعرضها، ونشـرت ذلك مع صورة لهيلاري وعلى عينيها نظاراتها الشبيهة بقاع قواريـر الكوكاكـولا وسـروالها الشـبيه بالجرس، وحدهـا هيلاري كانـت غافلة عـن مـدى اسـتثنائية خطابها؛ لم تكن واثقة مـن أنها كانت قد نطقت بالأشـياء الصحيحة.

مع انتهائي من قراءة خطاب هيلاري شعرت مغمورة بعمق كثافة وحكمة هذه الصغيرة التي لاتزال في مرحلة المراهقة؛ كانت امرأة عظيمة في سنها المبكرة؛ لا غرابة أن مجلة لايف أبرزتها. لو سمعت الخطاب في الوقت الذي ألقته فيه لما فوجئت لو تنبأ أحدهم بأن من شأنها أن تنتخب رئيسة أولى لجمهوريتنا.

2013 11 15

بـدأت هيـلاري الكلام: نعم دكتورة! هل أصبحت قادرة على الكلام عن بل؟ صرت في المحطة التي التقيته فيها في هذه القصة الملحمية.

ابتسمتُ وأجبتها: إذا كنت جاهزة.

يا إلهي! أنا جاهزة منذ لحظة دخولي العيادة ولكنك لم تدعيني أفعل!

ابتسمتُ ثانية وقلت: لا أظن أن أحدًا استطاع أن يمنعك من فعل أي شيء!

صحيح، دكتورة، أنت على حق في ذلك! وافقت هيلاري مبتسـمة. لنبدأ! إذا كنـت سـتقولين لي شـيئًا، فمـن الأفضل أن تقوليـه الآن وإلا فسـتكونين مضطرة لالتـزام الصمـت إلى الأبد؛ لأنني إذا بدأت الكلام عن بل فقد لا ترغبين سـماع أي شيء آخر مني لبعض الوقت. ابتسمت مرة أخرى.

كنـت في مكتبـة ييـل، أطالع كتـاب كارل أوغلزبي غربـان في العاصفة: تاريخ شـخصي لحركـة معـاداة الحرب في السـتينيات، حين لفت نظـري على الطاولة المقابلة هذا الشـاب الوسيم الذي بدا واحدًا من الفايكنغ بشعره الطويل ولحيته الشـعثاء، ظـل يحدق بي. لم أسـتطع تصور السـبب، نظـرًا إلى أنهـا كانت المرة

الأولى في حياتي التي لم أكن فيها بكل تأكيد مثالًا لفتاة غلاف. كنت أرتدي سروالًا جَرَسيًّا، واضعة على عيني تلك النظارات العملاقة، وأسوق سيارة مهترئة قديمة ذات سقف من الفرش المربوطة. قذفت ذراعي أمام عيني كي أخرجه من ساحة رؤيتي لأتمكن من مواصلة قراءة كتابي دون شرود.

ما أثار اشمئزازي أنني عجزت عن التركيز، حين أنزلت ذراعي، كان لايزال محدقًا. قلت في نفسي: من الأفضل أن أفعل شيئًا، طالما لم أكن قادرة على القراءة، على أي حال. مشيت نحوه مستعدة لأقول له: ما الذي تنظر إليه، يا زميل؟ ألم يسبق لك أن رأيت سيدة من قبل؟ إلا أنني ولدهشتي، بادرت بدلًا من قول ذلك إلى مد يدي قائلة: «دائب أنت على التحديق بي منذ وصولي إلى هنا. هل تريد أن تعرف اسمي؟ أنا هيلاري رودهام. وما اسمك أنت؟».

ابتسم ابتسامته الرائعة تلك، مد يده، وقال: «أنا بل كلنتون». غير أنه حين حاولت استرجاع يدي، منعني من سحبها، ظل ممسكًا بها وينظر في أعماق عيني. وقفنا هناك، متجمدين معًا للحظات، وأحسست برعشة خوف منزلقة على عمودي الفقري. في مكان ما شعرت بأنني وقعت في المصيدة مدى الحياة، وبتنا بالفعل منذ تلك اللحظة غير قابلين للانفصال.

فكرت: لا غرابة أنها ليست حدسية؛ فحين يُحْدَس بشيء، يكون الأمر بالغ العمق ومخيفًا إلى درجة الموت؛ من الأفضل عدم معرفة الشيء بدلًا من الانسحاق خوفًا منه الوقت كله!

نظرت إلى اليد الممسكة بيدي وأذهلتني بجمالها. نظرتْ إليّ بثبات وقالت تبدين متفاجئة دكتورة، لماذا؟ ألا أبدو كأولئك الذين يعجبون بالأشياء الجميلة ويلاحظونها؟ بل بالغ الروعة، مازلت مغرمة بالنظر إليه. رسغاه ضيقتان وأصابعه الطويلة أنيقة أشبه بأصابع أي جراح أو عازف بيانو. أعشق النظر إليه وهو يقلب صفحات كتاب، وأستطيع أن أبقى متابعة إياه وهو يفعل ذلك إلى ما لا نهاية، لم يسبق لي أن التقيت شخصًا مثله.

وتابعت: لسنا بصدد الحديث عن شاب يبدد أي وقت! جلست بجانبه بلا دعوة، وعلى الفور بدأ يحدثني عن نفسه، عن التفوق الذي مكنه من الفوز بزمالة رودس، عن أمه المحبة، عن أبيه الراحل، عن طفولته الوحيدة، عن طموحاته، عن كل شيء يخصه. وكما لو كان يحذرني، قال إنه كان سيرفض عروض الشركات الحقوقية جميعها، وسيعود إلى آركنسو بعد مدرسة الحقوق. قال: وسأصبح حاكمًا! لاحظي أنه لم يقل إنه كان سيحاول أن يصبح حاكمًا، بل كان سيصبح حاكمًا.

فيما بعد، أخبرني أنه كان يراقبني منذ شروعنا كلينا في حضور الحصص الحقوقية نفسها؛ أفاد بأنه لم يكن قد سبق له قط أن رآني، وكان جالسًا في الصف الخلفي من مقاعد الغرفة عندما لاحظني للمرة الأولى، أقر بأنه فوجئ بقوتي ورباطة جأشي ومدى معرفتي الدائمة لأجوبة أسئلة الأساتذة، قال إنه بدأ يلاحقني في المدينة الجامعية. مضحك حقًّا! لم أدرك ذلك إلى أن أخبرني به.

صارحها مباشرة برغبته في رفقتها الدائمة، وبأنه لم يكن يمل منها قط، وفي مرحلة مبكرة جدًّا من علاقتهما عبر عن استعداده بشغف لأن يكبر معها.

تابعت هيلاري: ارتبكت. حتى في البداية الأولى، أوهام الاقتران به زواجًا راحت تطن في أعماق رأسي؛ أنا هيلاري دائمة الانضباط ورجاحة العقل! تصورت أنه كان قد قرر سلفًا أن يطلب مني الاقتران به زوجًا، ورحت أنظر في الاقتراح. أدركت أنني إذا سايرت مخططاته فإن من شأن الأمر أن يكون أشبه بالانتساب إلى فريق كرة قاعدة ثانوية على أمل الارتقاء يومًا إلى مستوى فريق رئيسي.

بالمقابل، إذا حذوت حذو نجمي، فقد أخسره. لم يبدُ الوضع واعدًا بقوة. ومع ذلك، فإننا تابعنا الجلوس غارقين في الكلام إلى أن اضطر الناظر لطردنا من المكتبة. على الدوام درجت على أن أكون محكومة بعقلي لا بقلبي، إلا أن

بـل رجـل شـديد الإغـواء؛ ومهمـا بدا الأمـر غـير وارد بالنسـبة إليَّ أنـا الباردة والمحتشـمة المتحفظـة، فإنني رافقته إلى غرفتـه. أحيانًا أفكر أنه كان على أبويَّ أن يقيداني بالحبال.

فكـرت: يقـوم بل بسـد الفراغ الموجود عنـد هيلاري؛ كله قلـب وعواطف، في حين أنها، كلها، رأس وعقل. معًا يشكلان شخصًا كاملًا.

تابعـت هيـلاري الـكلام: مباشـرة أضفـى علـى حياتـي متطرفة الاحتشـام طوفانًـا مـن المـرح والألق؛ حولنـي إلى امرأة زاخرة بالشـغف، صـرت غارقة في بحـر مـن العواطـف التي لم أسـتطع التحكم فيهـا؛ أصبح السـؤال الجوهري في حياتـي متمثـلًا بـ: هـل يجب عليَّ أن أختار المتعة أم ضبط النفس؟ للمرة الأولى في حياتي راح ميزان زئبق أمي ينصرف في المكان كله. لم أعد أستطيع أن آكل، لم أعد قادرة على النوم، لم أعد قادرة حتى على الدراسـة؛ لم أعرف ما العمل؛ كل ما كنت أعرفه هو أننا كنا متناسـبين تمامًا، طنجرة عثرت على غطائها، يدٌ اهتدتْ إلى قفازها. استغرق بقاؤنا في السرير مدة ثلاثة أشهر.

قررت مناقشة هذا كله مع أحدهم – وأنا الشهيرة بعدم الكلام بالمطلق عن ذاتي مع أحد – اخترت صديقي السـابق؛ ديفيد روبرت الذي كان صافي الذهن مثل أي ممن كنت أعرفهم، لألتمس منه النصح.

قلـت لـه: «أعاني مشـكلة يا ديفيد؛ أنـا مجنونة بحب هذا الزبـون بل كلنتون الذي يقول إنه سـيصبح حاكم آركنسـو. يقنعني مئة بالمئة بأنه سيفعل، ذلك هو الشـخص، أجـدني ميالة إلى الذهاب معه إلى آركنسـو، ولكن مـاذا عندئذ عن طموحاتي أنا؟!».

جعَّـد جبهتـه وسـألني سـؤالًا وحيدًا: «هل تحبـين بـل؟». ودون إضاعة نبضة واحدة، أجبت: نعم؛ قال: «مبارك، إذن تابعي!» عانقته فكشـفت سـلفًا تأثير بل فيَّ. كان ديفيد قد قال ما كنت راغبة في سماعه تمامًا.

وأنـا ـِفِ السـنـة الثالثة بييل، انتقلنـا بل وأنا معًا، اسـتأجرنا بيتًا على الطراز الفكتوري، خارج المدينة الجامعية، بيتًا ذا مدخل مسقوف مؤطر بأعمدة بيضاء، إلا أن الأمور لم تكن مسـتقرة فيما بيننا كما تصورتها ـِفِ البداية؛ بُعيد دخولي، يبدو أن الأوضاع انقلبت رأسًـا على عقب؛ ففيما أصبحت أنا أكثر غرقًا ـِفِ بحر بـل، صار هو متناقضًا بشـأن علاقتنا؛ لم يكف للحظة عن الانشـغال بطموحاته السياسـية المحلقـة، بـات قلقًـا من أن يكـون قد وقـع ـِفِ حبي كما قـال؛ لأنه كان ملزمًـا بالعـودة إلـى آركنسـو ليصبح حاكمًـا. أنا أيضًـا صرت قلقة، لم أسـتطع تصور العيش ـِفِ آركنسو، إلا أنني كنت غير قادرة على تحمل فكرة ترك بل.

على الرغم من أنني كنت مبرمجة للتخرج ـِفِ 1972م، فقد أصبحت شديدة الحب لبل حتى عشـت معه ـِفِ نيوهافن عامًا آخر إلى أن تخرج؛ أمضيت السـنة متبعة دورات تنمية أطفال بمركز ييل لدراسة الطفولة، لم أكن أحاول الحصول على شهادة جامعية أخرى؛ فقط كنت أبدد الوقت كي أبقى قريبة من بل كلنتون.

2013 11 18

قبل تخرجه ببضعة أشهر، قمنا برحلة إلى آركنسو، ظاهريًّا كي يتقدم لامتحان محاماة، وقال إن عليَّ أنا أيضًا أن أفعل تحسبًا. نجحنا كلانا. مع أنه لم يكن يظن أنه كان يعرف عندئذ، فإنه أخذني بالفعل إلى البيت لمقابلة أمه؛ كنت مرهقة، ووسخة جراء الرحلة الطويلة، معتمرة (قلبقًا) فوق شعري المزيت، بلا أي مكياج، حين التقينا؛ أمه وأنا للمرة الأولى.

ولا أكبر من ذلك التناقض بين شخصين يمكن تصوره؛ كانت امرأة متوهجة شديدة الحرص على مواصلة الألق، كانت متبرجة حتى في النوم، كما قالت؛ كان التبرج يستغرق وقتًا طويلًا. كانت رموشها مظللة بثلاثة خطوط، كان شعرها مزينًا بخصلة مصبوغة باللون الفضي في الوسط. بدت لي أشبه بظربان؛ لن أنسى ما حييت كيف صُدمت حين رأتني للمرة الأولى، صدمتها التي انعكست على وجهها كانت توحي بأن ابنها الرائع كان قد التقط مخلوقة مشردة من تحت أحد الجسور؛ لعله فعلها بحسب ظنها. لم يكن الاختلاف محصورًا بمظهرينا؛ كانت مشهورة بأنها سيدة عاشقة للمتعة واللهو، في تناقض صارخ معي. استقبالها لي كان جليديًّا، ومنافيًّا للأسلوب الجنوبي تحديدًا؛ أخشى ألا تكون قد تجاوزتْ انطباع ذلك اللقاء الأول، أنا أيضًا لم أفعل.

بِلْ فنان في التملق، يتقن انتقاء الكلمات المناسبة لاسترضاء الناس؛ لا غرابة! نشأ في حضن أمه. أول الأشياء التي كانت تقولها له كل صباح: لا أحد يعترف لي بأني جذابة وبارعة! وهو يرد عليها: أنت بالغة الجمال يا فيرجينيا، كأنك قديسة، فيضمن بقاءها ملاطفة إياه طوال النهار.

ذات مرة، كان محلقًا في الخيال وأخفق في إسماع فيرجينيا التعليق المناسب، فأهملته لساعات. غير أن بلي الصغير كان سريع التعلم؛ كف بالمطلق عن النسيان، علمته كيف يتملق النساء ويمدحهن؛ علمته درسًا ظل يطبقه طوال باقي سني حياته.

إحدى قصصي المفضلة عن بل تتعلق بزوج أمه الكحولي، البذيء الذي كان شديد القسوة مع فيرجينيا، ولاسيما حين كان غضبه يزيد أوارًا بنار الغيرة؛ ذات مرة حين كان في المراحل الأولى من مراهقته، دخل بل إلى إحدى الغرف ورأى زوج أمه باطحًا فيرجينيا أرضًا، خالعًا نعلها الذي راح يضربها به بضراوة، رفعه بل عنها ممسكًا به من رقبته وصرخ في وجهه السكران العفن طالبًا منه التوقف، قائلًا إنه إذا أعاد فعلته فإنه سيعرف كيف يتعامل معه.

قلت: يا لها من قصة بالغة الروعة يا هيلاري؛ مراهق يتصدى لبديل أبيه نجح في حل عقدته الأوديبية ولن يخاف أبدًا من التنافس مع كائن من كان في العالم. حتى في شبابه، لم يتردد بل في أن يقول إنه سيصبح حاكم آركنسو وسيُنتخَب بعد ذلك رئيس جمهورية للولايات المتحدة.

كان بل محبوب أمه، عنصر التعويض الوحيد في حياتها، الكأس المقدسة التي صبت فيها كل ما راودها من آمال وأحلام. تابعت هيلاري: وتولى بل بدوره تهذيب زوج أمه وأخيه روجر؛ كان بل أبًا، وأخًا، وابنًا للعائلة كلها. شغف أمه به بدا رائعًا، إلا أنه كان خانقًا. قيل إن أي رجل يقترن زواجًا بنسخة عن أمه تكون أصغر سنًّا. والشخص الذي قال ذلك لم يسبق له أن التقى فيرجينيا كلي وهيلاري رودهام.

2013 11 20

جاءت هيلاري إلى جلستها وهي لاتزال راغبة في الاستغراق بذكريات قرارها القاضي بالزواج من بل كلنتون، قالت: كنت هائمة بحبه، إلا أنني بقيت مترددة حول الذهاب إلى آركنسو والعيش هناك؛ لم أستطع أن أقرر ما إذا كان يتعين علي أن أتابع طموحاتي بوصفي امرأة مستقلة، أم أستفيد من فرصة احتمال تمخض الشراكة مع بل كلنتون عن إيصالي إلى هدفي المنشود. قررت مناقشة الموضوع مع صديقي وأستاذي بيرني نوسباوم، وهو رجل ذو عقل حقوقي مميز كان سيصبح لاحقًا صديق بل الحميم ومحاميه. كنت آمل في الحصول على نصيحة ناجحة ما؛ لم أتجاوز السادسة والعشرين من العمر وقدرت أنني بحاجة إلى مثل هذه النصيحة؛ صدقًا لم أكن قادرة وحدي على أن أقرر ما يتعين فعله.

حديثنا كان من قبيل: «أريدك أن تقابل صديقي. أظن أنك ستعجب به». «قال: صحيح؟ وما اسمه؟». أجبت: «بل كلنتون، التقيته في مدرسة حقوق ييل». قال: «هل هو عازم على أن يصبح واحدًا من كبار المحامين المعروفين؟». قلت: «لا، سيكون سياسيًّا. عازم هو على العودة إلى آركنسو ويترشح لعضوية الكونغرس مباشرة».

نظر إليَّ باستغراب، وسأل: «الترشح لعضوية الكونغرس مباشرة؟ ألا يتعين عليه أن يمارس أولًا ويحصل على شيء من الخبرة يتسلح بها؟». تجاهلت سؤاله وقلت بهدوء: «بعد الترشح لعضوية الكونغرس، سيصبح حاكمًا لآركنسو. ومن ثم سيكون رئيس جمهورية الولايات المتحدة».

نظر إلي غير مصدق؛ بدا عاجزًا عن تصديق ما سمعه للتو، قال: «أعرف أنك تحبينه يا هيلاري، ولكن ألا ترين أنك تبدين غير واقعية؟ من يمكن أن يصبح حاكمًا، فضلًا عن أن يصبح رئيس جمهورية للولايات المتحدة، دون أي خبرة حقوقية؟ هل فقدت عقلك؟ يبدو أن الشراب الذي احتسيناه قد تسلل إلى رأسك».

كنت أهوِّم. كان بيرني يعرفني جيدًا، ولا شك أنه كان يدرك أنني لم أكن ممن يطلقون كلامًا بلا معنى. فكرت، ثم قلت: لاجدوى من مساعدة بيرني في هذه المسألة! التقطت أوراق خطابي المعد ورميتها في وجهه، قلت له: بيرني أنت مغفل! كيف يمكنك أن تكون صاحب رأي حول رجل لم يسبق لك أن التقيته؟

ومن دون انتظار أي رد، نزلت من السيارة، صفقت الباب، وهمت مبتعدة. هنا كنت قد التمست نصحًا من حكيم مزعوم، إلا أنني تلقيت محاضرة زادت حالتي سوءًا عما كانت من قبل؛ قررت عدم استشارة مزيد من الأصدقاء؛ لا فائدة منهم على الإطلاق. حين سألتني صديقة قديمة من مدرسة الحقوق تدعى نانسي بيكافاتش عن الوقت الذي سأعرف فيه ما إذا كنت سأقترن ببل أم لا، صفعتها بعبارة: سأعرف حين أعرف. تابعت هيلاري الاستغراق في التأمل إلى أن حان موعد المغادرة، وقفت وقالت نصف مازحة: كان يجب أن أعرفك في تلك الأيام أيتها الدكتورة! كنت ستصدقينني.

علقت: يشرفني أن تفكري على هذا النحو.

وضعت هيلاري يدها على قلبها وانحنت انحناءة صغيرة.

2013 11 22

دخلت عيادتي بمزاج حزين وقالت: على الدوام يبدو عليك يا دكتورة أنك تستغربين إذ تجدينني قادرة على إجادة الأداء كما أفعل بالرغم من تعرضي المتمادي لهجوم وسائل الإعلام.

أومأت موافقة: إنها موهبة يا هيلاري. لست واثقة من قدرتي على ذلك.

قالت: انسجامًا مع أسلوب ميزان زئبق أمي، تعلمت من بل كيف أتعامل مع متاعبي، وعلمني فن تجزئة مشكلاتي؛ قال لي: إن أمه علمته أسلوب طرد مشكلاته عن طريق حصرها في علبة بيضاء محكمة لا ينفذ إليها الهواء. كانت تقول لولديها حين تقع أمور سيئة: بادرا إلى بناء علبة في الرأس قوية كالفولاذ، احفظا أسراركما محبوسة داخل العلبة، ولا تسمحا لكائن من كان أن يفتحها.

وقد ظل يطبق نصيحة أمه منذ أن كان طفلًا، كما قال لي. ولو لم يفعل لما حقق النجاح كله الذي حققه بالرغم من إصرار الصغار جميعهم على نعته بـ (قط سمين). يجب أن يكون قد شعر مثلما شعرت أنا عندما لقبني الصغار (وجه البومة). مازالت (العلبة البيضاء الصغيرة) تحكمه. يوميًّا يقول لي: لا

نستطيع ترك الناس يحكموننا بأجنداتهم في حياتنا وواجباتنا؛ لأنهم سيفعلون إذا سمحنا لهم.

تأثرت بالكلام، واعترفت بتأثري قائلة: سيتعين عليَّ أنا أن أبني أيضًا علبة صغيرة بيضاء تخصني.

2013 11 25

تابعت هيلاري حكايتها مع بل كما لو أن أي وقت لم ينقضِ بين الجلستين، قائلة: بعد تخرج بل في ييل، وفى بوعده المتمثل بالعودة إلى آركنسو وحصل مباشرة على وظيفة تدريس الحقوق في جامعة محلية بفاييتفيل. افتقدته كثيرًا وقررت ألا أمضي ليلة أخرى بعيدة عنه، وفي غفلة من الجميع بمن فيهم بل، كنت قد بدأت أحضر بهدوء للانتقال إلى آركنسو قبل أشهر؛ إذ كنت حاصلة سلفًا على وظيفة تعليمية كانت تنتظرني في إحدى المدارس الحقوقية هناك، مع مكان للإقامة. قررت الالتحاق به، وعلى الفور بدأت أحزم حقيبتي الصغيرة.

وأنا عاكفة على حزم أمتعتي مرت صديقتي سوزان أهرمان وسألت عن المكان الذي أنا ذاهبة إليه. قلت لها شيئًا من قبيل؛ ذاهبة أنا إلى آركنسو للاقتران زواجًا ببل كلنتون.

سألت: «هل هو على علم بالأمر؟».

أجبتها: «ليس بعد».

ألقت نظرة على حقيبتي البسيطة وعلقت ضاحكة: «وكيف تتدبرين أمر النقل؟».

«أعـاني مشـكلة صغـيرة، لا أدري كيـف سـأوصل أشـيائي كلهـا؛ مثـل كتبي، وملابسي الباقية، ودراجتي الهوائية إلى فاييتفيل».

«هل أنت واثقة من أن هذا هو الوقت المناسب للذهاب؟».

«لا، لست واثقة. غير أنني ذاهبة مهما يكن».

قالـت سـوزان: «أنـا ضـد ذهابـك يـا هيلاري؛ مـا أكثر مـا نبهتك! ليس إلا محامي أرياف في بلدة صغيرة. أنت لسـت على ذلك المسـتوى؛ أنت امرأة لامعة وتستطيعين الحصول على وظيفة رائعة بجدارتك الخاصة هنا».

أجبتها: «غير أن بل موجود هناك».

عرضت أن تقلني مع حوائجي بسـيارتها إلى فاييتفيل، أقدر أنها كانت تأمل في الحصـول علـى ما يكفي من الوقـت في الطريق لإقناعي بضـرورة العودة إلى عقلي. وبصرف النظر عما سـاقته من حجج – وهي من الأشـخاص الناجحين جدًّا في الإقنـاع– أخفقت في إقناعي بتعديل قراري.

لم أفاجأ.

أصـرَّت سـوزان: «تسـتطيعين أن تكتفـي بزيارته، ثم تعودين معـي إلى حيث تنتمين».

وكمـا أنـا متأكـدة مـن أنـك أصبحـت تعرفين سـلفًا يا دكتورة، ليس سـهلًا إقناعي بأي شيء لست موافقة عليه، ولاسيما بشأن من سأقترن به زواجًا، غير أن سـوزان كانت خبيرة وحافظت على هدوئها حتى وصلنا إلى آركنسـو، أما بعد وصولنا إلى الأطراف البائسة للبلدة فقد أجهشت باكية.

بوصفـي نصـيرة حركـة نسـوية مـن جيـل إلـى آخـر، وجدتُنـي متعاطفة مع سوزان، وقدرت أنني – لو كنت مكانها – ربما كنت فعلت الشيء نفسه.

قالت هيلاري: أردت التعلق بسياسي، وكان بل هو ذلك السياسي. حتى قبل الوصول إلى فاييتفيل، كنت أعرف أن علي ألا أعيش معه بسبب الأعراف والتقاليد المحلية، فاستأجرت غرفة في بيت أستاذ جامعي قديم، لا لأقيم فيها كثيرًا.

كررت المرور بمركز حملة كلنتون الانتخابية النيابية وأخافني ما رأيته؛ كانت الحملة مدارة من قبل حفنة من معلمي المدارس الذين كانوا يخلطون حابل الحملة بنابلها، سارعت إلى الإمساك بزمام الأمور، وعلى الفور انقلب المقر من مكان للهو واللعب إلى مركز يتولى أمره متطوعون ذوو وجوه صارمة. كانوا يسمونني (ضابطة التدريب)، ولكن متى كانت النعوت والألقاب تؤثر فيَّ؟! نصف النشطاء رحلوا، حسنًا فعلوا (قلت في نفسي) قد نتمكن من إبدالهم بنوعية أعلى من الملاكات!

بالرغم من وصولي إلى البلدة، يؤسفني أن أخبرك أن بل تابع الأمور اليومية التي كان يمارسها، وحين اعترضت لدى مدير الحملة، قال لي إن بل لن يتغير أبدًا، ولا علاقة لي أنا بالأمر، غير أن ذلك أحبطني كثيرًا.

لا بد لي من القول إنني اعتقدت في مرات كثيرة أنني ارتكبت خطأ جسيمًا حين جئت إلى آركنسو؛ غير أنني كنت أحب (بل) بشدة، وقررت الثبات هناك، ظننت أنني قادرة على تغييره بعد الزواج.

فكرت: بالتأكيد، ومن ثم تستطيعين شراء جسر بروكلين.

2013 11 26

افتتحت هيلاري هذه الجلسة بتنهيدة: حسنًا، حان وقت طرق الموضوع الذي جاء بي إلى هنا. ترددت لحظة ثم تابعت: على الرغم من أنني كنت أحب بل بجنون، ترددت كثيرًا حول ما إذا كان يتعين عليَّ أن أتزوجه؛ وأحد الأسباب التي يجب أن تكوني مطلعة دون شك عليه تمثل بشهرته الرهيبة بوصفه زير نساء. صديق مزعوم لبل تنحى بي جانبًا، وقال لي بأن الأمر لن يستقيم أبدًا لكوني مفرطة الاستقامة بالنسبة إلى بل الذي كان سيحطم قلبي، جحظت عيناي؛ لم أكن أعرف أن الأمر كان على هذه الدرجة من السوء، على الرغم من أن كثيرين في فاييتفيل قالوا إنهم قد رأوه مع أخريات حتى بعد مجيئي. ربما كنت أنظر إلى انحرافاته وميوله الخبيثة بجرعات صغيرة، إلى أن تمكنت من رؤية الصورة كاملة من دون أن ينفطر قلبي.

هل تعلمت ذلك مني، أم حدست به ذاتيًّا؟ تساءلت. مهما يكن، كنت سعيدة. زادت نفاذ بصيرة. علاجها يسير على مايرام.

استأنفت هيلاري: درجت على حبس المعلومات في (علبتي البيضاء الصغيرة) إلا أن أحدهم كان يفجرها في اليوم التالي، ويفيد بأنه هو أيضًا كان قد رآه مع امرأة أخرى، في وضعية مريبة. وذات مرة وقعت يدي على

قائمة بأسـماء صديقاته في درج مكتبه، مزقتها إربًا، يمكنك بالتأكيد أن تقولي إني أسـتحق مـا حصلـت عليه، إذ ما كان ينبغي أن أتطفل (وأدس أنفي في درج مكتبه) في المقام الأول!

بقيـت صامتـة، لا بد من الاعتراف بعدم موافقتـي على التطفل، وحين يصل الأمر إلى ذلك الحد، بوسعي أن أكون طهرية مثل هيلاري، غير أن هذا لم يكن هو الوقت المناسب للبوح بذلك لها.

واصلـت هيـلاري الكلام: كنـت أعـرف أن النمر لا يغير جلـده المرقط، غير أن جنـون العظمـة القابع في داخلي أقنعني بقدرتـي على تغييره بعد الزواج، وفي مناسـبات أخـرى كانت تراودني فكرة من الجديـر دفع أي ثمن مقابل البقاء مع الرجل الذي أحبه كل الوقت، على أي حال إذا أنا قررت أن أقترن به زواجًا، فإن أحدًا لا يستطيع أن يزعم أني فعلت ذلك مغمضة العينين.

2013 11 27

سألت هيلاري: هل سأبدأ اليوم بإيجابيات أم بسلبيات علاقتي مع بل؟

التزمت الصمت. باتت تعرف أن عليها أن تقول ما هي راغبة في قوله. قالت: حسنًا دكتورة. إيجابيات علاقتنا أولًا. (منطلقة طوعًا) . حين كانت الأمور سائرة على ما يرام، كنا في حالة من التوازن الكامل ومازلنا، أبدو كما لو كنت المحرك الذي يشحن قيادته بالطاقة، وقد ازدهر في ظل موافقتي، تصرفت كما لو كنت صخرته الجبل الطارقية.

كنت ملاذه، مرساته؛ كان هو شراعي. كنت الواقعية، وكان الحالم. كنت الإستراتيجية، وكان منفذ خططي، أنا صلبة واقتحامية؛ هو لطيف ويسعى لخطب مودة الناس، تسكنني غريزة القاتل، إلا أنني مفتقرة إلى حساسيته وحذقه؛ بطيء هو في الاهتداء إلى سوء نوايا الناس، الأمر الذي جعله ضحية في الكثير من الأحيان، أما أنا فأرى ما خلف الأقنعة آنيًّا. لولاي لما أصبح رئيسًا للجمهورية بالمطلق؛ أنا محظوظة جدًّا. بل وأنا أطلقنا حوارًا منذ ما يزيد على أربعين سنة ولم نكفَّ قط عن الكلام، إنه أفضل أصدقائي، وليس ثمة أي شيء لا أستطيع البوح له به. ما تعلمته عبر السنين هو أن هناك مجدًا حقيقيًّا في أي زواج ناجح، والشعور النابع من اليقين من قدرة المرء على النظر إلى قرينه

والاستمرار في حب ما يراه بصرف النظر عن المحن والاضطرابات التي يتعرض لها؛ أعتقد أن الشعور نفسه يتملك بل.

منذ أمد طويل رفضنا فكرة أن الزواج مشروع مناصفة، خمسين بالمئة مقابل خمسين بالمئة، بدلًا من ذلك نرى أنه التزام كامل، مئة بالمئة؛ الشريكان كلاهما، يجب أن يسهما بكل ما لديهما، وأن يصرا بعناد على مواصلة المسيرة عبر الأزمات والصعوبات التي لابد من أن تعترض حياة الأزواج، أي أزواج.

علقتُ: يبدو كلامًا جيدًا؛ لننتقل الآن إلى الوجه السلبي للعلاقة، مارأيك؟

قالت هيلاري: نتقاتل الوقت كله، كنا نتجادل على الدوام. في البداية كنا ميالين إلى ضرب بعضنا، في إحدى المرات ضربته بمنفضة سجائر وكدت أكسر جمجمته، ثم كان كل منا يستغرق في المبالغة في إطراء الآخر واسترضائه. حبيبي، حبيبتي، يا إلهي! أنت أيتها العزيزة. أرجو ألا أكون قد جرحتك.

اشتباكاتنا الفكرية كانت مُكهرِبة، غير أنها كانت لا تلبث أن تتحول إلى قتال، وتلك المعارك كان من شأنها أن تدلل على أنها منعشة ومرهقة بالنسبة إلى كلينا، بعد بضعة أشهر من هذه الحفلات الزاخرة بعبارات (أحبك، أكرهك)، قال بل إنه ملَّ هذه الأمور كلها، وانتهت علاقته معي. صارح صديقتنا بتسي، حاولت دفعها إلى الرحيل، غير أنها بقيت مصرة على البقاء.

كان يقول الحقيقة يا دكتورة. لا مجال أبدًا لتركه يفلت مني! كنت أفكر به ليل نهار، بمعارك أو من دونها؛ ما من أحد في العالم كان يوازي بل كلنتون. صديقنا ماكس برانتلي، رئيس تحرير الآركنسو تايمز كان قد سئل عن رأيه بعلاقتنا! أفاد بأننا مهتمان فعلًا، كل منا بالآخر، بأن أحدًا لا يستطيع إفساد الكيمياء فيما بيننا. وحين سئل عن أسلوبي في التعامل مع علاقات بل النسوية المشبوهة، أجاب أن بل ربما كان كذابًا ناجحًا، أو أنا تقصدت التغافل طلبًا لعدم مواجهة الصورة الكبرى. تابعت هيلاري بتعب: المعارك مستمرة إلى

اليوم، بذلت كل ما استطعته من جهد لتغييره عبر السنوات، ولكن الشخصية هي الشخصية، الطبع هو الطبع، لم أكن قط موفقة. أقدر أنه بحاجة ماسة إلى الحب إلى درجة تمنعه من أن يكون صالحًا.

سألتها: ما الذي يجعلك تبقين معه؟

امتلأت عيناها بالدموع وقالت صادقة: لأنني أحبه ولا أريد أن أعيش من دونه.

حتى أنا كدت أبكي!

2013 11 29

أردت الـزواج واقترحته على بل، لم تكن اسـتجابته أفضل من اسـتجابة أبي لاقتراحـي الـزواج وأنا في الخامسـة من العمـر. إلا أن بل –أقلـه– لم يضربني؛ واكتفى بجرح مشاعري.

فكـرت: سـأتحداه! نظرًا إلى عدم توقه الشـديد إلى الـزواج، قررت أن أمثل دور مـن ليسـت سـهلة المنـال؛ سـافرت في رحلة عمل إلـى نيويورك، وواشـنطن، وشيكاغو، وبوسطن لأكتشف ما لدى المدن الكبرى من أمور لا أجدها في آركنسو. عُرض عليَّ منصب مهم في شـركة نيويوركية مرموقة حاصلة على وسام ذهبي، وعـدت إلـى آركنسـو لتقليـب العرض. هل يتعـين علـيَّ أن أكون نجمـة لامعة في آركنسو مع رجل أحبه، أم موظفة عادية في مدينة نيويورك؟

كان بل شـديد الاسـتياء من احتمال انتقالي إلى الشـمال، واستشـار صديقًا يدعى جيم ماك دوغلاس حول الأمر، معترفًا له بعجزه عن إخراجي من رأسـه وبتصميمه الجدي على الزواج مني، وجيم الذي كان قد بدأ مواعدة سوزان للتو، هذا شجع بل على الاقتران بي، قائلًا إن من المستحسن أن يقترن المرء بشخص مختلف. ثم قالت هيلاري لن تصدقي طريقة اكتشـافي لرغبته في الزواج مني، كنت قد أبديت إعجابًا عابرًا بكوخ خشـبي صغير على الطريق إلى المطار، حين

جاء بل لاستقبالي عند عودتي من رحلتي، أوقف السيارة أمام الكوخ، سألته: لماذا نقف هنا؟ فقال: «عبرت عن إعجابك بهذا الكوخ، فاشتريته، ستحبينه. وأقدر – إذن – أن عليك أن تتزوجيني».

على الدوام كان بل صاحب ذوق رفيع؛ أفضل مني على هذا الصعيد.

كان البيت جوهرة بسيطة صغيرة، مع شرفة خلفية مطلة على النهر والغابة. قال: «ألا تستطيعين أن تتصورينا، مجرد تصور، ونحن نكبر معًا جالسين على كرسيين هزازين مستمتعين بالنظر إلى النهر والغابة الجميلين؟».

عشقت البيت، لكنه لم يكن كافيًا للزواج، انتقل بل إليه، وحين غزت فئران الحقول مطبخه، كان يطعمها نتف الخبز.

2013 11 30

بالرغم من إقدام بل على شراء البيت الجديد، فإن الصراع بين عقلي وقلبي استمر؛ كنت أحب بل بشغف، إلا أن طموح عمري المتمثل بفعل بعض الخير في العالم بقي ثابتًا، لم أكن أعرف حجم الخير الذي كنت أستطيع فعله في آركنسو، وكنت عاجزة عن امتلاك الجرأة اللازمة للإقدام على القفزة.

أسعفتني الظروف؛ فضيحة ووترغيت النكسونية كانت موشكة على الانفجار، ربما يؤدي إلى تقويض قدرة الحزب على الاهتداء إلى أي مرشح جمهوري مؤهل للفوز في انتخاب نيابي بمقاطعة بل، فراح يفكر بالترشح للمنصب شخصيًّا. إذا كان نكسون سيُحقق معه من قبل لجنة المجلس القضائية، وسيتهم من قبل الكونغرس، وسيحاكم من قبل مجلس الشيوخ، فإن العملية كان من شأنها أن تستغرق مدة سنة على الأقل، وبما أن شهرتي بوصفي محامية كانت محلقة، فقد عُرض عليَّ عمل في فريق محققي الاتهام.

كان من شأن عملي أن يتمثل بمعاينة المعلومات الإجرائية ذات العلاقة بعمليات اتهام سابقة، مهمة كنت سأبدع فيها بفضل مهاراتي التنظيمية، وبعد ذلك يمكننا – بل وأنا – أن نشكل زوجي واشنطن القويين الفتيين الجديدين. أعجبتني الفكرة، وقررنا الانخراط في الأمر ورؤية ما يحصل.

ذات يوم بعد نحو شهرين من عرضه الأول للزواج، حدقت في عينيه الجميلتين وقلت: لا أستطيع العيش بعيدًا عن هذا الرجل، وهكذا فقد أقدمت – أخيرًا مثل ملايين النساء من قبلي – على الزواج حبًّا، قررت اتباع المسار التقليدي لجيل أمي والسير خلف رجُلي؛ قررت أن أكون شريكته، ومديرته، ومستشارته الناصحة، قررت أن أسمع كلام قلبي.

رفضت أي خاتم خطبة وخططت لاحتفال بيتي بسيط في فاييتفيل، بلا أي طنطنة؛ لم تُرسل أي بطاقات دعوة إلى حفل زفاف، تقرر أن يكون الزفاف في الحادي عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1975م، في غرفة معيشة في بيت صغير أنيق كان بل قد اشتراه، عشية زفافي سألتني أمي عن الثوب الذي كنت أخطط لارتدائه، أجبتها: ثوب! أي ثوب؟ ما كنت سأرتديه، لم يكن مهمًّا بنظري.

ما كان يهم تمثل بواقع كوننا – بل وأنا – عازمين أخيرًا على الزواج. ذُهلتْ أمي رعبًا وجرتني بسرعة إلى محلات ديلارد، المحلات الوحيدة التي تبيع أثواب الزفاف. اقتربت من أحد الرفوف وسحبت الثوب الأول الذي وقعت عيني عليه، طراز جسيكا كلينتوك من العصر الفكتوري. ودون ارتدائه للتجربة، قلت: هذا مناسب؛ ارتديته في المناسبة. لم أسمع أي شكاوى.

2013 12 02

بدأت هيلاري كلامها: في عمره الربيعي البالغ اثنين وثلاثين عامًا انتخب بل حاكمًا لآركنسو، وكان الحاكم الأصغر سنًا في تاريخ الولاية. درج المواطنون على تقديسنا لإضفائنا الجمال والشباب على دارة الحاكم، الأمر الذي كنت أعشقه بطبيعة الحال، إلا أن أبويَّ لم يكونا سعيدين بزواجي، وبالمحيط الجديد. كانا يفضلان زواجي من طبيب أو محامٍ غني.

أضافت هيلاري: أمه هي الأخرى لم تكن سعيدة باتحادنا، ولم تكن تتردد في التعبير عن امتعاضها، كانت إما تشكو مني أو تعاملني كما لو كنت متطفلة. في إحدى زياراتنا، قال لها بل: اسمعي ماما، لست بحاجة إلى الزواج من ملكة جمال، أنا سياسي، أخدم الجمهور، وبحاجة إلى زوج مثل هيلاري راغبة في العمل معي يدًا بيد؛ أتمنى أن تعامليها بشيء من الدفء والاحترام. من الأفضل لك أنها هيلاري؛ لأنها ستكون إما هيلاري أو لا أحد على الإطلاق.

تمثل كل ما قالته فيرجينيا بـ : يطيب لي أن أجلسها على حافة حوض الحمام وألقنها بضعة دروس حول فن التبرج، لها وجه مقبول، غير أن المرء لن يعرفه حتى ينظر إليها. مثيرًا امتناني الأبدي رد عليها بل قائلًا: هي جميلة بنظري أنا! متمتعة هي بأجمل عينين وبأكبر قلب. ديانا هو اسمها الأوسط.

كلمـة تعنـي منبع فرح وحب. وهذا الاسـم ينطبق عليها مئـة بالمئة. أقله ذلك هو الشكل الذي أخذه الحديث كما أفاد.

لم أهتم بأخذ دروس التبرج من فيرجينيا في حوض الحمام أو في أي مكان آخـر. كنـت عازمة علـى تغيير العالم، لا على أن أصبح (فتـاة وجه) تبدد الوقت على مظهرها.

لم يكـن أبـي أكثر سـعادة ببل ممـا كانت فيرجينيـا بي أنا. حـين اصطحبته للقاء أبوي للمرة الأولى في منتجعنا على شاطئ بحيرة وينولا، جعل أبي صديقي الملتحي ذا الشـعر الطويل ينام على الشـرفة. ربما توجس مـن أن يكون مقملًا. غـير أن سـحر بل ما لبث أن فـاز بأبي، كما بالآخرين جميعًـا، خلافًا لفيرجينيا التي لم توافق قط على من اختارها ابنها زوجًا.

حفـل الزفاف نفسـه، مثل ثوبي الزفافي، رُتب علـى عجل. كان حفلًا وجيزًا، لم تكن في البيت أي عين دامعة؛ لأن المناسبة كانت قريبة من أي مناسبة بسيطة غير ممسـرحة بمقدار ما اسـتطعت. لم يكن أحد من الحاضرين سعيدًا سوانا: بـل وأنا، ولسـت واثقة تمامًا بالنسـبة إلي أنـا. جاءت الذروة لاحقًـا حين أعلنت اعتزامـي عـدم التكني باسـم زوجـي الأخـير. أطلقت فيرجينيـا صرخة تعجب، قائلة: لم يسبق لي أن سمعت مثل هذه المسخرة! ثم راحت تبكي.

سـألت هيـلاري: لمـاذا أردت أن يكـون حفـل زفافـك علـى هـذه الدرجة من البسـاطة؟ تقديـري هـو أننـي كنـت لاأزال مـترددة بشـأن الـزواج، وظننـت أن الصحـف لـن تضـج بالأمر إذا بقي غير جديـر بالوصف، بما كان من شـأنه أن يمكننـي لاحقًـا مـن نفض اليد من الـزواج بقـدر أكبر مـن السـهولة إذا أردت. لم أكـن بحاجـة إلـى التفكـير بالموضـوع، بالرغـم من هواجـس أبـوي وامتعاض فيرجينيا، مضى على زواجنا ثمانية وثلاثون عامًا ومازلنا نزداد قوة.

صارحيني يا هيلاري، لو تعين عليك أن تعيدي الكرة، هل تقدمين على اتخاذ القرار نفسه؟

ردت من دون إضاعة نبضة واحدة: في دقيقة واحدة!

قبيل زواجي من بل في 1975م، حاولت الالتحاق بالمارينز، ربما لإطلاق تصريح سياسي. رُفض طلبي بحجة كبر سني، وضعف رؤيتي، وكوني امرأة، كان انزعاجي شبيهًا بانزعاجي حين رفضت وكالة الفضاء ناسا (NASA) طلبي الطفولي كي أكون رائدة فضاء، من ذا الذي سبق له أن قال: كلما تغيرت الأشياء أكثر، بقيت على حالها أكثر؟

استشرت موقع غوغل، واكتشفت أنه كان جان بابتيست ألفونس كار

2013 12 03

بدأت هيلاري تقول: أقدر أن علي أن أحدثك قليلًا عن السنوات الآركنسوية.

بكل تأكيد، إذا كانت تلك هي ما تريدين أنتِ الكلام عنها.

أنا من النوع الملزِم كما تعلمين؛ لا أريد إهمال أي شيء ذي أهمية.

أومأت موحية بأني أفضل أن تتكلم عفويًّا، غير أن تلك ليست طريقة هيلاري كلنتون.

قالت: السنة الأولى من تولي بل لمنصب الحاكم كانت حقبة خاصة من حياتينا؛ كانت قد وظفتني ثانية أكبر المؤسسات الحقوقية الآركنسوية المعروفة باسم روز، ناش، وليمسون، كارول، كلاي، وجيروار، ومكنتني من أن أكون شريكة وأنا لم أتجاوز الثانية والثلاثين من العمر بعد. كان ذلك انتصارًا لافتًا بالنسبة إلى امرأة، ولاسيما بهذه السن الصغيرة؛ لأن المؤسسة كانت معروفة بكونها قوة تعاونية وذات ارتباط بالمال القديم. كان فينس فوستر، أحد أصدقاء بل، قد جندني. أصبحنا صديقين عزيزين، مع أن صداقتنا، ربما تعلمين، كانت ستتمخض لاحقًا عن إحدى مآسي حياتي الكبرى، غير أن ذلك سأحدثك عنه في وقت آخر.

فكرت: بالطبع سوف تحدثينني عن ذلك في موقعه التاريخي المناسب.

على وجاهته، لم أكن أرى منصبي في مؤسسة روز الحقوقية إلا وظيفتي النهارية، كنت أعمل في المؤسسة لحاجتنا إلى المال في المقام الأول – كان راتب حاكم آركنسو ضئيلًا. في سائر الأوقات السابقة لانتخاب بل رئيسًا للجمهورية، كنت أنا معيلة العائلة، كاسبة رزق الأسرة. إلا أن قلبي كان متركزًا على برنامجي الخاص الذي تمثل– كما على الدوام– بتحسين حياة النساء، والأطفال، والمبتلين بالفقر. كنت استثنائية الاهتمام بمعاناة الأطفال المهملين والمتعرضين لسوء المعاملة. كنت أرى ترابطًا بين سوء المعاملة التي عانتها أمي وهي طفلة من ناحية والأمور المخيفة التي كان بعض الآباء والأمهات يمارسونها مع صغارهم من ناحية ثانية، أردت أن أكون صوت أطفال أمريكا، وبمساعدتهم كنت أحاول– رمزيًّا–، تصويب طفولة أمي الرهيبة.

تأثرت برؤيا هيلاري، وفكرت: مفاجأة! وصلنا إلى مكان معين بالفعل!

تابعت هيلاري: أقمت عيادة إسعاف حقوقي في الجامعة التي كنا بل وأنا ندرس فيها، وكنت أعود جوًّا إلى واشنطن كل بضعة أسابيع لحضور اجتماعات مجلس صندوق مساعدة الأطفال، كذلك كسبت مبالغ كبيرة في سوق السندات والأسهم، مقامرة بألف دولار في الرهانات الخطرة على سوق الأبقار المستقبلية التي أكسبتني بسهولة مبلغ عشرة آلاف دولار مع حلول نهاية العام. من المؤسف أن الصفقة كانت ستعود لتصفعني لاحقًا، رغم أني لم أقترف أي خطأ.

يجب أن تكون نظراتي قد أوحت لهيلاري بشيء من الشك لأنها اعترضت قائلة: ربما قرأت عن الموضوع يا دكتورة، ولكنني أقسم لك بأنني كنت مستقيمة مئة بالمئة، ولا يعدو الأمر كونه مسألة حظ مؤات.

أومأت. ومن أكون كي لا أصدقها؟ بمقدار ما أعرف كانت بالغة الاستقامة معي إلى الآن.

مشـروعي المدلل وأنا سـيدة آركنسو الأولى كان إصلاح التعليم، الذي أصبح الإنجـاز المزين بتوقيـع الحـاكمية الكلنتونيـة. فيما كنت أدرِّس القانون بجامعة الولايـة، سـاءني المسـتوى التعليمـي المتدني لأهـل آركنسـو؛ كان الطلاب بحاجة إلـى مـا هو أفضل بكثير ممـا كانوا يحصلون عليه إذا كانوا سـيتمكنون من بناء أي حيـاة محترمـة لأنفسـهم. طالبـت بإصـرار أن يحصلوا على تشـكيلة أوسـع مـن الموضوعـات، على فرص أرحـب للاطلاع على الفنون والعلـوم، وعلى أعداد أكـبر بكثـير من المنح الداخلية. توصياتي جميعها بلا اسـتثناء جرى تبنيها آخر المطـاف، ثم أطلقت برنامجًا صيفيًّا للموهوبين في السـنة الثانوية الأولى، صُمم علـى غـرار برنامـج جامعة الحيـاة التي كنت قـد التقيت فيها مارتـن لوثر كنغ، الابـن، وأسـهمت في تمكينـي مـن تشـكيل أهـدافي الحياتيـة. أعـداد مـن أولئك الطـلاب يتصلـون بي منـذ ذلك التاريخ معبرين عن الشـكر كما عـن مدى تأثر حياتهـم نحو الأفضل بتلك البرامج، فيشـعرني ذلـك بالارتياح، أتذكر أنه خطر لي أنني قد كسبت مكانًا لي على كوكب الأرض، وإن لم أنجز أي شيء آخر.

أشرقت هيلاري. أنا أيضًا ابتسمت وهنأتها.

تابعت هيلاري: أيضًا عينني بل رئيسـة للجنة الرعاية الصحية الاستشـارية التي شكلها، كان قد اصطدم بمشكلات في مدته الأولى حين عين مسؤولًا صحيًّا مـن خارج الولاية اقترح تمكين ممارسـي التمريض وممارسـاته من الاضطلاع بمسـؤوليات الأطبـاء في المناطـق المفتقـرة إلـى الأعـداد الكافيـة مـن الأطبـاء. الجمعية الطبية في الولاية أثارت ضجة صاخبة حين علمت أن أرباحها الدسـمة مـن المسـاعدة الصحيـة سـيتم التهامها من قبل ممارسـين عاديـين. عينني بل لحـل مشـكلة توفير الرعاية الصحية لأفقر النواحـي في الولاية من دون أخذ أي بنـس من جيوب الأطباء. وظفت علاقاتي الواشـنطنية – حك لي، أحك لك! – للحصول على أموال اتحادية لدعم الرعاية الصحية الريفية في آركنسـو. نجح المشـروع. تم افتتـاح أربع عيادات ريفية مباشـرة، انطلقت أعمال البناء لإنشـاء ثلاث أخرى، وسُمح للقابلات والممرضات والممرضين الممارسين بالعمل.

عندما أشعر بأي كآبة، أتذكر الأشياء الجيدة التي كنت قادرة على القيام بها خدمة لأهل آركنسو، فأنتعش.

قلت: معك الحق كله أن تكوني فخورة بنفسك. يبدو أنك أسهمت كثيرًا وأنت في سن مبكرة.

نظرة فرح أضاءت وجهها. حتى السيدة الأولى، أي سيدة أولى، بحاجة إلى نوع من الإطراء بين وقت وآخر. قالت: بدأت أشتهر بوصفي مصلحة اجتماعية على النطاق القومي. ثم استأنفت بعد لحظة استساغة للمديح: سمع الرئيس جيمي كارتر عني وعينني عضوًا في هيئة الخدمات الحقوقية المستقلة، تلك الهيئة المؤلفة من محامين فاعلين سياسيًّا والمكلفة بتوزيع الأموال على البرامج القائمة على توفير المساعدة الحقوقية للفقراء. سرعان ما انتخبت رئيسة لمجلس الهيئة. شيء يفضي إلى آخر، إذا جاز استخدام الصيغة المبتذلة، وتعييني للتعامل مع الاتهام الفضائحي لرئيسنا ريتشارد نكسون، جاء على الطريق. لن أغوص في الأمر بعمق، سأكتفي بقول إنني كنت أمقته في ذلك الوقت. كنت أرى أنه إنسان شرير ولم أكن أشك بوجوب توجيه الاتهام إليه. سيبقى منبع سعادة لي أنني كنت ناجحة في المساهمة على ذلك الصعيد.

لم أصرح، غير أنني كنت سعيدة بسماع ذلك. إضافة إلى كوني محللة سيكولوجية، أنا إنسان يتصادف أيضًا أنه يحتقر نكسون ويستطيع يقينًا أن يعذر على رد فعلي المفرط في إنسانيته.

2013 12 04

أخبرتني هيلاري أن بل قدم في أيامه الأولى حاكمًا لآركنسو اقتراحات متواضعة لإصلاح التعليم والتحكم في التلوث، إلا أن مبادرته الكبرى (شق وتحسين شبكة طرق سريعة) كانت – للأسف – باهظة التكاليف، وشديدة التأثير السلبي في شعبية بل بين سائقي الشاحنات، أصحاب شركات الأخشاب، وسائقي الحدائق المتنوعة، وغيرهم؛ لأنه اضطر – كي يتمكن من تسديد التكاليف – إلى رفع رسوم إجازات السوق، والاستياء من ذلك كلفه الانتخاب الموالي ثمنًا.

اعترضه أيضًا خلال تلك الحقبة عدد من أحداث سوء الطالع الخالص، بما في ذلك أحداث شغب في صفوف مهاجرين كوبيين محجوزين مؤقتًا من قبل الحكومة الاتحادية في فورت تشافي، آركنسو. ولسوء حظنا، اقترع الناخبون لصالح فرانك وايت، وهو تنفيذي مدخرات وقروض جمهوري غير معروف سياسيًّا لم يكن يرقى إلى مستوى خنصر قدم بل. وهكذا فإن زوجي أصبح الحاكم السابق الأصغر سنًّا في تاريخ أمريكا.

العامان الفاصلان بين مدتي حاكمية بل كانا من أكثر الأوقات بؤسًا في حياتنا، وحين يكون بل بائسًا فإن الجميع بائسون، ولاسيما أنا. وأكبر الأطفال

في حياتي ليست تشلسي. فهو – أي بل – يئن ويعن ويندب حتى أصبح عاجزة عن البقاء قريبة منه. تلك هي المدة التي أصبت فيها أنا أيضًا بالاكتئاب وقررت الانسحاب من حياته السياسية لبعض الوقت. انسحبت فعلًا، أمضيت أوقاتًا طويلة وأنا أقرأ في السرير، ناشطة في الواي دبليو سي إيه (YWCA)، ومنفجرة غضبًا في وجه كل من يزعجني، كل من كان حولي بالفعل. لم تري بعد يا دكتورة، كيف أكون حين أصاب بالجنون، إذ تصبح توبيخاتي لاسعة، يعجز من هم حولي عن التغلب عليه.

سألتها: هل هذا إنذار؟ إذا كان كذلك، فأنت لا تخيفينني.

ابتسمتْ واستأنفتْ الكلام: لأكون صادقة معك أقول: إن واقع رفضي تغيير اسمي إلى كلنتون أزعج كثيرين من أهل آركنسو، وكان مسؤولًا جزئيًّا عن عدم إعادة انتخاب بل. مازلت عاجزة عن فهم سبب قيامهم بترجمة انزعاجهم مني على هذا النحو، إلا أنني قررت بالرغم من مقتي الشديد للانحناء أمام تحاملهم المجحف، أنه من الأفضل قلب اسمي إلى كلنتون عندما ترشح بل ثانية؛ لأنني أيقنت أنه كان سيفعل. مشكلة أخرى استفزَّت الآركنسويين تمثلت بأسلوبي في الملبس.

نظرت إليها باستغراب وقلت: تبدين جذابة بنظري، يا هيلاري!

أجابت: شكرًا! ولكنك لم تريني في ذلك الوقت. شعر طويل سائب، بلا أي تبرج أو زينة، نظارات سميكة مرعبة، سروال جينز عتيق، وسترة صيادي سمك فضفاضة. في إحدى المرات، إبان أيامه بل الأولى حاكمًا، ذهبت بهذا الزي إلى حفلة راقصة، حيث كانت سائر النساء الأخريات متأنقات ومتبرجات إلى الحدود القصوى. ما هذا المظهر القذر؟! سمعت بعضهم يقول: هل يمكنك أن تتصور أن ذلك المخلوق العجيب هي زوج حاكم الولاية؟ ولكن، هل يمكنك

أن تتصوري امتناعًا عن التصويت لرجل لأن زوجه لا تتبرج أو ترتدي ملابس مختلفة؟ ما هذا الدرك الذي يمكن للناس أن ينحدروا إليه؟

لماذا كنت تختارين تلك الملابس؟ من المؤكد أن أي امرأة ذكية مثلك كانت قادرة على اختيار الزي المناسب.

لا علاقة للأمر بالذكاء؛ عليك أن تعرفي ذلك يا دكتورة، كما قلت لك، لم أكن أريد أن أصبح (فتاة وجه) تبدد وقتها على مظهرها، اسمي الأخير كان يعلن أنني مازلت أنا نفسي. فيما كانت الأخريات عاكفات على تغيير مظاهرهن، كنت أنا راغبة في تغيير العالم؛ ذلك هو ما دفعني إلى الإصرار طوعًا على ارتداء ملابس شبه خنافسية، شبه هبية؛ أنا هي أنا، وإذا لم يكن الناس مستعدين لقبولي كما أنا، فأنا لست بحاجة إليهم. رمقتني بنظرة قادرة على القتل، نظرة قالت بوضوح: بمن فيهم أنتِ!

أدركت بسرعة أنني أقبلها، بالتأكيد كما كانت، واستأنفت جلستها: سرعان ما اكتشفت أنني كنت قد أصبحت - بنظر المستائين من إدارة كلنتون في آركنسو - مانعة صواعق. حين قيل لي: أنت قذى عين قد تتسببين في خسارة بل للانتخاب، قررت عدم تحميل وجداني ذلك، وعالجت الأمر، بحثت عن الأزياء الحديثة في المكتبة، كما كنت أفعل بالنسبة إلى الأمور ذات العلاقة بالمحاماة، على الرغم من كرهي للاعتراف فأنا أستمتع بأن أبدو لطيفة. قالت بشيء من الخجل.

في أعماقي شعرت بأنني كنت قد أسهمت في هزيمة بل، وظللنا نهجو بعضنا باستمرار، ظل يحملني مسؤولية برنامجه غير المركز، زيادات الرسوم والأجور، والامتثال لضغط الرئيس كارتر من أجل حشر المهاجرين الكوبيين في باحتنا الخلفية.

كان بل نازفًا جراء خسارته، لا جدوى من التساؤل عن أينا كان أكثر تعرضًا للقهر والسحق، هو أم أنا؟ ظل الإعلام دائبًا على جرنا إلى أتون الرأي العام، وكان بل يرفض عروض المقابلات الصحفية، صرت قلقة خشية أن يخسر، ظل يمشي في أروقة السوبرماركتات ذهابًا وإيابًا، سائلًا الزبائن عما كان قد اقترفه من أخطاء، وعاكفًا على قراءة كل ما يستطيع الحصول عليه بحثًا عن جواب.

على الرغم من تعرضه لما هو قريب من الدمار جراء هزيمته، ما لبث بل أن تماسك والتحق بالعمل لدى مؤسسة حقوقية (ليتل روكية)، حيث صار يمضي معظم وقته مواصلًا الدعاية لإعادة الانتخاب، وبنوع من الولدنة راح يعترف بأخطائه كما لو كانت متعذرة على من عداه، حتى عشقه الناخبون من جديد. وهل يستطيع أحد أن يقاوم بل كلنتون إذا ما وظَّف كل ما لديه من سحر؟ اسألينى أنا. أعرفه جيدًا! استخدم الإعلانات التلفازية ببراعة فائقة لإقناع الناس بضرورة منحه فرصة أخرى، أطلق وعودًا بقفزات كبرى في التعليم وتجنب الكلام عن احتمال زيادته الضرائب.

نجحت الخطة؛ لم يكتفِ بالفوز في 1982م، بل وفاز ثانية في 1984م، ولفترتي أربع سنوات في عامي 1986م و 1990م. وفَّى بوعوده قدر استطاعته، وقدم خدمات كثيرة للولاية. إبان ولاية بل، أقدم مجلس التعليم الآركنسوي على اعتماد معايير إجازة جديدة صارمة.

ومع الوصول إلى هذا المنعطف، بات الناس ينظرون إلينا – كلينا – كما لو كنا صفقة رزمة واحدة. وَعْدُنا بتحسين حياة الآركنسويين أسهم كثيرًا في حصول سلسلة عمليات إعادة الانتخاب، دفع بقوة باتجاه إصلاح تعليمي. وتمثلت كبرى مهماتي زوجًا للحاكم برئاسة بعض لجانه الدراسية الأهم، لقد كانت مهمة عشقتها. أحد مقترحاته المهمة أن دعا إلى إجراء مسابقات كفاءة للمعلمين، خطة نجحت في استثارة موجة غضب قومية. إصلاحاتنا التعليمية الكاسحة غيرت مدارس آركنسو إلى الأبد، ما أفضى إلى تقلص في معدلات

التسرب وتزايد في درجات اختبارات الالتحاق بكليات الجامعات. سأبقى فخورة دائمًا بأنني أسهمت في رفع المستوى التعليمي لأهالي آركنسو.

أسهمت أيضًا في وضع خطة لإعادة النظر في أوضاع مرشحي جهاز العاملين لدى بل. بقدر ملحوظ من السرعة بات مستحيلًا حتى على أفراد الجهاز معرفة أي منا كان صاحب الفكرة، كانت حقبة شعار (اثنان بواحد) قد بدأت.

إلا أن ذلك ليس هو كل ما أنجزناه حين كان بل حاكمًا للولاية، فإصلاحاتنا دفعت المستفيدين إلى الالتحاق بقوة نحو العمل بعد عامين اثنين، بدلًا من تركهم عالة دائمة بحاجة مستمرة إلى المساعدات الخيرية. يؤمن بل بشعار (اليد العليا...)، ويعارض حمل راشدين سليمي الأجسام على أكتافنا أبدًا؛ إنه رجل صادق البراءة من أي أثر للتحامل العنصري وليس ممن يكثرون الخدمات اللفظية الفارغة لكسب الأصوات الانتخابية.

بدعم مني بالطبع، عزَّز بل التحرك الإيجابي؛ عيَّن المزيد من الأمريكيين الأفارقة أعضاء في اللجان، في مجالس الولاية، وفي مناصب توكيلية ذات شأن؛ وكان عدد هؤلاء أكثر ممن عينهم من سبقوه جميعهم مجتمعين. إن بل رجل غزير الإبداع؛ استحدث أسلوب حكم شعبه بحملة انتخابية دائمة؛ أيد برامج تشريعية قائمة على استطلاعات الرأي العام، ثم أقام صرح الدعم لخططنا عبر حملات تنزيلات كانت توظف سائر العلاقات العامة المتوافرة للضغط على مشرعي الولاية.

فخورة أنا بما أنجزناه – زوجي وأنا – للآركنسويين؛ هدفي في هذه الحياة هو تحسين حياة البشر. وهكذا فإنني أستطيع أن أقول من دون أي تردد إن كوني سيدة آركنسو الأولى ساعدني على متابعة السير من أجل بلوغ هدف عمري.

حتى في أفضل حالاتها لم تكن حياتي رائعة كلها (علقت هيلاري) على امتداد مدته الأولى في الحاكمية، كانت الشائعات تصلني عن تبطل بل مع من

أميل إلى تسميتهن بائعات هوى فاسقات. كان يعشق الفلتان والبقاء خارج ساحة رؤيتي، حيث يستطيع أن يلهو كما يشاء، وما أكثر ما فعل! فالنساء كن ينجذبن إليه كما تنجذب أسراب الذباب إلى الشرائط الورقية المحلاة اللاصقة.

سرعان ما غدوت ليس فقط مسكونة بالشك حول كل من حركاته وحسب، بل وشديدة الغضب من سلوكه؛ ومع أنني كنت قد عرفت ما كنت موشكة على التورط فيه حين وافقت على الاقتران به، فإن كل علاقة مع امرأة جديدة كانت تجرحني جرحًا يوازي الجرح الذي شعرت به مع أولى قصصه؛ أدمنت العيش في مهانة هادئة؛ عشقت هذا الرجل – الطفل، وصممت على العيش معه مهما كان الثمن. علاوة على ذلك، كان ثمة نوع من الأمل –على الدوام– في احتمال استقراره وإدراكه لحقيقة أنه لم يكن يحب سواي... وهذه حقيقة.

مع انتهاء الساعة تقاطعت نظراتنا وهي تنهض واقفة لتغادر. رأت نظرة الإعجاب والاحترام في عيني وردت عليهما بالمثل، حدقت كل منا بالأخرى للحظة طويلة قبل مبادرتها إلى تدوير قبضة الباب.

فكرت: كم أنا محللة نفسية محظوظة! لا أُحلِّل شخصية سيدة الولايات المتحدة الأولى السابقة وحسب، بل وهي تتجاوب معي تجاوبًا جيدًا. تلك الليلة، أقفلت باب المكتب ومشيت إلى البيت راسمة ابتسامة عريضة على وجهي.

2013 12 05

بدأت هيلاري: بعد انتخاب 1980م، أدركت أولًا مدى ضعف زوجي؛ اكتشفت أن هذا الرجل الوسيم، الرجولي، اللامع لم يكن إلا ولدًا صغيرًا في العمق لايزال يبكي ملتمسًا أمه. هل توافقين يا دكتورة؟

مئة بالمئة؛ يتحدث يونغ عن أنموذج الولد الأبدي، الملتصق بمرحلة مراهقة من التطور وشديد الاعتماد على أمه. هؤلاء الرجال يغوون الجميع؛، نساء ورجالًا، ما من أحد إلا ويعشقهم، وإلا فإنهم لا يستطيعون أن يحبوا أنفسهم. وهذا الشباب الأبدي كثيرًا ما يجلب أزمات مهلكة يلوذ فيها الرجل بامرأة قوية لتنقذه.

علقت هيلاري: يبدو كما لو أن يونغ كان يعرف بل، وبل نفسه يقول إنه ولد في السادسة عشرة، وسيظل دائمًا يشعر بأنه في هذه السن.

وكم عمرك أنتِ بنظره؟

يقول إنني وُلدت في الأربعين من العمر، وذلك هو العمر الذي سأكون فيه دائمًا.

ضحكنا كلانا.

صارت جدية، وقالت: أنت الدكتورة، قولي لي ما العمل مع زوجي ابن السنوات الست عشرة؟

ليتني كنت أعرف يا هيلاري! لا أستطيع إلا أن أنصح بتشجيعه على الشروع في التحليل النفسي؛ من شأن ذلك أن يفيد، غير أن أي ضمانات غير متوافرة بالنسبة إلى رجل مثل بل، رجل بمثل هذا النجاح في الحياة رغم نقاط ضعفه.

تحليل نفسي يا دكتورة؟ لا بد أنك تمزحين؛ سعيدة أنا إذا استطعت جعله ينظف أسنانه بالفرشاة. وتنهدتْ: أعرف أنه كان علي أن أعلمه القتال، وإذا أخفقت أنا في ذلك فلا أحد يستطيع؛ هو بلا حدود وشديد النزوع إلى الخطأ؛ أي خطأ، أي انحراف. إنه مفرط في المثالية، مفتقر إلى ضبط النفس والصلابة، كي أكون لطيفة. قد يكون طموحًا، ولكنه مطروح على القفا. لولا إمساكي بزمام الأمر لما استطاع مطلقًا اجتراح الفريق اللازم لحملة انتخابه حاكمًا للولاية. هو بحاجة إلى مدير صلب كالمسمار الفولاذي. لست بحاجة إلى أن أقول لك يا دكتورة إنني صلبة حيث يكون هو لينًا، ذلك هو ما مكنني في 1981م من أن أصبح سائقة المقعد الخلفي لمشروعينا السياسيين المشتركين.

شيئًا فشيئًا، بوصة بعد بوصة، رحت أعيد بناء شخصية بل السياسية المطحونة من جديد، وكي أفعل ذلك تعين علي أن أتساءل أولًا ما إذا كنت مستعدة لإزاحة شخصيتي أنا جانبًا مؤقتًا، كان الجواب بالإيجاب: نعم؛ كان ثمة فوائد معينة للتصرف على هذا النحو، أعرف دائمًا أنني قائدة سياسية، إلا أنني كنت لا أزال ملدوغة بالهجمات الشريرة التي شنها عليَّ حشد من السياسيين والصحفيين، ولم أكن أنا حتى المرشحة للانتخاب! استطعت عيش بديل الجزء القيادي لهويتي من دون تعريض نفسي لقذائف السياسيين القذرين وسهامهم. فكرت: ليتلقَ بل السهام الموجهة ضده هو، تغييرًا، وليتح لي فرصة استعادة احترام الذات في سلام!

في السابع والعشرين من شهر شباط فبراير 1982م، وقفت بجانب زوجي وهو يعلن ترشحه لانتخاب حاكم الولاية في 1982م. بعد أن قررت أن أي شيء لن يحول دون اضطلاعي بدور الطيف النذير لبل، غدوت امرأة أخرى؛ أنا الآن السيدة بل كلنتون، كان تغييرًا محسوبًا؛ جعلت شعري أكثر تفتيحًا، استبدلت نظاراتي السميكة بعدسات لاصقة، وارتديت ثوبًا حريريًّا ملائمًا حاولت أن أبدو فيه عارضة أزياء لوقف تعليقات الناخبين السلبية على مظهري. غيرت نمطي إلى غير رجعة.

حين سأل أحد الصحفيين بل عن سبب تغييري لاسمي، تخلى عن المنبر، ودعاني إلى الكلام عن نفسي. قلت للجمهور إنني لم أكن ملزمة بتغيير اسمي. مازلت أستعمل اسمي قبل الزواج في عملي الحقوقي محامية، ولكنني بسبب أخذي إجازة من المؤسسة الحقوقية وانخراطي بالمساعدة في حملة بل، رأيت أن استخدام اسمه سيكون مناسبًا.

سألتها: وهل سبق لك أن ندمت على تغيير اسمك؟

ترددت لحظة ثم قالت: إعادة بل إلى المنصب واستئناف العمل لخدمة التعليم والرعاية الصحية كانا أهم بالنسبة إليَّ من المحافظة على اسمي قبل الزواج. كانت صفقة. أتكنى باسمه مقابل وعده بإيصالي إلى البيت الأبيض حيث أتولى مهام رئيسة جمهورية-شريكة. اغرورقت عيناها بالدمع. إلا أن من واجبي أن أعترف بأنني أفكر: السيدة من؟ أحيانًا حين أسمع اسم السيدة بل كلنتون. يراودني قدر من الشوق والحنين الماضوي إلى هيلاري رودهام، غير أني أظن أنها تنتظر بصبر في أعماقي، ويمكنني دائمًا أن (أخرجها من غمدها) عند الضرورة، كطلبي للطلاق في أي وقت.

هل سبق لك أن فكرت بالطلاق من بل؟ لو فعلت لما لامك أحد.

نعـم، فكرت مرات كثيرة؛ حين أشـعر بالمهانة جراء انحرافات بل، يسـعفني أن أفكـر أننــي قـادرة دومًا علـى فرض الطلاق عليه، من شـأن ذلك أن يخدمه. مشـاعري حـول الطـلاق وآثـاره علـى الأطفـال تبقـى- علـى أي حال- شـبيهة بمشـاعر أمـي. كانت تشـعر- وأنا أتفـق معها- أن من الضـروري وضع مصالح العائلة كلها فوق مصالح شخص واحد.

نهضـت هيـلاري لتغادر، ثم التفتـت وأضافت: عندئذ أيضًـا أتأكد من مدى عشـقي لـه، ومن أني بحاجة إليه بمقـدار ما هو بحاجة إلي، وأقسـم على تحمل مغامراته واستبعاد الموضوع مدة إضافية.

2013 12 06

بدأت تقول: أرغب في الحديث اليوم عن توازن القوة بين بل وبيني.

دفعتُ رأسي ونظرت باهتمام قائلة: بالتأكيد. صدقًا، كنت قد بدأت أشعر بشيء من السأم من قصة مغامرات عائلة كلنتون الآركنسوية، فرحبت بفكرة كشف هيلاري عن المزيد حول علاقتهما.

كان عام 1982م عام تدشين الوصاية الرودهامية، مع الاعتذار عن افتقاري إلى التواضع أقول إني توليت بالفعل إدارة الحكم في آركنسو، شاعرة بما يشبه شعور أي وصاية أوروبية حين يكون العاهل أصغر سنًّا من أن يحكم. لم يقدم بل على اتخاذ أي قرار سياسي رئيس بالمطلق من دون استشارتي؛ ألم نتفق آخر المطاف، بالإفادة من تحليل يونغ، على أن بل كان أنموذج ولد أبدي ملتصق بمرحلة مراهقة من التطور وكثيف الاعتماد على أمه؟ في هذه الحالة، كنت أنا هي الأم.

كنت أحضر اجتماعاته الإستراتيجية جميعها؛ كنت المعيلة الرئيسة، كاسبة الرزق، كنت أنوب عنه في التخيل؛ زوَّدته بالعديد من أفكاره الفضلى، أبقيته مستقيمًا وملتزمًا بالقدر الذي يمكن للمرء أن يزعم أنه بقي، نظَّفت ما خلفه

من وساخات، كان من شأنها بسهولة أن تبعده عن المنصب، كنت ضميرًا له، بدا كما لو كنت جاثمة على كتفه مثل جيمني كريكت، مبقية إياه على المسار الذي وعد به الناخبين.

مرات كثيرة كان يفضل الذهاب إلى البيت وقراءة كتاب أو مشاهدة مباراة كرة قدم، غير أنني كنت دائمًا متسلحة بقائمة من أمور بحاجة إلى معالجة، أحيانًا كان يحتج ويقول: «لماذا لا تستطيعين أن تكوني زوجًا صغيرة لطيفة تاركة إياي وحدي؟» غير أنه كان على الدوام يرضخ ويقوم بالعمل الذي فكرتُ أنَّ عليه أن يقوم به؛ لأن ذلك هو ما كان بحاجة إليه كي يصبح بل كلنتون، والأهم من كل شيء، أنني أعطيته طفلة مثالية، إلا أني سأكرس عددًا كبيرًا من الجلسات اللاحقة للكلام عن تشلسي، حب حياتي.

علي أن أعترف بأن بعضًا من تحكمي المطلق ببل قام على أساس إحساسه هو بالذنب حول غرامياته المفرطة؛ كان يدرك أنني قادرة على تركه في أي لحظة إذا تجاوز انزعاجي من غرامياته حدًّا معينًا، كان يعرف أنه عاجز عن الأداء بعيدًا عني، فراح يمنحني أي منصب أردته في إدارته لإبقائي راضية، كان ذلك نوعًا من الصفقة؛ احتفظ هو بنسائه، وتحكمت أنا في زمام علاقتنا، ليس ذلك هو الوضع المثالي بالنسبة إلى أي زواج سعيد، إلا أنه بدا نافذًا بالنسبة إلينا.

رمقتني بنظرة ملأى بالشك، وقالت بغضب: لست موافقة يا دكتورة! إنه منقوش بوضوح على وجهك. كنت شديدة التأثر السلبي لأن مشاعري انعكست بهذه الصراحة على وجهي، وحاولت إنقاذ الموقف قائلة: أنا لست هنا لأحاكمك، بل لمساعدتك على فهم ذاتك.

بدا ذلك مهدئًا كافيًا لتمكينها من مواصلة الكلام معي.

2013 12 07

بـدأت هيـلاري الكلام قائلـة: في المرة الســابقة أتيت على ذكر تـوازن القوة بيننا؛ بل وأنا، توازن صاعد نازل مثل المنشار، حصل النزول بعد انتصار بل في عـام 1986م الذي غيَّر العلاقة بيننا؛ كان المجلـس التشـريعي قـد أقر مدة أربع سنوات في المنصب بالنسبة إلى حكام الولايات القادمين، بما عنى أن بل لم يكن مؤهـلًا للترشـح مـن جديـد في 1990م. جرفته الحماسـة جرفًـا لا يليق بغير بل كلنتون، كان قد هزم منافسـه، وبات الآن في المنصب لمدة أربع سـنوات، حاصلًا علـى راتـب محـترم للمرة الأولـى، ومتصرفًا كمـا لو كان فرعـون مصر، لم يعد شـاعرًا بأنـه بحاجـة إلي لإنقاذه، وأوضح أنني لم أعـد مرحبًا بي في اجتماعاته الإستراتيجية، فتوقفت عن حضورها. تبخرت الطاقة التي كنت متمتعة بها إبان الوصاية الرودهامية.

غرقـت في بحـر مـن الكآبة. غـير أن بـل كان لايـزال بحاجة إلى مسـاعدتي الماليـة؛ ففـي عام 1991م، كنت أكسـب مبلـغ (175,000) دولار في السـنة من عملـي في المؤسسـة الحقوقيـة، مقابل مرتبه السـنوي البالـغ (35,000) دولار. حافظـت على كرامتـي الذاتية أيضًا بتولي رئاسـة صندوق الدفـاع عن الأطفال وعضوية مجالـس سلسـلة طويلة مـن المنظمات ذات العلاقـة بالعدالة والتعليم،

ومع أن معنوياتي كانت متدهورة لبعض الوقت، فقد كنت على يقين من أن ساعة بقاء بل- ذلك الذي أعرفه جيدًا بحاجة ماسة إلى مساعدتي من جديد- ستدق، إذا أتقنت فن الانتظار بصبر.

كان حصول ذلك أسرع مما توقعت؛ فبعد انتصاره في خريف عام 1986م، راح بل يفكر جديًّا بالترشح لرئاسة الجمهورية، كنت قد حلمت بأن أكون سيدة أولى منذ طفولتي، وعلى الرغم من سخطي على أسلوب تعامله معي، فإنني قررت أن أضع كل ما أملكه من وزن لترجيح كفة احتمال وصولنا إلى البيت الأبيض. جمدتني الدهشة حين قدمني صديقي القديم دون جونز إلى صفِّه الديني بوصفي سيدة الولايات المتحدة الأولى المقبلة؛ «لأن زوجها سيترشح لرئاسة الجمهورية قريبًا». كانت المرة الأولى التي يجري فيها تقديمي إلى الجمهور على هذا النحو، ما أدى إلى تكثيف رغبتي إلى الدرجة التي جعلتني أقرر العمل ليل نهار من أجل الوصول إلى هناك.

طرت إلى نيويورك لزيارة صديقي القديم في لجنة ووترغيت، بيرني نوسباوم، لمفاتحته حول الأمر، طلبت منه ألا يلتزم مع أي مرشح آخر لاحتمال ترشح بل، ضحك وقال إن بل أصغر سنًّا من أن يكون رئيسًا للجمهورية. ابتسمت بدراية وأجبته من يضحك أخيرًا، يضحك جيدًا. كان بل قد عقد مؤتمرًا صحفيًّا لإعلان اعتزامه الترشح للرئاسة. تم إعداد كل شيء لغداء خاص ظهر الخامس عشر من تموز/يوليو في صالة رقص فندق إكسلسيور. ولكن لكِ أن تتصوري زوجي! لن تستطيعي أبدًا أن تقدري ما يمكن أن يقدم عليه في الخطوة التالية.

كان المراسلون ينتظرون تأكيدًا لإعلان بل عن ترشحه، غير أن حساء الغداء برد فيما الجميع بانتظاره، أخيرًا اقتحم صالة الرقص وقال مكشرًا: «لن أكون مرشحًا!». صُدم الجميع؛ غمغم بأشياء عن الصراع بين عقله وقلبه، ما الذي كان يمكن أن يكون قد حصل كي يغير بل قراره في اللحظة الأخيرة بشأن أمر

طالما تاق إليه حياته كلها؟ لغز حقيقي بالنسبة إلى الجميع، ولاسيما بالنسبة إلي أنا.

تحدثت مع بتسي رايت في اليوم التالي؛ كانت كبيرة موظفي البيت الأبيض وشرحت لي المسألة، كانت قد وضعت قائمة شاملة لما يزيد على مئة امرأة ممن كانت له علاقة معهن، ثم ناقشنا حالة كل واحدة منهن وحاولنا معرفة أين تقيم الآن، وما مدى احتمال مبادرتها إلى الحديث العلني عن الأمر. حين انتهت الجلسة، قالت بتسي له إنه غير مؤهل بالمطلق لأن يترشح للرئاسة، وإن من شأنه أن يدمر نفسه إذا كُشف عن سجل علاقاته المشين خارج زواجنا. في البداية قاوم بل؛ احتج قائلًا إن المطلعين على مغامراته ليسوا كثيرين وإنه مصمم على متابعة خطته. صرخت بتسي في وجهه قائلة «إنه سيدمرني كما سيفسد علاقته بتشلسي إلى الأبد»، برأي بتسي ما لبث بل أن رضخ، ثم وعدها بنفض يده من خطط الترشح للرئاسة. ناقش الوضع مع صديقه كارل فاغنر الذي كان رأيه صدى لرأي بتسي على صعيد احتمال تعرض العائلة للانهيار.

من الواضح أن بتسي وكارل أقنعاه، خطا بل إلى المنصة وأعلن بأن من شأن الأمر أن يكون بالغ الصعوبة بالنسبة إلى تشلسي إذا كنا، هو وأنا، على الطريق لمدد طويلة من الزمن، على الرغم من أن الترشح للرئاسة كان حلمًا طالما راوده. عبر عن أسفه لإحباط الجميع، غير أنه كان ملزمًا بالوفاء لعائلته ولمسؤولياته.

صدمت، غضبت، انسحقت. انهمرت الدموع على وجنتيَّ أسرع من أن أتمكن من مسحها وتجفيفها. لم تكن بالفعل أي عيون بلا دموع في البيت، بما في ذلك عينا بل. في تلك الليلة ونحن نائمان متظاهرين؛ ظهرًا لظهر، أجهشنا كلانا بالبكاء الصاخب، مسكونين بالشك حول احتمال تحقق حلمنا الحياتي المشترك المتمثل بشغل البيت الأبيض.

2013 12 09

بعد أن نسف بل حلمنا المشترك، اعتقدنا كلانا بأنه لن يفوز بشيء، وبتنا بالغي الاكتئاب، شعرت كما لو كنت موشكة حتى على فقدان هويتي بوصفي سيدة آركنسو الأولى. لحسن الطالع لم يكن الجميع يرون ما كنت أراه. ذات يوم كنت أزور أحد المتاحف بواشنطن، وأنا أفكر بأن أحدًا لن يعرف من أكون إذا لم أكن أنا نفسي أعرف من أنا، وباستطاعتي أن أتلاشى بلا اسم غارقة في الأعمال الفنية، فجأة اقتربت مني سيدة وقالت: «تشبهين هيلاري كلنتون».

أجبتها: «ذلك هو ما يقال لي».

مسكونًا بالسأم والقلق، عاكفًا على تأمل حطام أحلامه الضائعة أدمن بل عمليًّا إهمال حاكميته. صار يلوذ بملذاته، ما أدى إلى جعل حماقاته الزوجية أكثر تكرارًا وافتضاحًا. حاولت تجاهل الشائعات متأكدة من كوني حبه الحقيقي، ومتصورة في اللحظات الأكثر صفاء أن كل شيء يخفف من بؤسه كان مسموحًا به في هذه المدة البائسة من حياتينا.

وأهم عشيقاته: جنيفر فلورز، طفت على السطح في هذه الأيام، ملتمسة الشهرة بادعاء امتلاك قصة غرامية طويلة مع حاكم ولاية. أُدرج اسمها في

قائمة عشيقات مرفقة بشكوى مرفوعة عام 1990م لإبعاد بل عن السباق الرئاسي. هبت بتسي رايت لنجدة بل وأجبرت فلوزر على الخروج من البلدة، رفضت بلباقة أن تكشف لنا عن الأسلوب الذي اعتمدته، غير أن معرفة أنه كان ناجحًا كانت كافية، على الرغم من أن اسم جنيفر فلورز لطخ سمعة بل لاحقًا ولسنوات عديدة قادمة.

رغم صعوبة تحمل علاقاته الغرامية، فإن ما هو أسوأ كان على الطريق؛ كنت على الدوام أعرف أن بل كان يحبني، وأن سلسلة محطاته التي لم تكن تدوم في الغالب سوى ليلة واحدة لم تكن ذات معنى عاطفي بالنسبة إليه، ثم ما لبث بل أن دخل في علاقة غرامية مختلفة عن سائر علاقاته الأخرى وسحق روحي: وقع بل في حب امرأة أخرى.

وكأنها أحست بحمى، رفعت هيلاري يدها إلى جبينها، نظرت إلى يدها وفوجئت إذ لم تجد أثرًا للعرق عليها.

هزت برأسها في يأس وتابعت: كانت مطلقة طويلة القامة، ناحلة، شقراء في نحو سني تدعى مارلين جو دنتون جنكنز، متمتعة بصوت جميل لامرأة من إحدى البلدات الجنوبية الصغيرة، رأيتها أولًا حاضرة في استقبالات بل وحملاته جميعها لجمع التبرعات، وتساءلت لبعض الوقت عما كانت تفعله في تلك المناسبات. لم يكن اكتشاف السبب صعبًا لمعرفتي بعادات بل، استطعت الحصول على سجل اتصالات بل الهاتفية، ووجدت عددًا لا يصدق من الاتصالات اليومية بالرقم غير المدون نفسه.

ما آلمني أكثر من كل شيء هو أنه في اليوم نفسه الذي أجرى فيه مكالمة وجيزة لمدة ثلاث دقائق معي، كان قد تحدث مع مارلين في الساعة الواحدة ظهرًا مدة أربع وتسعين دقيقة بالتمام والكمال! شكا لشرطي موثوق يدعى داني فيرجيسون من صعوبة أن يكون المرء عاشقًا اثنتين؛ ربما كان الأمر صعبًا بالنسبة إلى بل، غير أني أؤكد لك أن الوضع لم يكن بالسوء الذي كانه بالنسبة

إلي. سألت داني عما كان جاذبًا فيها بالنسبة إلى بل برأيه، أفاد الشرطي من دون تردد بكلام من قبيل «ما من أحد إلا ويريد شيئًا من بل». ثم تجرأ وأضاف: «أنت سألتيني، وسأخبرك، حتى أنت بالذات تريدين شيئًا منه؛ أنت تريدينه أن يكون رئيسًا للجمهورية، من الواضح أن مارلين لا تريد شيئًا سوى صحبته، يبدو أن بل يبتهج حين يُحَب لشخصه لا لأي شيء آخر». تمامًا ما كنت بحاجة إلى سماعه؛ وقوع بل في حب امرأة أخرى ناجم عن خطأ اقترفته أنا! غرقت في بحر من الكآبة، بقيت في سرير الكآبة أسبوعًا.

بل إنسان مزاجي، نادرًا ما يدلق علي حبه بسخاء، هو غير متوافر عاطفيًّا -بالفعل- معظم الوقت، ويعيش على تملق الحملات والعلاقات الطارئة. حين كنت أثور غضبًا منه كما حصل إبان قصة جنكنز، كان يظهر لي بعض الدفء والحميمية، وفي مثل هذه الأوقات يمنحني أيضًا مكاسب سياسية، معينًا إياي في أي منصب أريده، متمتعة أنا بما أطلق عليها أنا اسم قابلية غير عادية؛ أعرف كيف أميز ما هو شخصي عن الأهداف طويلة الأمد، قادرة أنا أن أكون هائمة بحبه والمبادرة بعد ذلك إلى فصل ذلك في غضون ساعات قليلة، على الدوام بلا استثناء أنتهي واثقة من حبي له على الرغم من سلوكه.

وإذ ذاك استطعت أن أعرض على بل ما لا يمكن لأي امرأة أخرى أن تعرضه؛ استطعت تحييد جملة المخالفات والانتهاكات التي حالت دون دخوله السباق الرئاسي، غير أن الشيء الوحيد الذي لم أكن مستعدة لغفرانه هو حفاظ بل على أي علاقة متواصلة ذات معنى مع امرأة أخرى، أبلغته بوجوب التخلي عن مارلين وبإدراك مدى حاجته الماسة إلي، وإلا فليس أمامه إلا الطلاق، وإذا وافق، نستطيع أن نكرس نفسينا للزواج وللإمساك برئاسة الجمهورية، فقبل شروطي، ووعد بالعمل على تصويب سلوكه. التزمنا بصون علاقتنا وإنقاذ زواجنا. وتلك كانت نهاية قصة مارلين جو دنتون جنكنز، بمقدار ما أعلم على أي حال.

2013 12 10

عندما فاز بل بمدته السادسة حاكمًا، راودتني مشاعر ملتبسة؛ كنت متعبة وشاعرة بالسأم من كوني آركنسوية، وتواقة لأشياء أكبر لنا، كنت جالسة بجانب محترف سياسة مثلي يدعى سكيب روثر فورد، ومراقبة لتشلسي وهي تغطي القاعدة الثالثة، حين قال إنه يظن أن جورج سيعاد انتخابه، كان ردي عليه: «لست واثقة من ذلك».

كنت واثقة فعلًا، غير أنني لم أكن مستعدة لإطلاع سكيب على السبب.

في أيار/مايو عام 1991م ألقى بل أخطر خطاب في حياته، كان بل صاحب الخطاب الرئيس في حفل الدي إل سي للحزب الديمقراطي في المؤتمر القومي بكليفلاند، عكفنا؛ هو وأنا، الليل كله على تفصيل الصفات المميزة للحزب الديمقراطي الجديد؛ عدنا مترابطين عبر معشوقنا الأول: تمني تغيير العالم لما هو أفضل. قبل الخطاب، كتب بل ثلاث كلمات على قصاصة ورق: فرصة، مسؤولية، ألفة. راح تلقائيًّا يلقي خطابًا حماسيًّا أمام جمهور صاخب التصفيق. ما من أحد يستطيع إجادة الخطابة مثل بل حين يتكلم من القلب. تم تلقف الخطاب.

كان بل يتحدث مع صديقه ماكس بانتلي حين سأله الأخير عما إذا كان سيترشح للرئاسة، أجابه بل: «هيلاري تريدني أن أفعل». رد عليه ماكس: «حسنًا، أظن إذن أنك ستدخل السباق». ابتسم بل ولم ينف.

كما قلت كنت متعبة وشاعرة بالسأم من كوني زوج حاكم ولاية، وبحاجة إلى شيء أكبر؛ كنت راغبة في جعل منبري قوميًّا شاملًا للوطن، ذات يوم كنت مستيقظة باكرًا وجالسة في السرير أعاين بل الذي لايزال غاطًّا (مستغرقًا) في النوم، لمسته برفق وقلت لا بد له من أن يفعل.

تثاءب وسأل: «يفعل ماذا؟ يترشح للرئاسة؟ هل تعرفين مدى صعوبة ذلك يا هيلاري؟».

قلت: «أعرف، أنا مستعدة».

غير أن ألوان عدم إخلاص بل كانت لاتزال قضية تنتظر حلًّا قبل الانخراط في العملية. لسوء الطالع، انتهزت جنيفر فلورز تلك الفرصة لتوافق مقابل مئة ألف دولار على سرد قصتها المثيرة للغثيان لما ادعتها علاقة حب دامت اثنتي عشرة سنة مع بل على صفحات مجلة ستار الصفراء، كان العنوان صارخًا! وتحدثت عن بل بوصفه ناجحًا جدًّا، ولكن من دون امتلاك مواهب استثنائية. شعرت بما يشبه القرصة في بطني، غير أني قررت أن من الأفضل عدم المبادرة إلى الدفاع عن بل، لم تكن ثمة أي بتسي رايت هذه المرة تتولى تلقين فلورز درسًا وطردها من البلدة.

بل وأنا ناقشنا الموضوع وقررنا أن أفضل الحلول هو أن يقدم على الاعتراف علنًا بوجود بعض الخيانة الزوجية في ماضيه، وبندمه الشديد جدًّا إزاء ذلك، شعرنا بأن من شأن هذا أن يشكل نوعًا من التحصين العام.

صديقتي الحميمة؛ المحامية النيويوركية سوزان توماسيز جاءت جوًّا لتنصح بعدم إنكار إقامة علاقة مع فلورز. استطلاعات الرأي كانت تشير إلى أن لدى

(19) بالمئـة مـن الناخبـين تحفظات بشـأن الاقـتراع لرجل لم يكـن مخلصًا في حياته الزوجية، غير أن من شأن تلك الأرقام أن تتقلص تقلصًا كبيرًا إذا كانت زوجه قابلة به رغم حماقاته، ومن أجدر من زوج بل العاقلة، المتوازنة، اللامعة، الشقراء خريجة ويزلي وييل في القانون لقول ذلك؟

في أثنـاء إحدى المقابلات التلفازية، برنامج (سـتون دقيقة) اعترف كلنتون بأنـه قـد أخطـأ وآلمني، عبَّر عن الأسـف لتصرفاتـه واعتذر، واعـدًا بعدم تكرار ذلك أبدًا. قال إننا مرشـحان لأن نبقى معًا ثلاثين أو أربعين سـنة، سواء أترشح للرئاسة أم لا. كان أداؤه عظيمًا! بدد بل موهبته. كان عليه أن يصبح ممثلًا.

ثم سأله المذيع عن تفاصيل محددة من مغامراته، تدخلت بسرعة وقلت كان عليه ألا يكون أكثر تحديدًا؛ ذلك جزء خاص من حياتنا.

أعطتنـي بتسـي علامة مئـة على تعليقاتـي، وقالت إني كنت قـد عرفت أنني لم أكـن ضحيـة سـلوك بـل. كان مـن شـأننا إذن أن نكـون قادرين علـى مواصلة العيش معًـا. ابتسـمت هيـلاري وقالـت: يجـب أن أقـول لـك دكتـورة: إننـي كنت فخـورة بنفسـي أيضًا؛ فعلى الرغم من أن قلبي كان ينفطـر، فإنني بقيت قادرة على القيام بالشـيء الصحيح وعلى توفير إمكانية انتخاب بل رئيسًـا لجمهورية الولايـات المتحـدة. ثمـة أسـاليب كثيرة يمكـن لأي امـرأة اتباعها لإظهـار حبها لزوجها؛ لعل أحدها هو الاكتواء بنار العبودية الذليلة لإعداد أطباقه المفضلة.

وأسـلوب آخر يتمثل بالخروج معه والسـهر إلى سـاعة متأخرة من الليل فيما عظامها المرهقة تصرخ: لا أريد غير الذهاب إلى النوم!

أسـلوب ثالث يكون بإقامة الحفلات لزملائه وهي تمقت اسـتضافتهم. أقف خلف بل بلا أي شروط حتى حين لا أكون موافقة على تصرفاته، بغية المساهمة في تحقيق ما نصبو إليه كلانا أكثر من أي شيء آخر في العالم. كانت أمي تقول

حين نسيء التصرف، وأقول أنا لزوجي الطفل: «لا يعجبني ما تفعله، إلا أنني سأبقى دائمًا أحبك على أي حال».

ما الرأي الذي كوَّنتُه أنا المحللة عن فلسفة الحب عند هيلاري؟ جل زميلاتي وزملائي من شأنهم أن يعدوها ممكِّنة، دائبة، من خلال التظاهر بالصفح عن سلوكه، على تمكينه من مواصلة هذا السلوك. لم أتمكن من التنبؤ بما سأحس به مستقبلًا، أما في اللحظة لم أستطع إلا أن أنظر إليها بإعجاب، وأرى أن بل كلنتون هو بالفعل رجل محظوظ جدًّا.

2013 12 11

فرحـة هيـلاري بتحصـين بل ضد سـائر الاتهامات باللاوفـاء المادي لم تدم طويـلًا؛ افتتحـت جلسـتها التاليـة قائلـة: هل تعرفين هـذا البيت من شيكسـبير دكتورة: «حين تأتي المشكلات فهي لا تأتي منفردة بل تنقضُّ أفواجًا». إنه وصف ينطبق تمامًا على حياة عائلة كلنتون.

قلت: يا إلهي! يؤسفني أن أسمع ذلك يا هيلاري، ماذا حدث؟

مـا أن كدنـا نضـع مشـكلة انحرافات بل جانبًـا حتى بـدأت النيويورك تايمز تضايقنـي؛ وصمتنـي باللاأخلاقية لأني كنـت، في مؤسسـة روز الحقوقية، أمثِّل موكلين سـبق لهـم أن عقدوا صفقات مع الولاية، وقد عبر المراسـل جيف غيرث أيضًا عن الشك حول مدى أهليتنا؛ بل وأنا، للتعامل مع جيم وسوزان ماكدوغال اللذيـن كانـت مدخراتهمـا وقروضهمـا خاضعـة لتنظيـم الولاية. وشـراكتنا مع الزوجين ماكدوغال كانت منطوية على اسـتثمار وايتووتر العقاري وفتحت كيسًا جديدًا كليًّا من الإشكالات ربما قرأت عنها.

كما تعلمين، أنا إنسـانة شـديدة التكتم، واسـتقامتي بالغة الأهمية بالنسـبة إلي؛ منـذ طفولتـي المبكـرة وأنـا مقتنعـة بـأني فاضلـة فـوق مسـتوى اللـوم على

الصعيد الأخلاقي، لا أستطيع تصور إهانة أكبر من التشكيك بأخلاقي. شخصيتي بالذات تعرضت للهجوم من قبل مجتمع واشنطني بدا كلي الحرمان من أي شيء محترم أو مبدئي.

كنت مؤمنة بأن الموكلين الذين أختار تمثيلهم، وبأن ما أفعله باستثماراتي، لم يكونا من شأن أحد سواي، فرفضت الرد على أسئلة غيرث. اتهمت بالغطرسة وبعَدِّ نفسي فوق مستوى المساءلة. تمثل جوهر الاستياء بأنه كان علي، لو لم يكن لدي ما أخفيه، أن أرد على أسئلة غيرث، بدلًا من اعتماد ما بات يعرف بإستراتيجية (أعلى ما في خيلك اركبه! يا جيف غيرث!).

خمَّن موظف البيت الأبيض لاني ديفيس أن مسلسل الأحداث كله الذي أفضى إلى تحقيق وايتووتر الذي تمخض عن تعيين وكيل النيابة الخاص كن ستار، وصولًا إلى التحقيق مع مونيكا لوينسكي، الذي قاد آخر المطاف إلى اتهام بل، يمكن إرجاعه إلى مقال جيف غيرث في النيويورك تايمز.

صرختْ قائلة: «ألن تعرفي أنني كنت سألام على اتهام بل؟ كان يلهو كلما استطاع، وكنت أتولى إنقاذه دائمًا، ومع ذلك يجري تحميلي مسؤولية الورطة كلها! جل الناس في هذه البلدة مفتقرون إلى عتبة الألم. لا أحد يستطيع أن يقول ذلك عن هيلاري كلنتون مع أن أكثر الناس لا يصدقون. يصمونني بالقسوة وعدم الرحمة ولكنهم يجهلون مدى هول الآلام التي أكابدها في ليالي الأرق اللانهائية. أسألك دكتورة، هل هذا إنصاف؟ أكرر، هل هذا إنصاف؟».

شعرت بالأسف من أجل هذه المرأة اللامعة التي عوملت بهذه النزعة الثأرية الانتقامية من قبل كل من الجمهوريين من ناحية والصحافة من ناحية أخرى. قلت: أتفق معك يا هيلاري؛ نادر ما يُعثر على أي شخص في هذه الحياة حصل على ما يستحقه بجدارة.

نظرت إلي مستفهمة وسألت: حتى أنت يا دكتورة؟.

ابتسمت: نعم، حتى أنا يا هيلاري. أنَّتْ ومسحت دموعها.

ثـم قالـت: بعد مدة، عادت الأمور إلى مجاريها قليـلًا، كما تفعل عادة. جيد أنها فعلت وإلا لما عرفت ما كان من شـأن وضعي أن يؤول إليه اليوم. تأثر ناخبو هامبشـاير باعترافـات بل حول انحرافاته وصـولًا لا إلى مجرد الصفح عن هذه الحماقـات وحسـب، بـل وعـن استسـاغتي للتكتـم، فكانـت إجادتنـا كافيـة آخر المطاف لبقائنا في حلبة السباق.

في التمهيديات الرئاسية طارد منافسيه حتى التعادل في كولورادو، ثم انتقل إلى انتصارات حاسمة في كارولاينا الجنوبية، إيلينوي، وميتشيغان.

لسـوء الطالـع، بـادر رجـل الأعمال التكساسـي روس بـيرو بإلقـاء قبعته في الحلبـة، ودفـع بـل في اسـتطلاعات الانتخـاب العامـة إلى مـا دون كل من بوش وبـيرو، غـير أن صحفًا نيويوركيـة مثل النيويورك تايمز، البوسـت، والديلي نيوز نجحت في سـد الفجوة حين بادرت بحماسـ إلى تأييد بل الذي اسـتطاع بسهولة أن يكون الأول في تمهيديات نيويورك. أنا عاشـقة لتلك الولاية! سـاهم في ضمان ترشيحه من خلال الفوز في نيوجيرسي، نيومكسيكو، مونتانا، وحتى كاليفورنيا، حيث نجح في إلحاق الهزيمة بجيري المعروف بشعبيته في ولايته بالذات.

مدعومـين بهـذا الطوفـان مـن الانتصـارات طرنا؛ بـل وأنا، فرحًـا في مؤتمر انتصـاري بحديقـة سـاحة ماديسـون حـين قـام ماريـو كومـو؛ أحد كبـار القادة الديمقراطيين، بإعلان اسـمه مرشـحًا. ألقى بل خطاب قبول شديد الإثارة ركز فيـه علـى الطبقة الوسـطى المنسـية، أولئك الذيـن يعملون ويسـددون ما يترتب عليهم من ضرائب كي يمكِّنوا أولادهم من التمتع بحياة أفضل. انهمرت الدموع على وجنتي حين تحدث عن ليلة ميلاد تشلسي. أذكر ما قاله جيدًا: «طغت علي فكـرة أن الـرب كان قـد أنعم علي ببركـة لم يعرفها أبي قـط: فرصة حمل ابنتي في حضنـي. في مـكان مـا عند هـذه اللحظة بالـذات، ثمة طفل يولـد في أمريكا. فلنجعل منح ذلك الطفل بيتًا سعيدًا، عائلة سليمة، ومستقبلًا واعدًا، قضيتنا!».

لا أحـد يسـتطيع أن يكون بالـغ التأثير مثل بل حين يتكلم بمثل هذا الشـغف، كاد البيت يتهدم من عنف التصفيق الذي أرعد على امتداد الساعة التي دامها الخطـاب. مـا من أحد صفـق أكثر مني أو لمـدة أطول، مفعمـة بفيض من الحب لزوجي، الرئيس المقبل لجمهورية الولايات المتحدة.

2013 12 13

قالت هيلاري بحيوية: في الكلية الانتخابية، تكرر اسم كلنتون، كلنتون، كلنتون باستمرار! فاز بل بـ (362) صوتًا مقابل (168) لبوش، مع اثنتين وثلاثين ولاية في صف كلنتون. رغم النكسات كلها على الطريق كنا؛ نحن عائلة كلنتون، قد تفوقنا مرة أخرى.

أسهم توم بروكاو من قناة إن بي سي الإخبارية في ضبط إيقاع الرئاسة الكلنتونية، حين سألني عما نعتزم؛ بل وأنا، فعله في الصباح الأول الذي نستيقظ فيه في البيت الأبيض. أجبته: «سنغطي رأسينا بالبطانيات». يجب أن أكون قد عرفت شيئًا حتى عندئذ!

لاشيء سار على ما يرام، بنعومة مع عائلة كلنتون، بالتأكيد! فمنذ اللحظة التي انتخبنا فيها، وجدنا نفسينا غارقين إلى الركب في المشكلات؛ تمثلت الأولى بعجزنا عن التوافق على هوية مدير الفريق الانتقالي. بدا ميكي كانتور؛ وهو صديق عزيز لبل ورئيس حملته، الخيار المنطقي، عارضت لأني شعرت أنه يبالغ في التمدد، أصابتني نوبة وصرخت في وجه ميكي متهمة إياه بمحاولة جعل بل محدلة. مرهقًا منذ أيام الحملة الأخيرة، لم يقدم بل على شيء من شأنه إحباط رغباتي. عاد ميكي جوًّا إلى كاليفورنيا، خائبًا جارًا ذيل الخيبة.

ثم بادر بل إلى تعيين وارن كرستوفر؛ شخص لطيف مستعد للذهاب إلى أي مدى حفاظًا على الهدوء، غير أن الحفاظ على الهدوء لم يكن هو المطلوب. سلفًا كان لدينا شخص يتولى تلك المهمة: أعني بل كلنتون، وما كنا بحاجة إليه هو شخص صارم، عنيد لا يخاف اتخاذ القرارات. تأرجح الخيار بين زبون خشن قادر على إطلاق الإيعازات نباحًا مقابل نظام يستطيع فيه الجميع أن يدلوا بدلائهم. اتخذنا القرار الخطأ.

ونتيجة لذلك أطلق ستفن هيس من معهد بروكنغز على فريقنا الانتقالي صفة «الفريق الانتقالي الرئاسي الأسوأ في التاريخ الحديث». تمثلت المشكلة بسؤال: من الذي كان سيدير الرئاسة؟ بالطبع كان بل هو الذي جرى انتخابه، إلا أنه كان قد وعدني بأننا سنكون شريكين في الرئاسة – بموجب صفقة (اثنان بسعر واحد) القديمة.

هذا لم يرق لنائب الرئيس آل غور الذي كان بل قد وعده أيضًا بدور قيادي. وهكذا أصبح عندنا ثلاثة أشخاص متنافسون على المرجعية، ولا أحد مسؤول. سادت الفوضى، للأسف بدوت كما لو كنت مركز المشكلة كلها، لم أكن بصدد التنازل عن النفوذ الذي كنت قد وُعدت به. لبعض الوقت فكرت بتولي منصب رئاسة جهاز أركان العاملين، صديق بل القديم ومستشاره السياسي المرشح لمنصب مستشار الرئيس، ديك موريس، اعترض على الفكرة قائلًا إن رئيس الجهاز يضطلع بوظيفته مانعة الصواعق بالنسبة إلى قرارات الرئيس جميعها غير الشعبية، وبعد إعادة النظر في الأمر، قررت أن ذلك المنصب كان المنصب الذي لم أكن أريده بالمطلق!

ماذا عن تعييني نائبًا عامًا أو وزيرة للتعليم؟ سألت. ثانية اعترض موريس بحجة احتمال تفسير الأمر محاباة للأقارب بما لن ينعكس إيجابًا على رئاسة بل.

كيف حصل وشغل بوبي كندي بنجاح منصب نائب عام إدارة شقيقه؟ سألت. جوابه: الأوقات تغيرت.

اقترح بدلًا من ذلك أن أتولى مسؤولية قضية داخلية كبرى مثل الرعاية، تمامًا كما سبق لي أن توليت معالجة التعليم في آركنسو. تناغم اقتراحه من اهتمامي الرئيس بالأطفال والعائلة، وبدا مناسبًا. كنت سأضطلع بقيادة تغيير اجتماعي شبيه بالأمن الاجتماعي والرعاية الطبية – أمر كان من شأنه أن يحدث انقلابًا في الأمة.

غير أن مشكلة ما لبثت أن برزت مع آل غور؛ كان بل قد وعده بدور حاسم في الإدارة، كما بالتشاور معه بوصفه موضع الثقة الأول قبل اتخاذ أي قرار مهم، مشكلة واحدة كانت كامنة في هذا: ذلك المنصب كان مشغولًا سلفًا – من قبلي أنا. آل غور وأنا دخلنا في سجال وتنافس على النفوذ، سجال وتنافس داما طوال فترتي بل الرئاسيتين، وإن بطريقة لبقة ومهذبة على السطح.

طلبت بإلحاح أن يكون لي مكتب في الجناح الغربي، الزوج الأولى لرئيس جمهورية تشغل مكتبًا في مركز السلطة، إلا أن ذلك أزعج آل وشكل تطفلًا على فضائه. أي منا (كلينا) لم يكن مستعدًّا للاستسلام، جزئيًّا جراء الرمزية المترتبة على حصول أحدنا على مساحة أكبر ومكان أقرب إلى الرئيس، أردت أنا أن أكون في الجناح الغربي، فشغل مكتب بجانب القائد الأعلى للبلاد يوحي بأشياء كثيرة حول المكانة النسبية للنساء مقابل الرجال في الولايات المتحدة باعتقادي، وفي البيت الأبيض كنت أترجم الدراما الجارية على قدم وساق في مكاتب وبيوت أمريكا كلها، وآمل أن أشكل أنموذجًا في الأمكنة جميعها.

رغم أسبابي الممتازة لم يقتنع آل، وواصلنا التقاتل طوال مدة رئاسة بل، كان من شأن رئيس جهاز عاملين قوي أن يحل تلك المشكلة مرة للمرات كلها، غير أن عدم وجود مثل ذلك الرئيس القوي للجهاز لم يحقق أي حل لهذه وغيرها من المشكلات.

2013 12 16

تابعت هيلاري متحدثة عن المشكلات المعيشة في البيت الأبيض تقول: لم تنتهِ المشكلات هناك. الأخطاء كلها الممكنة وقعت للأسف، منذ لحظة محاولتي تحقيق شيء من النظام لحال الفوضى، أوجدت عداوة إذ منعت الصحافة من احتلال مكتب السكرتير الصحفي، كانت ثمة مشكلات متواصلة في وزارة العدل، تعيينات وزارية فاشلة، والنظام التنفيذي الملتبس حول السماح للمثليين بالخدمة في الجيش، ثم كان جهاز العاملين الغارق في الفوضى، فالمسؤولية ضائعة؛ لا أحد مسؤول، لا تركيز، لا نظام، ولا انضباط في الإدارة الرئاسية الجديدة، قال أحد المراقبين إن أعضاء الفريق الكلنتوني جميعهم كانوا يشعرون كما لو كانوا يبحرون بمركب رئاستهم في زحمة عاصفة هوجاء. كنت واحدة من هؤلاء الأعضاء.

حاولت الإمساك بالدفة، لإضفاء شيء من النظام على الوضع، لم يكن أحد سعيدًا بذلك؛ كارل بيرنشتاين- مثلًا- علق قائلًا: إنني، فور وصولي إلى البيت الأبيض، كنت قد أصبحت السيدة الأولى المقاتلة الأولى. من جديد أسألك دكتورة: هل كان ذلك إنصافًا؟ كان البيت الأبيض غارقًا في فوضى عارمة، وكنت الوحيدة التي حاولت إكساب الإدارة قدرًا من النظام، فتعرضت للنقد

بوصمي سيدة أمريكا الأولى المقاتلة الأولى. بعد أسبوعين من كوني سيدة أولى كنت مستعدة للاستقالة!

شيء واحد إيجابي حصل في زحمة الفوضى على أي حال، أو أقله، بدا الأمر لي كذلك في ذلك الوقت؛ أقدم بل على تعييني رئيسة لفريق عمله الخاص بالرعاية الصحية. أنا كما تعلمين دائمة الاهتمام بتوسيع نطاق الرعاية الصحية لاستيعاب الفقراء والمسحوقين من نساء بلدنا وأطفاله، كان نائب الرئيس غور قد طلب من بل تولي رئاسة فريق العمل، إلا أنني اعترضت على تعيينه مقتنعة بأنه كان سيحاول- يقيناً- تشويه البرنامج كله، وبالطبع فإن بل وقف في صفي أنا.

لا أريد الإيحاء بأن أشياء أخرى إيجابية لم تحصل إبان العام الأول؛ وقَّع بل قانون الإجازة الطبية العائلية الذي مكن المستخدمين والموظفين من الحصول على إجازة تصل إلى ثلاثة أسابيع بلا أجر لمعالجة طوارئ عائلية، مباشرة أقدم على قلب سنوات ريغان وبوش الاثنتي عشرة من حجب الدعم الحكومي لبرامج نشر المعلومات حول تنظيم الأسرة، تحديد النسل، أو وضع حد للحمل. هل تستطيعين أن تتصوري أن اثنين من رؤساء جمهورية الولايات المتحدة كانا، في هذا العصر بالذات، على هذه الدرجة من الرجعية؟ مازلت حائرة إزاء بقاء هذه الأعداد الكبيرة من النساء العاجزات عن رؤية ما هو أبعد من أنوفهن اللواتي اقترعن لذينك السيدين المحترمين المتخلفين، النكوصيين. ما الذي منعهن من رؤية أنهما لم يقدما شروى نقير لمصلحتهن، بل لم يكونا مهتمين إلا بخدمة أغراضهما السياسية الخاصة؟

رغم سلسلة المآزق مع الجمهوريين في جُل القضايا، نجح بل في مشروعين كبيرين آخرين؛ فحين كان حاكم ولاية في عام 1985م، دعا إلى إعادة نظر شاملة بنظام الرخاء لتشجيع العمل، وفي حملته عام 1992م وعد بـ (إنهاء الرخاء كما نعرفه)، وحين وافق الكونغرس على صيغة أقسى من اقتراحه

في عـام 1996م، بـادر إلـى توقيعها وجعلهـا قانونًا رغم اعتراضـات كثيرين من إدارته وحزبه بالذات. مارس بل حق النقض ضد تدبيرين سـابقين كانا أقسـى وأثقل وطأة؛ حصر القانون معونة الرخاء مدى الحياة بخمس سـنوات، وطالب المستفيدين الراشدين بالعمل بعد عامين من التعويل على معونة الرخاء.

في عام 1997م، نجح بل في اجتراح صفقة حل وسط مع الكونغرس تضمنت تخفيضات ضريبية وإنفاقية هادفة إلى تعديل الموازنة، وتمخض التشـريع أيضًا عـن إطـلاق برنامـج ضمان صحـي جديد للأطفال مـد تغطية المعونـة الصحية إلـى ملايـين أطفال الأسـر ذات الدخل المتدني والمتوسـط، كنـت بالغة الاعتزاز بـه؛ ذلـك هـو الرجل الذي كنـت قد اقترنت بـه زواجًا، كذلك وقـع جملة تدابير متمتعـة بموافقـة الحزبـين فأصبحـت قانونًـا ينظم مكافحـة الإرهـاب، بما فيه تخصيـص المزيـد مـن الاعتمادات لمحاربـة الإرهـاب وترحيل الأجانب المشـتبه بكونهم إرهابيين.

كنـت بالغـة السـعادة بحصولنا أخيرًا على رئيس كان مهتمًّا بصدق بشـعب بلده، مهما كانت عيوبه، وهي كثيرة كما نعلم.

2013 12 17

قالت هيلاري وفي صوتها حزن عميق: في التاسع عشر من آذار/مارس عام 1993م وقع حدث مروِّع؛ أُصيب أبي بسكتة، أخذت تشلسي من المدرسة وطرت مباشرة إلى جانب سريره، كان في الثانية والثمانين من العمر، وظل مواصلًا تدهور الصحة لبعض الوقت؛ تعرض لإجراء عملية إبدال شرايين وصار حبيس الكرسي المدولب، ومع ذلك لم أكن مستعدة لوداعه، جلست بجانب أبي المحتضر وغمرتني موجة مشاعر عنه وعن حياتنا معًا، الأسى على رحيله غيرني؛ جعلني رحيله شخصًا آخر.

قلت: حكمتك جعلتك تدركين ذلك يا هيلاري.

من كان يمكن أن يتصور أنني كنت سأبدأ بتذكر أحداث غير سارة عنه بجانب فراش موته، مثل إجباره لنا على البحث عن أغطية عبوات معجون الأسنان في الثلج والجليد ولم يكن مستعدًا ليقول: أحسنت يا هيلاري، مهما اجتهدت ومهما نجحت. تذكرت أن العاملين في البيت الأبيض لم يعجبوا به، وعدُّوه فظًا ووقحًا، بعضهم راح يلقبني بـ (طاغية) أيضًا، لا أظن أني طاغية مستبدة؛ لست إلا شخصًا يحاول بالطرق كلها الحصول على أفضل النتائج منهم، إلا أنني أرى أنني أحيانًا أتصرف كما لو كنت طاغوتًا، وإذا فعلت فنحن

نعرف المصدر الذي أخذت منه ذلك، أدركت عندئذ أن استعداد أمي لتحمل سوء معاملة زوجها كان قد شكل مجمل مقاربتي للزواج وللحياة بالذات كلها.

موت أبي غيرني؛ رحت أسأل عن معنى الحياة والموت بالذات، متى تبدأ الحياة؟ متى تنتهي؟ أو هل تفعل؟ لذت بديني بحثًا عن أجوبة، وقررت أن هناك أمورًا أكثر أهمية من السعي إلى امتلاك السلطة والنفوذ، عرفت عندئذ أنني أردت أن أعلم الناس عن الأرضية المشتركة التي نتقاسمها جميعًا، ولاسيما من يرون أنفسهم الآن أعداء ألداء، كان موت أبي ثمن وقوفي على الحقيقة، ألقيت محاضرة على أتباعي عن (الفراغ الروحي الكامن في قلب المجتمع الأمريكي، عن هذا الورم الخبيث في الروح).

وأنا في المستشفى وجدتني بغتة في دور عضو أسرة شخص على فراش الموت دفع أثمانًا لا تصدق، وقواعد تأمين غير قابلة للفهم، وصيغ مربكة، وكل هذا وأنا غارقة في حزن أقعدني عن التفكير، تحدثت مع مرضى آخرين وأفراد أسرهم ومع العاملين في المستشفى، مرة بعد مرة قال لي الأطباء إن كثيرين من مرضاهم لا يستطيعون تسديد ثمن الأدوية الضرورية، وكثيرًا ما يتناولون جرعات مقلصة لجعل وصفاتهم تدوم أطول، وهذا كله عزز إحساسي بمدى أهمية الرعاية الصحية.

في الوقت نفسه كان فريق عملي الخاص بالرعاية الصحية مجمدًا، وبعد غياب دام أسبوعين ونصف، قررت وجوب العودة إلى واشنطن لمدة قصيرة، وعلى الرغم من الساعات الطويلة التي أمضيتها معه، فإنني أستطيع أن أكون بجانبه في لحظة لفظه أنفاسه الأخيرة، وفيًّا لشخصيته إلى النهاية، لم يكن هيو رودهام قط قادرًا على منحي بركته الأخيرة أو إسماعي أنه كان يحبني، ولم أستطع أنا أيضًا أن أبلغه مدى ضخامة حبي له والأذى الذي سببه لي.

أضافت بين شهقات البكاء: مات أبي، وسواء أطاغية كان أم لا، فقد أحببته وحزنت عليه كثيرًا، لم أستطع استئناف العمل لأسابيع؛ حدادي يخترقني إلى

الأعماق، لا تكوني مثل الآخرين جميعهم الذين ينصحونني بالتغلب على الأمر. (قالت وهي تنظر إلي نظرة غير ودية)؛ لأنني لن أفعل أبدًا؛ لن أكون الشخص نفسه من جديد.

متأثرة بعمق، ناسية أنني محللة، ذهبت إلى حيث هيلاري وعانقتها عناق أم، بكت على كتفي على امتداد اللحظات الباقية من جلستنا.

2013 12 18

صديقي العزيز، فنسنت فوستر وأنا كنا خليلين إبان عملنا معًا في مؤسسة روز الحقوقية، كان الرجل صديق طفولة بل، وأفضل أصدقائي أنا في روز، كنا نتحاور ساعات طويلة، نتناول الغداء معًا، نتضاحك حول الثرثرات الخبيثة، وجود فنس صديقًا جعل العمل في روز ممتعًا، وعوَّض عن بعض عيوب بل ونواقصه.

كان- بالتأكيد- ثمة كلام عن كوننا؛ فنس وأنا عاشقين، غير أن ذلك لم يكن صحيحًا؛ كنا صديقين وحسب، جاء فنس إلى البيت الأبيض مساعد مستشار قانوني للرئيس ومحاميًا شخصيًّا لنا، وتولى تصفية حشد من ورطاتنا الشخصية التي لن أفصلها الآن، يكفي أن أقول إننا لم نكن- في أثناء عملي مع روز- مخوَّلين بالدفاع عن زبائن يتعاملون مع الولاية أو الدولة، ويؤسفني أن أقول إنني نسيت هذه القاعدة أو تجاهلتها أحيانًا، إلا أن منصب فنس الجديد أحدث انقلابًا مرعبًا في علاقتنا.

أصبحنا رئيسة وموظفًا، بعد أن كنا صديقين شخصيين حميمين، ورحت أنهال عليه بأوامري وفق أسلوبي المعهود صارخة: «انتبه يا فنس!». لقاءاتنا الودية، وجبات غدائنا المشتركة، وجلسات هذرنا انتهت، أحيانًا كان مستشارًا،

وأخرى كان وسيطًا، غير أننا لم نعد صديقين حميمين، كذلك كان فنس بطيئًا بعض الشيء في تنفيذ أوامري، ما أدى إلى إثارة غضبي.

أنزعج عندما لا تسير الأمور على النحو الذي أريدها أن تفعل؛ مثلًا أمرته بشطب اسمي من الإشارات جميعها إلى طرد عاملي مكتب سياحي معروف باسم ترافلغيت من قبل وسائل الإعلام، لم أشعر بأي ذنب إزاء الأمر، إلا أنني قدرت أن من شأن إبعاد اسمي عنه أن يعفينا من إشكالات لاحقة.

وكم كنت على صواب! نفذ الأمر، غير أن وخزات ضمير شعر بها حول تصرفاتي، لم يكن قادرًا على إنجاز المهمات بالسرعة التي كنت أريدها، وكان يعلم أنني لم أكن راضية، ففكر بالتخلي عن المنصب ولكن كبرياءه كان يمنعه من الإخفاق في أي شيء، كان الوضع مؤسفًا بالنسبة إلى كلينا، بذل كل ما استطاعه من جهد من أجلي بوصفي سيدة أولى، غير أن بقاءه صديقي الحقيقي بات مستحيلًا.

وذات يوم رهيب وأنا في زيارة أمي، انطلق فنس إلى العمل كالعادة، غادر في ساعة مبكرة من بعد الظهر قائلًا للعاملين في مكتبه إنه سيعود قريبًا، انطلق بسيارته إلى إحدى الحدائق بفرجينيا، استل مسدسًا، وأطلق الرصاص على ما بين العينين بدقة، حين سمعت النبأ غبت عن الوعي جراء الصدمة، ولُمتُ نفسي على عدم التنبؤ بما هو قادم والمبادرة إلى فعل شيء لمنعه، كلانا؛ بل وأنا غمرنا الحزن على فنس معًا، وبذل بل كل ما استطاعه من جهد لإقناعي بأن لا ذنب لي في ما حصل، وبأنني لم أكن أنا أو أي أحد آخر، قادرًا على فعل شيء لمنع وقوع المأساة؛ نظرًا إلى سرعة عطب فنس وهشاشته المفرطة، لا أصدق ذلك؛ أعتقد أن فنس انتحر لأنه ظن أنني لم أعد مهتمة به، لا أحد يستطيع إقناعي بخلاف ذلك.

بعد بضعة أيام، عثرنا على رسالة انتحار كان فنس قد تركها؛ تضمنت الرسالة عبارات: «اقترفت جملة أخطاء نتيجة الافتقار للخبرة، والجهل، وكثافة

العمل. محررو الوول ستريت جورنال يكذبون عبثًا. لم أكن معنيًّا بأي منصب في بؤرة ضوء الحياة العامة بواشنطن. تدمير الناس في هذه المدينة يعد نوعًا من الرياضة. لن يصدق الجمهور أبدًا أن عائلة كلنتون وجهازها المخلص بريئان». لم أنسَ الموضوع على الإطلاق.

قولي لي دكتورة: كيف يمكن تجاوز عبء انتحار صديق حميم، لاسيما إذا كنت تظنين أنك مذنبة؟ (تدحرجت الدموع من عينيها وكرجت على وجنتيها). قالت باكية: الألم لا يطاق، لا أستطيع إبعاد صورة ذلك المسدس الذي تنطلق منه الرصاصة المخترقة لرأسه من عقلي، تلازمني على الدوام، أراها بوضوح كما لو كنت حاضرة عند الإطلاق، وتشعرني بأنني أنا هي من ضغطت على الزناد، لماذا لا تتلاشى وتتركني في سلام؟ ألم يدرك مدى الألم والأذى الذي كان من شأن انتحاره أن يسببهما لي؟ لماذا لم أتصل به ذلك الصباح؟ لماذا لم يتصل بي هو؟ لماذا لم أقدِّر مدى غرقه في اليأس؟ ما الذي جعلني أستفزه حين قلت له: «حافظ على وتيرتك الجليدية في الحركة يا فنس! تعلم مدى إزعاج ذلك لي!». ألم يعرف أنني كنت أمزح وحسب؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ (انطفأ صوتها شيئًا فشيئًا وتلاشى حتى لم أعد أسمع سوى أصدائه الباهتة).

ما الذي كنت أستطيع قوله مما يمكن أن يساعد؟ سنوات دراستي وممارستي جميعها لم تسهم في إعدادي للرد على ذلك السؤال البسيط. غارقة في بحر من مشاعر العجز، أجبت كما كان يمكن لأي شخص آخر أن يفعل قائلة:

آسفة جدًّا يا هيلاري! أعرف مدى هول الشعور الذي يقض مضجعك، إلا أنني لا أعتقد أنك أو أي أحد آخر مسؤول؛ كان فنس رجلًا مريضًا، ضعيفًا، لم يستطع أن يتماسك بما يكفي ليدرك أنه حتى أكثر الأوقات سوادًا وحلكة ستمر، ذلك هو السبب الكامن وراء انتحاره.

أومأت إلا أنها واصلت البكاء.

ثمـة أمـر آخـر يجـب أن تعرفيـه يـا هيـلاري، حاذيـة حـذوك سأقتبـس من شيكسـبير الذي قال في السـوناتا الثلاثين: «ما من محنة جديدة يا عزيزي، إلا وتحيي سـائر بلايا الزمان». وكان يعني أن كل خسـارة جديدة تعيد إلى الذاكرة الخسـارات القديمة جميعها، فأنت إذن تحزنين مع كل فقدان جديد على سـائر آيـات الفقـدان السـابقة جنبًا إلى جنب مـع نظيرتها الطازجـة، في تلك المحطة الزمنيـة كنـت قـد فقدت أبـاك حديثًا، كنـت تنوحين على أبيك بمقـدار ما كنت تنوحين على فنس.

أومأت ثانية، وفجأة بدت الطاقة متدفقة إلى صوتها من جديد، راحت تقول: أنـت على صواب! لطالما تسـاءلت عن سـبب إصراري علـى إضفاء وجه أبي على وجه فنس في تلك الصورة التي ترفض الانصراف! شـكرًا دكتورة؛ سـاعدتيني وأنا مقتنعة بأن أحدًا لن يستطيع أن يفعل.

مسـحت عينيهـا، نهضـت عـن أريكتها، مشـت نحـو المدخـل رافعة الرأس، تـرددت عند العتبة للحظة ثم التفتت وقالت بدفء: شـكرًا، مرة أخرى دكتورة. سعيدة أنا لمعرفتك.

تمخض حـزن هيلاري عن إيقـاظ ذكرى المصائـب القديمة عنـدي أنا كما عندها، وخيوط من الدمع بللت وجهي وأنا أبكي حزنًا على ابني، زوجي، وأبوي. للأسـف لم يكن عندي سـوى عشـر دقائق للملمة نفسي قبل حلول موعد المريض التـالي. تذكري لمسـيرة عـذاب هيـلاري الطويلة سـاعد على وقف دموعـي، إنه تقـدم حقيقـي أن تجـد امرأة درجت حياتها كلها على حبس مشـاعرها في علبة مغلقة نفسها في حالة حداد بهذا العمق.

2013 12 20

من بداية رئاسة بل، وبسبب مشكلاتنا مع الصحافة في المقام الأول، شعرنا بالغربة عن نخبة واشنطن، الدائرة أساسًا حول الواشنطن بوست؛ ما من أحد في واشنطن بدا معجبًا بي، ومما زاد الطين بلة أن جهاز عاملي البيت الأبيض، بمن فيه الطباخون، الحجاب، الخدم، وحتى الجهاز السري، بدا شاعرًا بنوع من الكره لنا، وقد بدأ الأمر كله في اليوم التالي لحفل التنصيب، مع تقديم وجبة الفطور في الساعة الخامسة والنصف صباحًا! اثنتان من نوبات الخدمة السرية كانتا ستباشران العمل في ساعة مبكرة من الصباح إذا كان بل راغبًا في ممارسة رياضة المشي، وبما أنه كان أيضًا يحب لعب الورق والكلام إلى ساعة متأخرة ليلًا، فإن الأمر كان يعني ساعات أطول للعاملين الذين كانوا مستائين من ذلك. عليك أن تتذكري أنهم كانوا معتادين على عجوزين مستقرين ملتزمين بمواعيد عادية، يمكنك أن تتصوري مدى بشاعة وجود أناس حولك يمطرونك بالأوامر كل الوقت، عالجت الوضع باستخدام آركنسويين في المقام الأول.

بلغ توتر العلاقة بيننا وبين الواشنطيين أوجه في مسألة (ترافلغيت)؛ كان الأمر متعلقًا بمكتب في البيت الأبيض درج منذ سنوات على اتخاذ ترتيبات الأسفار جميعها؛ الرحلات الجوية، والحجوزات الفندقية للجسم الإعلامي

لدى اضطرار الرئيس إلى السفر. بدأ الأمر كله حين أقدم صديقانا الحميمان هاري وليندا ثوميسون على إبلاغي بأنهما يعتقدان أن مكتب السفر كان مشلولاً جراء سوء تدبير مالي فظيع، وكان لدى ثوميسون أيضًا فريق بديل برئاسة أحد أقارب بل مستعد للاضطلاع بالمهمة.

شعر فنس بالقلق إزاء خطوات الطرد التي كنا موشكين على اتخاذها وأمرنا بيت مارفيك من ألكي بي أم جي (KPMG) بدراسة الموضوع، اكتُشف أن وكالة السفريات الداخلية كانت تحتفظ بدفتر خارج السجل، بشيكات غير مغطاة بقيمة (18,000) دولار، وبأوراق مكتبية فوضوية.

رأيت عمليات الإنفاق النقدي غير القابلة للتفسير من قبل الجهاز فرصة ممتازة للخلاص من عاملين مفتقرين إلى الكفاءة، وإن لم يكونوا عديمي الأمانة بالفعل. في أيار/مايو عام 1993م، طردنا مستخدمي مكتب السفر السبع جميعهم؛ كنت شديدة الانزعاج منهم إلى درجة جعلتني أقترف خطأ عدم الاستماع إليهم أو منحهم فرصة الدفاع عن أنفسهم، أدى ذلك إلى إطلاق صرخة مدوية في وسائل الإعلام لم تهدأ حتى يومنا هذا؛ سارعت الصحافة إلى الانقضاض على القصة، وركزت لا على مخالفات المكتب كما كان يجب أن تفعل، بل على ما أطلقت عليه اسم (أسلوبنا نحن في الإدارة)، لم يكن ذلك إلا السجال الأخلاقي الأول الذي كان سيتعين علينا أن نتعامل معه.

المزيد من تحقيقات الإف بي آي ووزارة العدل، وتحقيقات البيت الأبيض نفسه، وتحقيقات مكتب المحاسبة العامة، وتحقيقات لجنة الإدارة والمراقبة لدى الإدارة الداخلية، وتحقيقات مستشار وايتووتر المستقل، تعاقبت في غضون الأعوام القليلة التالية، في إحدى المرات كان ثمة تسعة وثلاثون تحقيقًا جارية على قدم وساق في الوقت نفسه، بدا الأمر كما لو كنا في غمرة محاكم التفتيش الإسبانية. يمكنك أن تتصوري كيف أدى هذا إلى سجني في حالة من التوتر كما إلى تشابكنا؛ بل وأنا في صراع محموم لأعوام، وكل منا يلوم الآخر متهمًا إياه

بكونـه السـبب الكامـن وراء انزلاقنا إلى هـذه المتاهة. جرى اتهـام مدير مكتب السفر بيلي ديل بالاختلاس، إلا أن ما باغتني هو أنه وُجد بريئًا غير مذنب في 1995م.

في عـام 1988م، بـرَّأ المحامـي المستقل كنـث سـتار زوجي مـن أي تورط في القضيـة، فبـات تنفسـنا أيسـر قليـلًا. ما أثـار غضبـي أن فرط اهتمام وسـائل الإعـلام بنـا أجبرنـا علـى إعـادة معظم المسـتخدمين إلـى وظائف أخـرى ونقل عناصـر كلنتون من مناصب مكتب السـفر، مازلت أعتقد أنني كنت على صواب في طردهم، إلا أن الأمر لم يؤدِّ- يقينًا- إلى جعلي الآنسـة شـعبية في واشـنطن العاصمة!

حين أصدر كنث سـتار مذكرة اسـتدعاء لي للإدلاء بشـهادتي أمام المحلفين حـول سـجلات فواتـير مفقودة، تملكني الغضب وانتكسـت إلـى مزاجي الكئيب؛ أنـا وجدانيـة جـدًّا، وآلمني كثـيرًا أن يُشـكَّك بصدقيتي على الملأ أمـام الأمة، بل أمام العالم كله، كذلك انتابني القلق إزاء احتمال انعكاس شـهادتي سـلبًا على رئاسـة بـل وتمخضها عن نسـف ثقة الناخبين بنـا، أردت أن أكون صنوًا سـندًا، لا عبئًـا ثقيلًا عليه، وأخبرته بذلك، فاسـتاء كثـيرًا متعاطفًا معي وطالبنـي بعدم الاكتراث، كنت عميقة التقدير لدعمه.

نحن أسـرة متماسكة حين يتعرض أحدنا لأي مشكلات، تشلسي أيضًا قلقت كثيرًا علي؛ كانت قد أصبحت آنسـة شـابة ودائبة على متابعة أخبار التحقيقات عن كثب إلى درجة مزعجة لي أحيانًا، غير أن «ما يذهب يمينًا يأتي يسارًا» كما يقول المثل القديم، كنت قد طمأنتها ووفرت لها الحماية طويلًا، فأرادت أن ترد الجميـل، حاولت أساسًـا تجنـب إزعاجها بما كان حاصلًا غـير أني امتثلت حين أفادت بأنها تشعر بالتحسن حين بحت لها بمشاعري.

وممـا ضاعـف صعوباتنـا في تلـك الأثنـاء أن كتـاب ديفيـس مارانيـس: أول في طبقتـه، نُشـر وكشـف الغطـاء أمام الجميع عـن جملة المصائـب التي جلبتها

حماقات بل على زواجنا، كنت شديدة الغضب لاسيما من صديقتي وصديقي؛ بتسي رايت وديك موريس اللذين كانا قد أفشيا تفاصيل عن زواجنا لمارانيس، تملكني أسى شديد حتى عدت إلى تشغيل مواصفاتي (الثلاجية). رفضت الكلام مع بل لأسابيع، وتركته ينام في الطابق السفلي على إحدى الأرائك، حاولت تجنبه ما استطعت خارجة من الغرفة إذا دخلها، لم أرد أن أكون حيث يكون، عازفة عن القيام بأي شيء معه، وحتى تشلسي جُنت من أبيها للمرة الأولى في حياتها؛ أردت لَيَّ عنق بل إلا أنني فكرت بأن من الأفضل ألا أفعل؛ فإضافة إلى كونه زوجي، كان رئيس جمهوريتي.

باستثناء التعليق الوحيد الذي أدليت به في بداية الجلسة، بقيت -عمليًّا- ملتزمة الصمت الساعة كلها، شعرت بأن هيلاري كانت بحاجة إلى التنفيس عما في داخلها، لم تبدُ منتبهة إلى صمتي وغادرت في مزاج أفضل على ما بدا.

2013 12 23

واصلت مشكلات هيلاري البيت أبيضية تناميها كما شرحت لي في الجلسة التالية قائلة من البداية: ما جعلني أصاب باليأس أن انتحار فنس فوستر سرعان ما أصبح قنبلة سياسية موقوتة؛ ظلت وسائل الإعلام دائبة على سوق حشد من نظريات المؤامرة، على إطلاق التخمينات حول وجود خيانة، بل وحتى على الانحدار إلى مستوى الإسفاف بالكلام عن خطط قتل مزعومة، لم يخطر ببال أي من أولئك الإعلاميين على ما يبدو أن الحياة تغدو أحيانًا بالغة القسوة إلى درجة تجعل المرء رافضًا مواصلتها، ذلك شعور يراودني أحيانًا حين يتزاحم العالم كله ضدي.

نظرت إليها برعب.

قالت: لا تقلقي دكتورة؛ لن أفعل ذلك بتشلسي.

صدقتها وغرقت في بحر من الطمأنينة.

تابعت هيلاري: بعد ستة أيام من موت فنس عثر مستخدمو البيت الأبيض على رسالة الانتحار.

ثـم أضافـت بحـزن ماسـحة دموعهـا: كان فنس محقًّـا؛ ليسـت الحيـاة في واشـنطن إلا حفلـة قنص ثعالب كبرى، ولسـت أنـا إلا الثعلب الثـاني، فيما كان يتعـين علـى البلـد كلـه أن يعلن الحداد ويلتـزم به حزنًا على فقـدان موظف عام مهـم مثـل جـون فيتزجيرالـد كنـدي، جـي أف كـي (JFK)، كان النـاس عمليًّـا ميالـين إلى تصديق رواية أننا خططنا للمأسـاة؛ جزءًا مـن محاولة للتحول إلى حـكام دكتاتوريـين للولايـات المتحـدة، هل هـم مازحـون؟ بل العطـوف، صاحب القلب الدافئ، دكتاتور؟! ما هذا الدرك من اللاواقعية؟ غير أن النـاس مازالوا يصدقون تلك الخرافة.

تحملنـا؛ بـل وأنـا الإسـاءات اللفظيـة أشـهرًا، كانـت أثقـل وطأة ممـا عانى نكسـون، تعكـر مزاجـي كثـيرًا إلـى درجة أننـا أصبحنا ندفـع بعضنـا إلى خارج السـرير صباحًـا، وكمـا هي الحال مع جـل الأمور، خـفَّ الضجيـج تدريجيًّا إلى حـد العـودة إلى حياة بيت أبيض طبيعية، إذا كان شـيء كهـذا موجودًا. برنامج بـل الداخلي كان يسـير على مايرام، وأرقام اسـتطلاعات الرأي ارتفعت وبدأت تشـير إلـى احتمـال قدرتنا على انتشـال الرئاسـة مـن هجمات وسـائل الإعلام والجمهوريين الخبيثة.

سـأذكرك بإيجـاز ببضعة أمـور قليلة أنجزناها في تلك الأعـوام الأولى، من شـأن جزء كبير منها أن يكون مألوفًا بالنسـبة إليك؛ وضع بل توقيعه على قانون اقترحـه تضمـن إلـزام الشـركات التي يعمـل فيها أكثر من خمسـين مسـتخدمًا بمنـح العاملـين إجـازة تصـل إلى اثني عشـر أسـبوعًا بلا أجر في السـنة لمواكبة مشكلاتهم العائلية. أدرك بل مدى أهمية قدرتي على البقاء في البيت مدة أربعة أشهر بعد إنجاب تشلسي.

اسـتحدث برنامـج خدمـة قوميـة عـرف باسـم أمريكـورز قائم علـى تجنيد راشـدين لخدمـة جماعيـة مكثفـة مـن أجل مسـاعدة الآخريـن وتلبيـة حاجات

حساسة في الجماعة؛ فبل يتمتع بقلب كبير، وما استحداث الأمريكورز إلا برهان إضافيّ على ذلك.

هو يعرف أيضًا كيف يفكر من منطلق مبالغ هائلة من المال، على الرغم من أنه لم يسبق له قط أن أبدى أي قابلية لموازنة دفتر شيكاتنا، عمليًّا لا يعني المال شيئًا بالنسبة إلى بل، هو لا يبالي بامتلاكه وليس ضد كسبي له (المرة الوحيدة التي لم أعمل فيها منذ بلوغي الثالثة عشرة من العمر هي مدة الأعوام الثمانية التي أمضيتها في البيت الأبيض) غير أنه سعيد طوال بقائه متوفرًا على ما يكفي من المال لشراء الكتب، وحضور الأفلام السينمائية، والخروج وتناول وجبات العشاء كلما خطر بباله، والسفر، أما أنا– بالمقابل– فأشبه أبي، وأحس بقدر أكبر من الأمان حين يكون رصيدنا البنكي دسمًا، وفي وقت مبكر من حياتنا الزوجية تعلمت درس أن امتلاكنا لأي حساب مصرفي بالمطلق مشروط بمبادرتي أنا بالذات إلى ملئه.

إبان سنة بوش المالية الأخيرة كان العجز العام قد بلغ (290) مليارًا من الدولارات، نجح بل في اختزال الإنفاق الحكومي في خمس سنوات بمبلغ (255) مليارًا من الدولارات، وزاد الضرائب على المداخيل العالية بمبلغ (241) مليارًا من الدولارات، وفي ظل رئاسته انخفض العجز السنوي بحدة حتى تلاشى كليًّا في عام 1998م، نجح بل في موازنة الميزانية للمرة الأولى منذ عام 1969م!

كذلك عمل على توسيع اعتماد ضرائب الدخل المكتسب، ما وفر دخلًا بملايين الدولارات للعائلات ذوات المداخيل التي تقل عن (30) ألفًا من الدولارات.

وفيما يخص الشؤون الخارجية، حاول بل اجتراح السلام بين فئات وطوائف دينية وعرقية متنافسة في الشرق الأوسط وإيرلندا الشمالية؛ نجحت تدخلاته في وضع حد للصراع الديني في إيرلندا، كما في إبرام اتفاقية بين إسرائيل والأردن لإنهاء حالة الحرب الدائمة بينهما، وحين انهار البيزو المكسيكي في عام

1995م مهددًا بإخفاق الاقتصاد المكسيكي، سارع بل إلى اجتراح حزمة قروض بمبلغ (20) مليارًا من الدولارات لاستعادة ثقة العالم بالمكسيك، سُددت قبل موعدها بثلاث سنوات.

لم يكن اهتمام بل الرئيس بالسياسة الخارجية متمثلًا بالتدخل العسكري، ما يستدعي شعور الشعب الأمريكي بالامتنان، بل بالتحسينات الإستراتيجية على الصعيدين التجاري والاقتصادي؛ نجح في إنجاز اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية، التي اختزلت الرسوم الجمركية، وعمل من أجل التوصل إلى اتفاق تجاري عالمي عرف باسم الاتفاقية العامة للتعرفات والتجارة. رغم احتمال انحيازي ورغم إثارته لغضبي في بعض الأوقات، فإن بل كلنتون بنظري أحد أعظم رؤساء الجمهورية الذين شرفوا المكتب البيضاوي.

وكما تعلمين كان بل أحد أكثر حكام آركنسو إنتاجًا، واستطاع- بمساعدتي- أن يحقق سلسلة طويلة من الإصلاحات في التعليم العام، وولايته الطويلة اختُتمت بحقبة مطولة زاخرة بخلق فرص العمل والنمو الاقتصادي، وبوصفه رئيسًا للجمهورية نجح في تحسين الأحوال الاقتصادية للعائلات العاملة ذوات المداخيل المتدنية بمبلغ (20) مليارًا من الدولارات في السنة، موفرًا الضمان الصحي لأطفال تلك العائلات، ومقدمًا اعتمادات ضريبية لتغطية نفقات العمل والدراسة الجامعية. رئاسة بل كانت الحقبة الأطول للتنمية الاقتصادية المستدامة في تاريخ الأمة، بما في ذلك سنوات فائض الموازنة الاتحادية الأربع المتعاقبة. كان رئيسًا على قمة تفوق الولايات المتحدة في العالم، أمر لم يكن صدفة، ومن الممكن تبرير استمتاعه شخصيًّا بنعمة الإعجاب الكوكبي غير المسبوق.

لم يسبق للبلد أن عاش النعمة التي عاشها إبان رئاسة بل كلنتون. ولكن، ما الشيء الذي يخطر ببال مواطني الولايات المتحدة حين يُذكر اسمه أولًا؟ إنه موضوع مونيكا لوينسكي!

مهمـا كانـت نزعاته الطفولية، فـإن بل كلنتون كان رئيسـ جمهورية عظيمًا، أحيانًا لا ينتبه الناس إلى ما هم فيه من خير حين يكونون ميسورين، من المؤسف حقًّا أن الرئيسـ الذي خلفه لم يحذ حذوه، فلو كان جورج دبليو بوشـ قد فعل لما انزلق بلدنا إلى المستنقع الذي غرق فيه لاحقًا.

حتـى أنـا دائمة الإعجـاب ببل كلنتون، لم أدرك أنه كان قـد أنجز هذه المآثر كلهـا في رئاسـته، بحت بهذا لهيلاري قائلة: يجب أن تكوني اسـتثنائية الاعتزاز بزوجـك. أشـرقت ولمعـت عيناهـا وأكـدت: يا إلهـي! أنا شـديدة الاعتـزاز، على الـدوام كنـت على يقـين بأن في داخله رغبـة حقيقية في أن يكون رئيسًـا عظيمًا، ذلـك هـو مـا جعلني أقـترن به زواجًا، أخشـى أن يمـر قرن كامل قبـل أن يتمكن شعب الولايات المتحدة من الارتقاء إلى مستوى رأيي به.

لم يسـعني إلا أن أتفـق معهـا آملـة أن تكون قـد بالغت فيما يخص تقديرها للمـدة الزمنيـة المطلوبـة للوصـول إلى مسـتوى رأيها، وهـي تنهض عـن أريكتها قالت: حسنًا دكتورة، تقديري أنه حان وقت الخروج من علبة الصابون!

2013 12 24

قالت هيلاري: على الرغم من أداء بل الناجح وأحوال البلاد المحسَّنة كثيرًا، فإننا تعرضنا لوابل من تهم اقتراف الأخطاء على امتداد مدة رئاسته، ما الذي جرى للناس؟ لماذا لا يتركوننا وحدنا؟ لن أفهم السبب أبدًا، على الرغم من أن حدبتي هي أن الجمهوريين أدركوا أنه حقق نجاحًا رائعًا وأرادوا تمزيقه إربًا قبل حلول موعد الانتخابات التالية، هل تعرفين- يا دكتورة- أغنية بوب ديلان: المرجوم؟

حسنا، سيرجمونك حين تحاول أن تكون فائق الطيبة

سيرجمونك تمامًا كما سبق لهم أن قالوا إنهم سيفعلون

سيرجمونك وأنت وراء مقود سيارتك

سيرجمونك وأنت تعزف على قيثارتك

أما أنا فلن أشعر، إذن، أنني وحيد

لا بد للجميع من أن يُرجموا.

من المؤكد أن ديلان كان مغرمًا بالإصغاء وهو في البيت الأبيض، ومثله شعرنا؛ بل وأنا بأننا وحيدان؛ بعد نجاح الجمهوريين في الإمساك بزمام التحكم في مجلس النواب والشيوخ في انتخابات عام 1994م، أقدموا على تشكيل لجان برلمانية لإجراء تحقيقات بدت لا نهائية حول مخالفات مزعومة في البيت الأبيض.

راحت الاتهامات تتوالى: أحد المساعدين في البيت الأبيض كان قد جمع تبرعات لدى إدارته لوكالة بل الرائعة الأمريكورز؛ سكرتير بل الأول للزراعة كان قد قبل هدايا من شركات خاضعة لوصاية وزارته؛ وزير الإسكان والتنمية المدينية كان قد كذب أمام الكونغرس حول حجم الدفعات التي سددها لعشيقته، وكأن ذلك من اختصاصهم؛ وزير التجارة كان قد انخرط في صفقات مالية غير قانونية؛ وزير داخلية بل كان قد كذب أمام الكونغرس حول دوره في منح رخصة لأحد كازينوهات القمار؛ ووزير العمل في إدراتنا كان قد شارك في خطة للاتجار بالنفوذ حين كان مساعدًا في البيت الأبيض.

من اللافت أن أيًّا من التحقيقات لم يكشف عن أي دليل على وجود أنشطة غير مشروعة؛ ما الداعي لتبديد أموال دافعي الضرائب؟ راودني الشك بأن الجمهوريين المسؤولين عن التحقيقات لم يكونوا، هم أنفسهم، حتى مقتنعين بصواب الاتهامات، بل كانوا دائبين وحسب على إزعاج بل ومنعه من تحقيق أمور من شأنها أن تفيد شعب الولايات المتحدة.

كانت هيلاري قد رفعت صوتها حتى خشيت من أن تكون مسموعة في الممر، سرني أن باب عيادتي المزدوج كان يكتم الجزء الأكبر من الضجيج، راحت هيلاري تصرخ: ألم يكن عندهم أي شيء أفضل ينشغلون به؟ أبناء الكلاب أولئك ظلوا مصرين على تبديد وقتهم إضافة إلى أموال الحكومة على مطاردتنا نحن بدلًا من الاهتمام بشؤون البلاد وشجونه!

متعبـة من فرط غضبها هي، قامت هيلاري للمغادرة. عبارات وداعها قيلت بصـوت ألطـف: بالنظر إلى ما حققه بل وهو تحـت هذه الضغوط كلها، تصوري مـا كان مـن شـأنه أن ينجزه في ظل ظروف عادية! كان من شـأن وجهه أن يكون قد غدا منحوتًا على جبل رَشمور.

نظرتْ إلي وقالت: أعياد سعيدة!

قلت: لك أنت أيضًا!

2013 12 27

تابعت هيلاري كلامها في جلستها التالية قائلة: كانت المعركة البرلمانية التي لاتزال تمرضني إلى الأعماق حول الضمان الصحي القومي، كما تعرفين عينني بل رئيسة لفريق عمل دراسة الضمان الصحي، واقترح خطة من شأنها تغطية الجميع؛ بحسب اقتراحنا كان الناس سينتسبون إلى تحالف في كل ولاية للتعاقد مع شركات تأمين كانت ستعرض سياسات مختلفة.

عملت ليل نهار، جنبًا إلى جنب مع فريق عمل مؤلف من خمس مئة شخص، لإعداد أفضل خطة صحية تغطي الجميع في الولايات المتحدة مقابل ثمن يستطيعون دفعه، أخيرًا وضعنا برنامجًا أسعدني، في الحقيقة طرت فرحًا بالبرنامج، لكن فرحتي لم تدم طويلًا؛ لم يستغرق انتقالي من الشعور بالنشاط والخفة إلى الغرق في الكآبة سوى عام واحد، هل وافق الكونغرس على خطتنا الصحية؟ هل البابا يهودي؟

عبر الأجيال ظل الديمقراطيون يحاولون تمرير مثل هذا القانون، ففقراء كثيرون لم يكونوا مؤمنين وعاجزين عن توفير الرعاية المناسبة لصحتهم، بل كان بعضهم يقضي بسبب ذلك، من خلال وضعه بصمته الشخصية على إصلاح الرعاية الصحية، زوَّد بل الجمهوريين بحافز هزيمته (هزيمة مشروع

الإصلاح)، وإذلاله بدلًا من الإقدام على القبول بنوع من المساومة والحل الوسط، لم يكن- بالتأكيد- ما تعرض للهزيمة هو مشروعنا وحسب؛ فسائر اقتراحات إصلاح الرعاية الصحية الأخرى؛ اقتراحات كوبر، وموينيهان، وميتشل، وتشافي، وغراندي، وهي غيض من فيض كانت أيضًا ضحية عناد الكونغرس.

بدلًا من الاهتمام بصحة الملايين من الأمريكيين، بقيت المعارضة متركزة على ما يمكن أن يخسره أولئك المتمتعون بالعافية، شركات التأمين عارضت خطتنا، وكل جيل من الجمهوريين يتولى مهمة التصدي لتمرير الضمان الصحي القومي على نحو أشرس من الجيل الذي سبقه.

أنا محطمة القلب لأن جهدنا كله، مدعومًا بنوايانا الطيبة الصادقة، ذهب أدراج الرياح، وحتى اليوم فإن الديمقراطيين أقروا الرعاية الصحية رغم بقاء الجمهوريين على معارضتهم، كنت شديدة الرغبة في تمكين رئاسة بل من ترسيخ ما فعلناه خدمة لشعبنا، ولكن ما كان من شأنه أن يشكل كبرى مساهماتنا تعرض للرمي في المجاري الصحية، وبحسب ما أرى فإن إخفاق اقتراحنا الخاص بإصلاح الرعاية الصحية سيدخل التاريخ بوصفه الفرصة السياسية الضائعة الأكبر في القرن العشرين، إنها قصة مساومات مرفوضة، صفقات غير مستكملة، وأعضاء من الحزبيين كلهم مخفقون في دعم اقتراحات تولوا هم أنفسهم رعايتها على نحو مشترك.

سألتها: هل تعلمت شيئًا من هذه الهزيمة الكبرى في مجال الإصلاح الصحي؟

فكرت لحظة ثم قالت: ارتكبنا خطأين اثنين؛ حاولنا فعل أكثر مما ينبغي دفعة واحدة، وبالغنا في المماطلة والانتظار، وكانت النتيجة أننا لم نحقق شيئًا، ولو تعين علي أن أعيد الكرة، لاضطررنا إلى التقليص بل وحتى إلى التماس مساومة الجمهوريين، فعلى أي سياسي أن يتقن فن المساومة، كما سبق للرئيس

فرانكلين دي روزفلت أن قال ذات مرة. لو كنت سأفعل ذلك الآن، لما ترددت إزاء الدخول في صفقة حل وسط، في نوع من المساومة؛ فخطر عدم القيام بأي عمل أكبر من أخطار المساومة. وفيما يخص البرنامج السياسي، مؤسف حقًّا أن الرعاية الصحية تعين عليها أن تخلي مكانها لأولويات أخرى، إبان المدة الانتقالية وعامه الأول في المنصب، ظلت معركة الميزانية مصدر تهديد لرئاسة بل، ولم يكن أمامه أي خيار سوى التركيز عليها.

فريق العمل وأنا انفعلنا حين هدد بل الكونغرس بنقض أي شيء من دون التغطية الشاملة. مثل آخرين من مؤيدي الإصلاح، أخفقنا في إدراك أننا كنا -بانفعالنا هذا- نخاطر بخسارة كل شيء، افترضنا بسذاجة استحالة تعرض التغييرات الإيجابية نحو الأفضل للخسران، ومما يدعو للأسف والندم، أننا ما لبثنا أن تعلمنا درس أن الإستراتيجية والسرعة مهمتان في السياسة. على الضفة الإيجابية، جاءت الأزمان المتغيرة ومعها إمكانات جديدة، حتى مع أوباما كير، أقدِّر أن الرعاية الصحية ستبقى في قلب السياسة الأمريكية لمُدد زمنية طويلة مقبلة.

ربما كان إخفاق مشروعنا الخاص بالرعاية الصحية الهزيمة الأسوأ في حياتي، حتى أسوأ من خسارتي للترشيح الرئاسي في عام 2008م، وقد ألحق الأذى بملايين الأمريكيين جنبًا إلى جنب مع التسبب بجرح عميق لي شخصيًّا. لن أتجاوزه أبدًا.

2013 12 30

بدأت هيلاري كلامها قائلة: أخبرتك عن حشـد التحقيقات شديدة الإزعاج التي ظلت تطاردنا على امتداد مدَّتي بل الرئاسـيتين كلتيهما، وقد تمثل أكثرها إرباكًا بموضـوع صفقة عقـارات دخلنا فيها ببراءة عـام 1978م، في أثناء توليه منصب النائب العام في آركنسـو، بات التحقيق معروفًا باسـم (وايتووتر) نسبة إلى اسـم شـركة تطويـر الأراضي، شـركة وايتووتـر التنموية التي أسسـناها مع الزوجين جيمس وسـوزان كاكدوغال من ليتل روك، لا أسـتطيع أن أفكر بالاسم من دون رعشـة، نحن الأربعة اشـترينا مئتين وثلاثين فدانًا من البوادي القريبة من وايت ريفر وكروكدكريك في ناحية ماريون، ثم خسرنا إذ عجزنا عن تطوير المقاسم وبيعها.

ومع ذلك تمادوا بإصرار في اتهامنا بالاستفادة من جمعية ليتل روك للادخار والتسـليف التي كان ماكدوغال قد أسسـها في ثمانينيات القرن العشرين، والتي مـا لبثـت أن أفلسـت، هل تسـتطيعين أن تصدقي؟ تبين- بالطبـع- أننا أبرياء، غـير أن المحامي المسـتقل بقـي مصممًا على مقاضاتنا! نابشـين جروحًا قديمة، وسَّـعوا نطـاق التحقيق للغوص في انتحار فنس فوسـتر جنبًا إلـى جنب مع طرد مستخدمي مكتب سفريات البيت الأبيض.

مذعنًا لانتقاد الجمهوريين، طلب بل من النائبة العامة جانيت رينو في عام 1994م تعيين محام مستقل لجلاء قضية وايتووتر. ومن عينته كان محاميًا جمهوريًّا يدعى روبرت فيسك، أزاحته هيئة قضاة واشنطنية وعينت كنث دبليو ستار بدلًا منه، وستار هذا كان محاميًا عامًا في إدارة جورج إتش دبليو بوش (الأب)، وقد تولى مهمة إزعاج رجل بريء دائب على بذل كل ما يستطيعه من جهد لتحسين أوضاع البلد.

لا بد لي من أو أؤكد لك– يا دكتورة– أن أيًّا منًّا نحن والآخرين في إدارتنا، لم يدن بأي مخالفة في أنشطة ذات علاقة بوايتووتر، على الرغم من أنهم واصلوا ملاحقتنا القضائية. كذلك استنتجت التحقيقات أن فوستر كان قد انتحر، وأن طرد أركان مكتب السفر لم ينطوِ على أي مخالفة. من شأنك أن تظني أن ذلك كان كافيًا لجعل ستار يكف عن إزعاجنا، ولكنه لم يفعل، بل ظل يتابع إزعاجه مدفوعًا بنزعة انتقامية.

دأب عملاء ستار ووكلاؤه على إجراء الاستجوابات المطولة غائصين في خيانات بل الزوجية، كما لو أن الأمر كان يخص أحدًا سوانا؛ مستخدمة سابقة في وزارة التنمية الصناعية الآركنسوية تدعى باولا جونز رفعت دعوى في عام 1994م زاعمة أن زوجي كان قد تحرش بها في غرفة أحد فنادق ليتل روك عام 1991م، وبحماقة حكمت المحكمة العليا في الولايات المتحدة بعدم احتمال تمخض النظر في الدعوى عن إلهاء بل عن واجباته الرئاسية.

وفي عام 1998م إبان رئاسته، قامت لندا تريب؛ إحدى صديقات مونيكا لوينسكي الحميمات، بتزويد ستار بشرائط تسجيل تحدثت فيها لوينسكي عن علاقتها مع الرئيس، وبل يبقى مجرد طفل صغير! وعلى الرغم من أن قضية لوينسكي لم تكن ذات علاقة بأمور وايتووتر، فإن ستار برَّر الاستمرار موسعًا دائرة التحقيق زاعمًا أن الأمر كان جزءًا لا يتجزأ من أحد أنماط قيام بيت كلنتون الأبيض بعرقلة العدالة. في أيلول/سبتمبر عام 1998م، رفع ستار إلى

مجلس النواب تقريرًا مطبوعًا مطولًا عن حماقات بل مع لوينسكي، بما فيه محاولاته الرامية إلى إخفائها إبان إدلائه بالشهادة أمام هيئة محلفي ستار ومن خلال شهادة خطية قدمها في الدعوى المدنية التي رفعتها باولا جونز.

ما أثار رعبي أن لجنة المجلس القضائية اتهمت بل بـ (جنايات وجنح)، جديرة بأن تشكل أساسًا لاتهام أي رئيس وإزاحته، وساقت أربع مواد اتهام ضده. أما كيف نجونا من ذلك كله، فلن أعرف أبدًا. في كانون الأول/ديسمبر عام 1998م أقدم المجلس- مقترعًا من منطلق حزبي- على تبني مادتين: الحنث باليمين أمام هيئة محلفين وإعاقة العدالة، بأكثرية (228) مقابل (206) و (221) مقابل (212) صوتًا. كان الديمقراطيون، بمن فيهم أنا شخصيًّا، يظنون أن الاتهام لم يكن إلا نوعًا من الانتقام الثأري الجمهوري للإجهاز على رئيس جمهورية ذي شعبية.

لحسن الطالع، وحده مجلس الشيوخ وبأكثرية الثلثين، يستطيع إزاحة رئيس الجمهورية، في شباط/فبراير عام 1999م، بعد الاستماع إلى الحجج التي ساقها أعضاء البرلمان الجمهوريون والمدافعون عن رئيس الجمهورية، أسقط مجلس الشيوخ تهمة حنث اليمين بـ (55) مقابل (45) صوتًا، وانقسم المجلس نصفين (50) مقابل (50) بالنسبة إلى تهمة إعاقة العدالة.

أفاد ستار بأنه كان سيلتمس تهمًا جنائية ضد بل فيما يخص قصة لوينسكي بعد انتهاء مدة الرئاسة، إلا أن بل بادر قبل يوم واحد من ذلك- وبإلحاح مني- إلى إطلاق تصريح اعتذر فيه عن الإدلاء بشهادة غير صحيحة أمام هيئة المحلفين الكبرى، فأغلق ستار التحقيق. واستنادًا إلى اعترافه بالإدلاء بشهادة كاذبة والإجراءات المتخذة من قبل لجنة أخلاق المهنة/ أُجبر بل- ويا لأسفي- على التنازل عن إجازته التي تمكنه من ممارسة المحاماة في آركنسو.

يتساءل الناس بحيرة عما مكنني من تحمل وطأة الهجمات علينا؛ سألني أحدهم عن قدرتي حتى على النهوض صباحًا، وأنا على يقين بأن التهم باطلة،

بـلا أي أسـاس، لا فكـرة لديهـم عـن مـدى صعوبـة الأمر؛ انسـحق قلبـي، وكان الجميع يعرفون ذلك.

في قـرار بالـغ الصعوبـة، قرار أشـبه بتجرع السـم، اخترت الوقـوف مع بل، أقلـه في هـذا المنعطـف، قررت إنقاذه مرة أخرى، كرمـى لعينه هو، وكرمى لعين العائلة ومن أجل مصلحة البلد في الوقت نفسـه، لم أتوصل إلى اسـتنتاجي هذا علـى النحـو الذي تفعله امرأة صغيرة مثل تامي وينـت التي وقفت مع رَجُلها. أنا وقفـت مـع بل لأنني أحبه وأحترمه، وأقدِّر عاليًا ما تعرض له وما تعرضنا له من محن جنبًا إلى جنب.

إذا لم يكن ذلك كافيًا بنظر بعضهم، فليكن! كذلك يجب أن أعترف بحاجتي إليه قدر حاجته إلي، لأسـباب شخصية ومن أجل مستقبلنا السياسي؛ فلو هبط إلـى الأسـفل لجرني معه إلى الدرك؛ لذا كظمـت غيظي وابتعلت مهانتي ووقفت مع رَجُلي أقله في العلن، أما على الصعيد الشخصي فقد تمت إحالته من جديد إلى النوم على الأريكة مدة شهرين.

بعـد التوصـل إلـى ذلـك الاسـتنتاج، صرت أدعـم بـل وأؤيده على المـلأ كلما اهتديـت إلـى فرصـة، فمع اقـتراب موعـد تصويت المجلـس على قـرار الاتهام، توسـلت الجميـع طالبة ممارسـة المصالحـة بدلًا من السـعي لأخذ الثـأر، وحين طلـب إليَّ ريتشـارد غيبهـاردت أن أخاطـب أعضاء البرلمـان الديمقراطيين قبل التصويت على قرار الاتهام، ألقيت ما قيل لي إنه كان خطابًا مشحونًا بالعاطفة وفاعلًا، ناشدت فيه الديمقراطيين أن يقفوا خلف رئيسهم، قلت أنا أحب زوجي وأدعمـه، رغـم عـدم رضاي عن سـلوكه، عـبرت عن الإيمـان بعدم كـون توجيه الاتهـام علاجًا؛ لأن بل كان رئيـس جمهورية رائعًـا، رأيت أن علينا أن نمكنـه من مواصلة إنتاج تغييرات من شأنها إغناء حياة الأمريكيين.

يبـدو أن خطابـي لامس قلوبهـم؛ لم يبـادر أي ديمقراطـي إلـى عبـور خـط الحـزب للالتحـاق بركـب الجمهوريـين الدائبين علـى فعل كل شـيء بغية توجيه

الاتهام إلى بل، كان هذا نقيضًا صارخًا لما جرى قبل خمس وعشرين سنة حين التحق جمهوريون بركب الديمقراطيين الراغبين في توجيه الاتهام إلى ريتشارد نكسون، غير أن الواقع هو أن بل كلنتون رجل طيب القلب، لم يكن ريتشارد نكسون آخر، حمدًا للرب الذي لا يحمد على مكروه سواه!

زاد تقديري أكثر من أي وقت مضى لنصيحة إليانور روزفلت في السياسة؛ حيث يكون المرء بحاجة إلى جلد وحيد القرن (التمساح)، ومع أن درعي لم تكن صعبة الاختراق، فإنها تصلبت عبر الأعوام مع تكسر سهام النقد على نصال اللوم، حتى بت لا أصحو من ضربه إلا وتكون التالية قد وصلت، أتقنت فن وجوب امتلاك مشاعر الطامح إلى الفوز بالجائزة في الملاكمة قبل أن تبطحه اللكمة الأخيرة، مَن قال إن المرء يستيقظ يومًا ويقول: «لن أمكِّنهم مني اليوم»؟! ما من يوم إلا وكان أصعب على التحمل من اليوم الذي سبقه.

أضافت هيلاري: ما فاجأني وسرني أنني كنت قلقة من أن يفضي غلافي الخارجي المتصلب إلى حجب مشاعري الكامنة في العمق، تلك المشاعر التي تصرين دائمًا على استفزازها، تظنين أنني لست واعية لوجودها، إلا أنني طالما بقيت مطردة المراقبة لنفسي بحثًا عما يشير إلى تعطل قدرتي على بلوغ عواطفي، تعين علي أن أعرف حقيقتها كي أتمكن من رعايتها.

هل تعلمت ذلك مني أنا؟ تساءلت: ولم ترغب في إشعاري بالرضا بالاعتراف؟ أم أنها كانت واعية حقًّا للأمر في اللحظة؟ من يدري؟

في خطاب ألقيته في ذلك الوقت بكلية غاوتشر البلتيمورية، سألني أحدهم عما إذا كنت أرى أن التهم الموجهة إلى بل كانت زائفة. التزمت الخط الذي اعتمدته وقلت بالطبع كنت أراها كذلك، إلا أنني أضفت أن تعرض شخص تحبه لمثل هذه الهجمات والانتقادات يبقى مع ذلك مؤلمًا.

ثم سئلت عن سبب تعرض بل لمثل ذلك الهجوم، أذكر جوابي جيدًا؛ قلت كانت ثمة محاولة مكثفة لنسف وتقويض جملة إنجازاته الرائعة رئيسًا للجمهورية. خصومه هاجموه شخصيًّا، أضفت، لأنهم أخفقوا في هزيمته سياسيًّا.

في العمق، أنا واثقة من أن التاريخ سيتولى الكشف عن الحقيقة، عن أن بل كلنتون كان أحد أعظم رؤساء الجمهورية الذي كان بلدنا متوفرًا على ما يكفي من الحظ لينعم به. أحدث إحدى عمليات الإحياء الاقتصادي في التاريخ الأمريكي؛ أوجد تسعة عشر مليون فرصة عمل، ونجح في موازنة موشكة على التعرض للتدمير من قبل أسلافه، تاركًا فوائض قادرة على دعم الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية لسنوات قادمة.

بسبب اعتماداته الجامعية، تمكنت نسبة عشرة بالمئة إضافية من الالتحاق بالكليات. كل من هذه المكاسب قد لا يشكل زلزالًا وحده، غير أن من شأنها مجتمعة أن تشكل خطوة هائلة إلى الأمام، وهذا كله كان يتواصل فيما كان بل مشغولًا بعملية التعرض لتوجيه الاتهام! أي جمهوري أو ديمقراطي كان قادرًا على تحقيق مثل هذا النجاح؟!

غادرت هيلاري عيادتي مطرقة، كما لو لم تكن راغبة في تمكيني من رؤية عينيها.

2013 12 31

واصلت هيلاري سرد قصتها في جلستنا التالية قائلة: أوائل عام 1999م، بذلت محاولة لانتشال نفسي من قصة لوينسكي، متعبة من الصراع المستمر المميز للعيش في البيت الأبيض كما من التعلق بذيل بل، علي أن أقر، قررت الترشح لمقعد مجلس الشيوخ في نيويورك الذي كان يشغله السيناتور دانييل باتريك موينهان الذي كان موشكًا على التقاعد، نسجت تحالفًا بين جماعات أقلية مدينية، ديمقراطيي غيولياني، والناخبين البيض في شمال الولاية، قيل لي إن جمعها أمر مستحيل. ذلك يثبت أن على المرء ألا يصغي إلا إلى نفسه.

قلت: صحيح يا هيلاري، إصغاؤك إلى نفسك هو ما يجعلك قائدة.

ابتسمت وقالت: اشترينا البيت في تشاباكوا لتأسيس مسكن في نيويورك، وفي تشرين الثاني/نوفمبر عام 2000م، طرت فرحًا إذ انتُخبت عضوة في مجلس شيوخ الولايات المتحدة. كانت هذه وظيفة عشقتها من اليوم الأول.

أما بل فقد تقاعد بعد ترك الرئاسة في العشرين من كانون الثاني/يناير، افتتح مكتبًا في هارلم، وبدأ يكتب سيرته الذاتية، وكتاب حياتي نُشر في عام 2004م وأصبح الأكثر رواجًا؛ كسب كثيرًا من المال – أكثر مني خلافًا للعادة –

حصل بل على مبلغ عشرة ملايين دولار سلفًا، فيما لم أحصل أنا مقابل سيرتي الذاتية إلا على ثمانية ملايين! كانت المرة الأولى التي تنجح فيها حياة بل الفوضوية في كسب دخل كبير، من دون أن يعني ذلك أنه لم يكن على الدوام جديرًا بما هو أكثر. ومما سرنا أن مكتبته الرئاسية فتحت أبوابها في تشرين الثاني/نوفمبر عام 2004م على ضفة نهر ليتل روك، ابتهجنا لامتلاك مكتبة كاملة مكرسة لرئاسته.

ثم سافر بل كثيرًا حول العالم، ولاسيما إلى إفريقيا وآسيا؛ حيث أطلق محاولات لاستيراد الأدوية ومكافحة وباء الإيدز. وفي عام 2005م عينه الرئيس جورج دبليو بوش مع الرئيس الأسبق بوش لإدارة جهود الإغاثة الإنسانية لضحايا التسونامي الذي قتل أكثر من مئتي ألف إنسان على شواطئ المحيط الهندي أواخر كانون الأول/ديسمبر عام 2004م. وفي عام 2010م بادر بل وجورج دبليو بوش إلى إيجاد صندوق كلينتون/بوش لهاييتي؛ من أجل مساعدة أهل هاييتي بعد الزلزال الذي ضرب الجزيرة في كانون الثاني/يناير. هل تستطيعين أن تصدقي أن رئيس جمهورية جمهوري وديمقراطي سابقين تمكنا من التعاون بمثل هذا النجاح؟

بعد أن أصبحت سيناتورًا، أدرك حتى الجمهوريون الذين توقعت استقبالهم ببرود شديد أن بوسعنا أن نتعاون وراحوا يعبرون على مضض عن احترامهم لي، يبدو أن قاعدتي كانت هي الأخرى ناجحة؛ ففي انتخابات الـ 2000م أيَّد إطفائيو نيويورك منافسي الجمهوري على مقعد مجلس الشيوخ، أما بعد ست سنوات حين ترشحت لإعادة الانتخاب، فإن الإطفائيين بادروا علنًا إلى تأييدي قبل أن يقدم أي جمهوري بإلقاء قبعته (ها) في الحلبة.

ومع أني أديت قسم عضوية مجلس الشيوخ في الأول من كانون الثاني/يناير عام 2001م، فقد بقيت السيدة الأولى حتى العشرين من كانون الثاني/يناير. شغلت في الوقت نفسه ولمدة عشرين يومًا عضوية أحد فروع الحكم من

جهة وزوجًا لرئيس فرع آخر، مسجلة تفوقًا تاريخيًّا آخر بوصفي شاغلة هذين المنصبين في فرعين من فروع الحكم في وقت واحد، شعرت بشيء من الدوار وأنا أقفز من منصب إلى آخر، غير أن عزائي تمثل بأن الأمر لم يدم سوى عشرين يومًا. في السنة الأولى، عاكفة على العمل لفهم ولايتي ووظيفتي الجديدتين، تعمدت الاضطلاع بأدوار عامة متواضعة أنموذجية بالنسبة إلى جل أعضاء مجلس الشيوخ في سنواتهم الأولى.

فرحت كثيرًا بإعادة انتخابي في عام 2006م، إذ فزت بما يزيد على نسبة (67) بالمئة من الأصوات الشعبية في ولاية نيويورك؛ ففي تشرين الثاني/نوفمبر عام 2007م، كنت متمتعة بتأييد ستين بالمئة، وفي شباط/فبراير عام 2008م، تحدثت الواشنطن بوست عن كوني من أعضاء مجلس الشيوخ الأوائل العشر المطالبين بتأمين مخصصات اتحادية لولايتي، بما تمخض عن تحصيل مبلغ قياسي لنيويورك وصل إلى (342) مليونًا من الدولارات، وفي مجلس الشيوخ أصبحت معارضة قوية للحرب العراقية.

ثم راحت تفسر: على الرغم من تصويتي في عام 2002م مؤيدة الاجتياح الأولي، فإنني ما كنت (لو كنت أعرف ما أعرفه الآن) قد اقترعت موافقة، فيما بعد صوتت ضد الحرب، بما في ذلك زيادة حجم القوات، ومع النداءات الداعية إلى سحب القوات.

قلت: ماذا؟ رافعة رأسي. لم أكن مقتنعة مئة بالمئة.

تابعت هيلاري كلامها من دون التعليق على نزعة الشك التي عبرت عنها؛ إما أنها لم تنتبه وهو صعب التصديق، أو أنها لم تهتم، قائلة: أضفت تنوعًا واسعًا من الأسباب التي كانت مهمة لوجودي في مجلس الشيوخ، مثل توسيع نطاق تنظيم الأسرة وموانع الحمل إضافة إلى دعم الحؤول، من خلال التثقيف، دون الحمل غير المرغوب فيه. سارعت إلى التدخل حين كشفت وسائل الإعلام

عن أن لعبة فيديو شعبية متضمنة مشاهد إباحية، أثارت اشمئزازي. فعرض ذلك أمام أعين الأطفال غير جائز، أليس كذلك؟ غريب!

على الرغم من أن بل يتهمني أحيانًا بالاحتشام الزائد، فإنه لم يستطع أن يمنعني من المشاركة في رعاية قانون حماية التسلية العائلية الداعي إلى قدر أكبر من التشدد في (التصنيف) ووسائل أفضل لتطبيق التوجيهات النافذة. في آذار/مارس عام 2007م، اقترحت قانون عد الأصوات كلها في مجلس الشيوخ، الذي اشترط استعمال النسخ الورقية للأصوات الإلكترونية معيارًا لتكرار العد. كذلك زاد القانون من تشدد ضوابط أمن آلة الاقتراع الإلكترونية.

إبان عضويتي لمجلس الشيوخ كنت في عدد من اللجان الرئيسة، بين هيئات أخرى، كنت عضوة في لجنة القوات المسلحة؛ لجنة البيئة والأشغال العامة؛ لجنة الصحة، العمل، والمعاشات التقاعدية، وتكريمًا لأبوي الراحلين أسهمت في إيجاد لجنة خاصة لرعاية المسنين.

اقترحت (377) مشروع قانون بين كانون الثاني/يناير عام 2001م وآب/أغسطس عام 2008م. (323) منها قُتلت في اللجان، مكسبة إياي مرتبة (شديدة الضعف) في العلاقة مع زملائي - لا غرابة حين ترى مدى كُره الجمهوريين لي. اعتُمدت عشرة من هذه الاقتراحات فأصبحت قوانين، كما شاركت في رعاية (1858) مشروعًا آخر بقوانين.

في مجلس الشيوخ اقترعت وفق خط الحزب الديمقراطي في نحو (97) بالمئة من المرات، وبعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر المرعبة، شعرت باعتزاز لمبادرتي إلى إطلاق صندوق بمبلغ (21,4) مليارًا من الدولارات للمساعدة على إزالة الأنقاض وإعادة البناء، لتوفير المتابعة الصحية لمتطوعي موقع الحادثة (الغراوند زيرو)، ولإيجاد منح من أجل تنمية جديدة.

في عام 2005م، أصدرت دراستين عاينتا إنفاق أرصدة الأمن الوطني الاتحادي على اللجان المحلية وأوائل المستجيبين. أكدَّت زيادة القوات الأمريكية في أفغانستان والعراق في أثناء الحرب في تينك الدولتين، كثر كلام الجنود عني قائلين إني كنت أبدو مثل نجوم الروك.

على الملأ كما في عملي داخل مجلس الشيوخ، أصبحت أيضًا داعية قومية لرفع مستوى الخدمات الصحية الموفرة لقدماء المحاربين، وبوصفي نصيرة ولاية نيويورك، اضطلعت بقيادة جهد مدعوم من الحزبين لتوفير سبل الوصول العريض إلى المجتمعات الريفية، شاركت في رعاية قانون البحث والتطوير الخاص بتكنولوجيا النانو في القرن الواحد والعشرين، أضفت اللغة في مشروع قانون الطاقة لتزويد إنشاء المشروعات الواعية بيئيًّا بمرجعية ملزمة معفاة من الرسوم، واقترحت تعديلًا داعيًا إلى تحويل إيجاد فرص عمل جديدة لأعمال إصلاح المدارس العامة، تجديدها، وتحديثها. نجحت في كسب تمديد تأمين البطالة، الذي اعتُمد في اليوم الأول من دورة الكونغرس الـ (108).

كنت معارضة صريحة لتقليصات إدارة بوش للضرائب، دعوت إلى العديد من التغييرات التي ستحسن حياة النيويوركيين إلى الأبد، لا أظن أن ناخبي نيويورك أخطؤوا حين انتخبوني. (قالت بخجل، ثم أضافت) أو أعادوا انتخابي.

كتاب مذكراتي تاريخ عشته نشر في عام 2003م، وبيعت ثلاثة ملايين نسخة منه في طول العالم وعرضه؛ ومع مرور الزمن تُرجم إلى العديد من اللغات الأجنبية بما فيها الصينية، أخيرًا شعرت كما لو كنت كاتبة حقيقية، مهنة طالما كنت قد رغبت في احترافها، للأسف كانت مبيعات الكتاب أقل من عدد مبيعات كتاب بل، الأمر الذي لا يكف عن تذكيري به، فأرد عليه: «أنا لست منتهية بعد، يا بل كلنتون! سأكتب سفرًا آخر سيتفوق رواجًا على كتابك!».

حين تطلب بل جراحة قلبية فورية في تشرين الأول/أكتوبر عام 2004م، أُصبتُ بقدر هائل من الكرب، فألغيت برامجي العامة جميعها لأبقى بجانبه،

لازمت سـريره ممسـكة بيده أربعًا وعشرين سـاعة؛ تصور فقده كان مثيرًا لقدر استثنائي من الألم، وجدتني أفكر: إذا رحل فسأرحل معه! اكتشفت وأنا بجانب سريره أن حياته ورخاءه كانا أكثر أهمية من عملي ومنصبي، من قال إنني لست زوجًا وفية؟!

أومأت. رأيت أنها كانت زوجًا رائعة.

2014 01 03

للشروع في الساعة الجديدة قالت هيلاري: عام سعيد يا دكتورة.

وحين أجبتها: شكرًا، هيلاري. عام سعيد جدًّا لك أنت أيضًا! قالت بكآبة: لنتابع مع الأمور! ما رأيك؟ لست ممن يضيعون لحظة واحدة من الوقت.

صمتَتْ قليلًا ثم سألتْ مترددة: إذن ماذا ترين، دكتورة؟ هل تعتقدين أن تصرفات بل غير قابلة للصفح كما أرى؟

فكرت بسؤالها كثيرًا قبل الرد لمعرفتي أنه كان الموضوع الأخطر لتحليلها، وأن حصيلة علاجها كانت متوقفة على جوابي، كذلك كنت أعرف عجزي عن تزويدها بأي تطمينات زائفة؛ لأن العلاج التحليلي كله يجب أن يقوم على الصدق. فكرت بعمق بضع لحظات بمجمل ما كنت قد تعلمته عن الاضطرابات الشبيهة باضطرابات بل في سنواتي العديدة من التدريب والممارسة.

وحين شعرت أخيرًا بأنني جاهزة للإجابة، قلت: من شأن رد فعلي أن يفاجئك، غير أني لن أقول غير الحقيقة، وسأبوح لك – إذن – بما أراه بدقة؛ أنا آسفة للألم الذي لا يكاد يطاق الذي سببه لك ولابنتك سلوك بل، ومتعاطفة معكما بصدق حول ما فرضه عليكما؛ لا يجوز تعريض أحد لمثل هذه المحنة،

ولكن أجدني- رغم دناءة الأمر وخسته- مختلفة معك حول كونه أمرًا أخلاقيًّا مئة بالمئة، ولا أظن أن المسؤولية واقعة كلها على بل؛ إنه مدمن يلوذ بموضوعات إدمانه حين يكون مكروبًا، لكلّ أسلوبُه الخاص في التعامل مع المحن غير المحتملة؛ بعضهم يستقيل كليًّا، آخرون يغرقون في الكحول أو المخدرات، فيما ينحرف بعض ثالث نحو إساءة معاملة أزواجهم أو أولادهم.

يلوذ بل بعلاقات خارج الزواج لعلاج نفسه، لا أظن أن أحدًا كان قادرًا على الصمود أمام جملة التهم المتمادية، المرعبة التي سيقت ضده من دون أن ينكسر بطريقة ما، أشك أنني كنت أستطيع، ليس اللافت أن بل انكفأ، بل إنه كان قادرًا على الاضطلاع بواجبات منصب رئيس الجمهورية بالنجاح الذي أبداه في ذلك في ظل الضغوط الرهيبة التي أُجبر على العيش تحت وطأتها هذه الأعوام العديدة. كلها؛ أنا- مثلًا- ممتنة أبديًّا له على إنجازاته، وأتمنى أن يكون البلد اليوم في مثل الوضع الذي ترك فيه بل المنصب، آمل أن تتذكر أجيال الأمريكيين المستقبلية الوضع الجيد الذي ترك البلد فيه، وأن تنزلق قصة مونيكا لوينسكي إلى سلة الإهمال والنسيان التي تستحقها.

برقت عينا هيلاري، ونظرت إلي نظرة تقدير قائلة حين صارت قادرة على الكلام: شكرًا، دكتورة! أنت الوحيدة التي تضفي معنى، أي معنى، على سلوك بل، الوحيدة التي تتعاطف معه فعلًا، الآخرون جميعًا مشغولون بشجبه وتجريمه، ولم يسأل أحد قبلك عن سبب تورطه في مثل هذه الورطة الحمقاء، هل تقولين إنه كان مجبرًا على السير في الطريق الوحيدة التي يعرفها لإنقاذ نفسه من فيض الويلات الخبيثة التي نزلت عليه؟

أومأت.

أنا واثقة أنك على صواب، وأنا ممتنة، ولطالما قلت إن الجمهوريين كانوا عازمين على ضربه والإجهاز على رئاسته، كادوا ينجحون في ذلك، أستطيع الآن

أن أرى أن القصة لم تكن في الحقيقة إلا نوعًا من النكوص إلى أسلوبه القديم في علاج المشكلات.

أومأتُ ثانية، سعيدة بأنها استطاعت أن ترى الوجه الآخر للعملة، رغم الألم والمهانة.

صمتتْ برهة ثم قالت دامعة العينين: كما فهمت، أنت تعتقدين أن بل إنسان طيب في جوهره، ولم ينحرف إلا نتيجة طوفان الهجمات الجهنمية القاسية التي شنتها المعارضة عليه، إضافة إلى خساراته الشخصية.

أومأت من جديد.

قالت: أستطيع الآن استيعاب قصة مونيكا، أما هذه المرأة الجديدة في تشاباكوا فأكثر من قدرتي على التحمل، ما السبب الذي يجعله بحاجة إلى عشيقة جديدة الآن وقد عادت الأمور جيدة جدًّا برأيك؟

الأمور جيدة بالنسبة إليك أنت يا هيلاري، هل تستطيعين تصور مدى تأثير ترك منصب رئاسة جمهورية الولايات المتحدة مكللًا بالعار والتحول إلى مواطن عادي؟ إلى أين يمكنه أن ينحدر بعد أن كان رئيسًا للجمهورية؟ وهذا كله وهو يرى زوجه متنامية الشعبية والأهمية باطراد، ما من محنة أقسى من تلك بالنسبة إلى رجل نرجسي حتى النخاع؛ إنه يبحث عن علاج ذاتي من جديد وبحاجة إلى تعاطفك معه وإشفاقك عليه.

فكرتْ بعمق بما كنت قد قلته، وردت وخيط من الدموع على وجنتيها: في ضوء رأيك – دكتورة – الذي هو صدى حقيقي لأعمق مشاعري، أعتقد أنني سأهتدي إلى ما يجعلني أغفر له من قلبي.

أخذْتُ نَفَسَ انفراج عميق.

2014 01 06

قالت هيلاري بحماسة: سنبدأ اليوم بداية مشرقة بالكلام عن تشلسي، لا أستطيع الانتظار أكثر– يا دكتورة– قبل أن أحدثك عن ابنتي العزيزة، بلا أدنى شك هي الشخص الأهم في حياتي كما في حياة بل.

أنا أيضًا لم أكن قادرة على الانتظار أكثر؛ كنت تواقة للاطلاع على علاقتهما والوقوف على نوعية الأم التي كانتها هيلاري.

تابعت هيلاري الكلام: في وقت مبكر جدًّا من زواجنا بذلنا محاولات كثيفة لنصبح أبوين، كاد إخفاقنا أن يدمرني؛ لم أشعر قط بقدرتي على أن أصبح امرأة كاملة من دون إنجاب، كان ذلك بنظري الإخفاق الأسوأ في حياتي، وكل شهر كلما حل موعد (اللعنة)، كنت أغرق في يأس عميق، لم تبدُ الأمور واعدة؛ في صيف عام 1979م بادرنا إلى ترتيب موعد مع اختصاصي خصوبة شهير في سان فرانسيسكو بعد عودتنا من إجازة قصيرة في برمودا؛ ملاذًا أخيرًا، مباشرة بعد عودتنا وقبل موعدنا مع الاختصاصي، حصلت معجزة المعجزات؛ اكتشفت أنني حامل!

بل وأنا تابعنا معًا دروس لاماز (Lamaze) استعدادًا لولادة طبيعية، أعضاء الصف الدراسي الآخرون كانوا فخورين بكون اثنين من زملائهم هما حاكم ولاية آركنسو وزوجه، تمثل همهم الأول بالحمل، بل وأنا كلانا قارئان نهمان، فاندلقنا على دليل باري بريزلتون (Barry Brazelton) للأبوة والأمومة، تحدثنا عن حملي ليل نهار مع بعضنا كما مع كل من نستطيع حصره في الزاوية، التمسنا النصح من أصدقائنا ذوي الأطفال بل وحتى من ليسوا كذلك، ورحنا نمطر الأطباء، والممرضات، والقابلات بوابل من الأسئلة حتى صاروا يهرعون إلى دورات المياه حين يروننا قادمين، اكتشفت يومًا أن بل كان يتكلم بصوت مرتفع وطاب لي أن أسمعه وهو يطرح أسئلة عن قطتنا.

في السابع والعشرين من شباط/فبراير عام 1980م، بعد ربع ساعة من عودة بل من مؤتمر لحكام الولايات في واشنطن، وقبل ثلاثة أسابيع من موعدي، بدأ طلقي، أقسم بل على أنني كنت بانتظار عودته، لم يسبق لي أن رأيته على هذه الدرجة من الارتباك؛ بدا كأنه هو من كان سينجب مولودًا، كنت هادئة بالطبع، غير أن ذلك لم يدم طويلًا للأسف، وما إن وصلنا إلى المستشفى حتى قيل لنا إن ولادة تشلسي ستكون عسيرة، وسيتعين إخراجها بعملية قيصرية، لن أحظى بولادة طبيعية.

صرخت في وجه الطبيب متسائلة وقلقة حول احتمال تعرض مولودي لأي خطر، حاول الطبيب طمأنتي، إلا أنني لم أقتنع حتى حملت تشلسي بين ذراعيَّ، وأحصيت أصابع يديها الوردية الصغيرة العشر وأصابع قدميها الوردية الصغيرة. على الرغم من أن إحدى الممرضات اعترضت طريقه المفضية إلى غرفة الولادة، فإن بل لم يكن مستعدًا للامتثال لكلامها، أبلغها بأن من شأنها أن تكون قد ارتكبت خطأً فادحًا إذا لم تسمح له بالدخول، وحين احتجَّت زاعمة أن بل قد يغمى عليه لمرآى دمي، رد عليها قائلًا إنها مخطئة، وظل مصرًّا على رؤية ولادة ابنته.

بصـرف النظـر عـن أن بـل كان حاكمًـا لولايـة آركنسـو، فإنـه رجـل عملاق بصـوت مـدو، فحـين يرفع بـل صوته فـإن أحدًا لا يعـرف أنني حتـى موجودة في مكان قريب! لم تسـمع الممرضة احتجاجي الباهت على اسـتبعاده، أخيرًا سُـمح لبل بدخول غرفة الولادة ليمسـك بيدي، وعمدت إدارة المستشـفى بعد ذلك إلى تغيير سياستها في التعامل مع الآباء الراغبين في المساعدة على ولادة أزواجهم.

بفضـل دروس اللامـاز، كان بـل يعـرف مـا يتعين توقعـه وكيفية مسـاعدتي بالإمسـاك بيدي، وفرك ظهري، ومواكبتي في التنفس، ووضع الثلج على لساني حين أعطش، عانى معي مع كل انقباضة شعرت بها، بل وزعق كلما زعقت، يجب أن أقول إنني مستاءة قليلًا لأنه رأى من عملية الولادة أكثر مما رأيت أنا؛ وضع الأطباء حجابًا لمنعي من رؤية الجرح والنزف.

أيـن الإنصـاف في أن أتحمـل أنـا آلام المخاض كلهـا، وينعـم بـل بمشـاهدة العمليـة؟! كان المشـهد رائعًـا بالنسـبة إليـه؛ لم يسـبق لي أن رأيتـه بمثـل هـذه السـعادة التي تجلت حـين وضعت الممرضة الوليدة التي كانت بوزن سـتة أرطال (نحـو ثلاثـة كيلوغرامات) بين يديه فضمها إلـى صدره، كان ذلك أعظم حدث في حياتـه، لم يسـتطع بـل وضع الوليدة على السـرير طوال مـدة بقائي في غرفة الإنعاش، ظل يدور بها ويعرضها على أمه، على أصدقاء كان قد دعاهم، وعلى أعضـاء جهـاز العاملين في المستشـفى، راح يغنـي لها، يكلمهـا، ويناغيها دندنة، وكما أخبرني فيما بعد فإنه أراد أن تدوم تلك الليلة إلى الأبد.

أما أنا فوجدتني مشرقة جراء الإنجاب؛ «أنجبت طفلة كاملة» كانت الكلمات التي ظلت تتردد في ذهني، وهل من شيء أروع من إيجاد كائن بشري آخر؟

كنـا قـد اخترنا اسـمها في أثنـاء إجازتنـا الميلادية بلندن عـام 1978م، بعد سـماع جـودي كولنـز وهي تغني (صباح تشلسـي)، كلانا عشـق الأغنية وقال بل بفـرح: «إذا رُزقنـا بابنـة دعينـا نسـميها تشلسـي؛ لأن ذلك هو المكان الذي كنا نمشـي فيـه حـين سـمعنا الأغنيـة للمـرة الأولـى». كانـت إذن تشلسـي منذ تلك

اللحظة. قلت: حسنًا يا هيلاري، علينا الآن أن نتوقف، سنتابع قصة تشلسي في المرة القادمة.

صرخت بغضب: نتوقف الآن؟! تمامًا لحظة الدخول في أفضل الأجزاء! لماذا تتصرفين هكذا؟ أنت لست محللة؛ أنت سجَّانة؛ ما إن أصل عتبة الأشياء الحقيقية حتى تسارعين إلى حجبي! كنت آسفة لذلك، إلا أنها غادرت، مثل مرضاي الآخرين جميعهم منذ إطلاقي أولى ممارساتي.

2014 01 08

جاءت هيلاري إلى جلستها وبدت ناسية أنها كانت قد غادرت وهي غاضبة مني في المرة السابقة، قالت:

أقدر أنك أصبحت الآن تعرفين- يا دكتورة- أنني القلقة الأسوأ في العالم، ما أدى إلى بقائي شديدة الاضطراب طوال أشهر بعد ولادة تشلسي؛ كنت خائفة من احتمال عدم كوني أمًّا ناجحة؛ فبعض جوانب الأمومة لا تتناغم معي بسهولة، عانيت كثيرًا بسبب حضانتها وإرضاعها مثلًا، صديقتنا كارولاين ستيلي زارتنا نحن الثلاثة بعيد مجيء تشلسي، كانت كارولاين مغنية أوبرا، وألفت أغنية غنتها احتفالًا بميلاد تشلسي، كُتبت الأغنية بأكثريتها عن رهبة المخاض والولادة، كنت موافقة كليًّا على ذلك الجزء من الأغنية، إلا أن أحد الأبيات التالية هو الذي أشكل عليَّ، كانت قد كتبت «قد لا نكون جديرين، غير أننا سنحاول أن نتحلى بالحكمة». بدلًا من التعبير عن الامتنان لكارولاين على إبداعها من أجلنا، شعرت بكثير من الإهانة إذ وجدتني غير جديرة بالأمومة؛ إنها الحساسية المفرطة لأي أم جديدة مئة بالمئة!

ابتسمتُ، كانت هيلاري قد أحيت ذكريات حالتي الذهنية بعد الإنجاب، أخبرتها بأنها لم تكن استثناءً، بأن ذلك صحيح بالنسبة إلى نساء كثيرات، أنا

بوصفي واحدة منهن، عشت تجربة حساسية مفرطة مشابهة بعد الإنجاب، أطربها سماع أن (انقباضها) أمر عادي ومتكرر، وقالت إن ذلك جعلها تشعر بتحسن حول التدفق المدرار لدموعها في ذلك الوقت.

2014 01 10

مـا إن أصبحنـا في البيت، حتى بادرنا إلى اسـتئجار جيش مـن الحاضنات المربيات المتوافرات على مدار الساعة، لم نكن نعرف الساعة التي سنُطلب فيها لأمـر مهم، حاولنا تكريس أكبر قدر ممكن من الوقت لتشلسـي، كما فعل الأب والأم والأصدقـاء، جنبًـا إلـى جنـب مع عناصر جهـاز العاملـين في مكتب حاكم الولاية، أقسـمت على أن أفعل كل ما بوسـعي لأجلها وعلى وضعها فوق كل شـيء في حياتـي؛ كانـت أمـي قد فعلت ذلـك من أجلي، وسـأبقى مدينة لهـا بالامتنان إلـى الأبـد. منذ لحظة فتحهـا لعينيها الزرقاوين الواسـعتين وإدراكها لي، كانت تشلسي فتاة صغيرة مبكرة النضج، -خديجة إذا جاز التعبير-، لعلي استطعت رؤيتها وهي تتساءل: هل تلك هي أمي؟ لست واثقة من كون العبارة إطراء، بدأت تتكلـم مـع بلوغها الثانية من العمر، وما أكثر ما كانت تصرخ: «أين هي ماماي؟ أنا أريد ماماي!».

إبـان المـدة الرهيبة التي أعقبت خسـارة بل لانتخاب حاكميـة الولاية، كانت تشلسـي بـؤرة الضـوء الوحيـدة في حياتنـا. فيرجينيـا- أمُّ بل- وتشلسـي كانتا تعشـقان إحداهمـا الأخرى، بمـا جعلنا نمضي كثيرًا من الوقـت في بيتها، هناك تعلمت تشلسـي المشـي والكلام، ولقنت بل درسًـا لم ينسه قط؛ كان يحملها ذات يـوم وهو يتابع مباراة كرة سـلة علـى التلفاز. نادته بنعومة بابا! لا جواب من بل،

بابا، يا بابا! صاحت بصوت أعلى، مرة أخرى لا جواب من بل، ثم لاذت تشلسي بأسلوب أعنف؛ انقضت على أنفه وعضته بأسنانها الأربع، عوى وراح يراقب أنفه الذي تورم بسرعة، لا أظن أنه عاد إلى حجمه الأصلي، يمكنك استعراض صوره واكتشاف الحقيقة بنفسك!

قليلة هي الأشياء التي كانت تفوق طفلتنا العذبة من حيث الأهمية، حين تطلب عملي سفرات جوية متكررة بين ليتل روك وواشنطن، درجت تشلسي على انتظار عودتي قبل النوم، كان بل يمارس العزف على البيانو وكتابة الوظائف البيتية معها، منذ البداية وجهت جهاز العاملين معي طالبة منهم إبقاء ساعاتي بعد الظهر والمساء حرة قدر الإمكان كي أتفرغ لتشلسي، لم أكن أغادر منزل حاكم الولاية في تلك الساعات ما لم أكن مضطرة اضطرارًا مطلقًا.

حين كنت أعود إلى البيت فيما بعد، كنا أنا وتشلسي نجلس حول مائدة مطبخ العائلة العامرة بكتبها وننجز وظائفها البيتية معًا، وحين كنت بحاجة إلى البقاء بعيدة عن البلدة، كانت ترسل لي وظائفها بوساطة الفاكس، فأرد على أسئلتها بالفاكس أيضًا، كانت بيننا سلسلة طويلة من المناقشات على مائدة العشاء، في أثناء إيصالها إلى المدرسة، إبان ممارسة الرسم المخربش وغيره من الألعاب الأخرى، لدى الهتاف لها من المدرجات في مباريات كرة القدم، ولدى متابعة الأفلام معها، لاسيما تلك المفضلة عندها بياض الثلج والأقزام السبعة (Snow White & the Seven Dwarfs) و هاي نون (High Noon) (عز الظهر).

كنا؛ بل وأنا مصممين- إذا استطعنا- على أن نعفي ابنتنا الحبيبة من أن تعاني جراء انشغالاتنا السياسية، كثيرًا ما كنت أجبر نفسي على الاستماع إلى رواية لقصة نهارها الطويلة كتيار الوعي بوساطة الهاتف رغم كوني مهدودة من التعب عائدة ليلًا إلى غرفة الفندق غير راغبة في أي شيء سوى الارتماء على السرير، وإذا ما غفت عيني بين وقت وآخر كنت أتوجس من أن تكون تشلسي قد لاحظت، وحين أستيقظ كنت أجدها مستمرة في الكلام.

2014 01 13

في أثناء الضجة الكبرى حول خيانات بل؛ الواقعية والوهمية، كنا واثقين من أن تشلسي التي كانت في السادسة وقادرة على القراءة ومتابعة التلفاز، أن تسمع عاجلًا أو آجلًا أشياء شنيعة عن أبيها، فقررنا أن نلقنها لعبة تمثيل الأدوار لمحاولة إعدادها لمواجهة الحقائق القاسية لعالم السياسة؛ قلت لها إننا كي نبقى في بيتنا الجميل وقريبين من أصدقائها ومدرستها، تعين على أبيها أن يترشح لمنصب حاكم الولاية من جديد، وأن من شأن خصومه أن يقولوا عنه أشياء مرعبة.

لم تستطع أن تصدق أن أحدًا قادر على قول شيء سلبي عن أبيها، فشرحنا لها أن هناك أنذالًا في العالم مستعدين أن يقولوا أشياء رهيبة، مثَّلنا أدوارًا مختلفة لممارسة الأسلوب الذي يمكن لتشلسي أن تعتمده في الرد، تظاهر بل بأنه أحد أولئك الأوغاد الذين حدثناها عنهم، وراح يطلق عبارات بذيئة عن نفسه، وكان دور تشلسي أن تخبر الناس عن مدى روعة أبيها وعن أن عليهم أن يصوتوا له.

حرفيًّا كانت الدموع تغسل وجنتي تشلسي، وشعرت بالأسى إزاء ما كنا نعرِّضها له، ظلت تسأل: «ما الذي من شأنه أن يدفع كائنًا من كان إلى أن يقول مثل هذه الأشياء القذرة عن أبي؟».

مازلت عاجزة عن الاهتداء إلى جواب ذلك السؤال، إلا أننا تابعنا تكرار (اللعبة) مرة بعد مرة، إلى أن بتنا نراها متقنة فن التحكم في مشاعرها، بل ومستمتعة بأداء الأدوار، رجوت أن نكون قد نجحنا في تحييد الكلمات المرعبة التي كانت مرشحة قريبًا لأن تطفو على السطح عن بل، واقتنعنا بأننا كنا قد علمنا تشلسي ذلك النوع من عملية إزالة الحساسية العاطفية التي كنت قد تعلمتها على ركبة أمي قبل العديد من السنوات باستخدام ميزان زئبق النجار أداة.

صدقت التوقعات؛ فبعيد إنجازنا لأداء (لعبتنا) استأنفت الصحف هجومها العنيف على بل، عابرة حاجز مراقبة السوبرماركت كدت أتقيأ من رؤية مانشيتات الصحف الفظيعة عنه، إلا أنني بلعت غثياني وقلت لتشلسي التي كانت هي الأخرى تقرأ العناوين العريضة: «هذا تمامًا هو ما توقعناه في أي حملة سياسية، أليس كذلك، يا تشلسي؟».

قالت: «نعم ماما، لست ملزمة بقراءتها، وما إن أسمع أحدًا يتفوه بأشياء سلبية عن بابا على التلفاز، حتى أسارع إلى إطفاء الجهاز».

2014 01 15

قالت هيلاري: كانت تشلسي في السادسة حين اصطحبناها في رحلة إلى إنجلترا، أبدت رغبة شديدة في لقاء الملكة إليزابيث والأميرة ديانا، غير أن ذلك لم يكن سهل الترتيب في تلك الأيام، فأخذناها بدلًا من ذلك إلى معرض يقدم شريطًا مصورًا لتاريخ ملوك بريطانيا العظمى وملكاتها جميعهم، تابعت تشلسي الشريط باهتمام نحو ساعة كاملة، ثم قالت: «يبدو أن كون المرء ملكة أو ملكًا أمر صعب». الآن أتساءل: من أين خطرت لها تلك الفكرة بالمطلق؟

إبان رئاسة بل، قمنا بزيارة لتصويب العلاقة مع الرئيس الروسي بوريس يلسن، وأقام الزوجان يلسن حفل عشاء على شرفنا، رافقتنا تشلسي إلى السهرة بعد العشاء، وفي صباح اليوم التالي، غادر موكبنا الطويل الكرملين، وعلى نحو ما ومع كل الدهشة، لم يلاحظ أحد أن تشلسي، ومربيتها، ووكيل الجهاز السري لم يكونوا معنا.

مع خروج السيارة الأخيرة من الزحام، انتبه الجهاز السري إلى ما كان قد حدث، أحد العناصر هرع إلى سيارة بيضاء قديمة قريبة وتحكم فيها، ليتك تعرفين! إما أن السائق لم يكن يعرف الإنجليزية أو أنه كان ضعيف السمع، إذ

ظل يسأل: ماذا؟ وماذا؟. تعيّن على العنصر تكرار القصة مرات قبل أن تعني شيئًا بالنسبة إلى الروسي، ثم أقحم الأمريكيين في السيارة، فقفز هو إليها، وتجاوز الحواجز بسرعة إلى المطار، غير أن المشكلة لم تكن قد انتهت بعد؛ جهاز الأمن الروسي رفض السماح لهم بالدخول، صحيح أنهم تعرفوا إلى تشلسي غير أنهم لم يستطيعوا تصديق أننا كنا فعلًا قد تركناها، أنا أيضًا لم أستطع تصديق ذلك!

وفيما كانوا عاكفين على الخروج من حالة الاضطراب، انقضَّ أعضاء فريق تشلسي عليها وعلى حقائبهم وهرعوا كالمجانين إلى الطائرة، لم أكتشف أن ابنتي كانت مفقودة إلى أن رأيت الفريق متسلقًا سلم الطائرة، صرخت: «يا إلهي! كدنا نفقد تشلسي! هل تصدقين؟ كدنا نفقد تشلسي. أقسم على أنني لن أتركها تبتعد عني ثانية أبدًا!» وعانقتها، على امتداد الجزء الباقي من الرحلة.

كنا شديدي الولع بتشلسي إلى درجة أننا تحدثنا، حتى وأنا في التاسعة والأربعين من العمر، عن إنجاب طفل آخر؛ صرحت لأحد مراسلي التايم مثيرة دهشته، أننا كنا نفكر بإنجاب أخ أو أخت لتشلسي، فنظر إلي غير مصدق وتساءل عما إذا كنا نخطط لإنجاب الطفل على نحو طبيعي، شرحت أن من شأن الأمر أن يشكل مفاجأة سارة، غير أن من شأننا أن نبادر حتى إلى تبني طفل، شرط أن يتم ذلك بعد حملة عام 1996م لإعادة انتخاب الرئيس، وأنا أتابع المراسل المتفاجئ مبتعدًا، أطلقت ضحكة عالية، واستعرضت الطريق الطويلة التي قطعتها منذ سنواتي المبكرة حين كنت صعبة الإرضاء.

تبقى المراهقة مرحلة صعبة، إلا أن حياة أي مراهق أو مراهقة في البيت الأبيض مضاعفة الصعوبة، تعاطفت استثنائيًّا مع إليانور روزفلت التي عانت كثيرًا بسبب الأمومة؛ أولادها جميعهم آلوا إلى حياة مضطربة، وإليانور قالت

مـرة إنها كثيفة الانشـغال بضبط أولادها فلم يبـقَ لها الوقت اللازم للتعبير عن حبهـا لهـم. تعـيَّن علي أن أحذر مـن خطر التحول إلـى أم مثلها؛ لأننـي كنت أنا المسـؤولة عن التربية وتلقين الانضباط فيما كان بل على الدوام الطرف الدافئ والمحب لتشلسي، ساحرًا إياها بمناقشاته الموسعة، ومعارفه الغزيرة، وقصصه الممتعة.

في لحظـات كآبتـي، نادمـة أنا على أنه احتكـر المتعة كلها تـاركًا أمر الضبط والتربيـة لي. تعرفـين قصـة الأبطـال والحرامية؟ أو أسـطورة الشـرطي الخيِّر ونظيره الشـرير؟ ثمة بالمقابل أب عطوف وأم قاسـية أو العكـس، لك أن تقدري أي الزوجين كلنتون كان الشـرطي الشـرير؟ صحيح أنني لم أجبر تشلسـي على الخـروج إلـى الجليد والثلـج للبحث عن غطاء عبـوَّة معجون الأسـنان، إلا أن لمَّ البوشـار المسـكوب على أرض البيت الأبيض كان مثالًا أقل قسوة لذلك النوع من التفكير، لم أكن راغبة في أن أبدو غولة بنظر ابنتي، ما جعلني شـديدة الارتياح إلـى كلام كبير مسـاعدي بل؛ بروس لندسـي الذي قـال لبعض أصدقائي إنني كنت أمًّا دافئة ورقيقة.

كانت تشلسـي مراهقة طبيعية تمامًا، ما أدى إلى جعل سـلوكها غير متناغم دائمًا مع مزاجي، كنا؛ تشلسـي وأنا، نتأهب للذهاب إلى ممارسـة رياضة المشي في أحـد متنزهـات البيـت الأبيض، نزلت تشلسـي درجات سـلم البيـت الأبيض مغطـاة عمـدًا بمعطف طويل، وعند المغـادرة طلبت رؤية ملابسـها، أزاحت ذيل المعطف واكتشفت، ويا للهول!، أنها كانت ترتدي ملابس غير محتشمة، للأسـف كان وقت تغيير ملابسـها قد فات، وكان من شـأنها بوصفها مراهقة، أن ترفض ذلك– ربما– على أي حال.

لـن أنسـى مشـيتها المتباهيـة في منتصف الممشـى مـن دون معطفهـا وعيون وسـائل الإعـلام متركزة عليها؛ بعض المراسـلين صفقوا بصخـب لدى مرورها، ومـاذا عـن محاولة إبقائها بعيدة عـن أعين الجمهور؟! اكتفت تشلسـي بالتلويح

والابتسام من دون أي حرج، وبدت سعيدة وواثقة. أما أنا فلم أكن؛ رحت أتصور العناوين العريضة التي ستحدث انفجارًا: «هيلاري تسمح لتشلسي أن تمشي نصف عارية في المتنزه!». لحسن الطالع لم يحصل ذلك، وحين لذت ببل شاكية من سلوك ابنته، اكتفى بإطلاق ضحكة قائلًا: «كفى تزمتًا، يا موسوسة!».

لن أكرر ردي عليه.

2014 01 17

لم يكن أي شـيء أكثر أهمية بالنسـبة إلي من أن تعيش تشلسي حياة طبيعية قـدر الإمـكان في البيـت الأبيض، في ليتل روك كانت قد تابعـت التعليم في إحدى المدارس العامـة، وقادرة على فعل الأشـياء كلها التي يفعلهـا الصغار الآخرون، غير أن ذلك لم يكن- على ما بدا- ممكنًا بالنسـبة إلى ابنة رئيس للجمهورية؛ لم تكن تشلسـي مبتهجـة إزاء بقائها مطوقة ومظللة بحشـد من عناصر الجهاز السري على امتداد أربع وعشرين ساعة في اليوم.

حتى قطتها (سوكس) كان لابد من اقتيادها برسن عند الخروج، حاولت أن أمكن تشلسـي من التوفيق الصعب بين الانخراط في الفعاليات الطبيعية والنأي بالنفس عن خطر الحالات الذهنية المحتملة (العقد النفسية المحتملة).

مـن الـذي يمكننـي أن أستشـيره؟ فكرت. من يمكـن أن يعرف؟ ثـم تذكرت جاكي كندي أوناسيس، كنت شديدة الإعجاب بالأسلوب الذي اعتمدته في تربية أولادها في البيت الأبيض، فقررت التماس النصيحة منها.

جاكي وأنا كنا متشابهتين من نواحٍ كثيرة؛ كلتانا امرأتان متحفظتان، مع روح دعابـة لا تعـرف معنى الخجـل في العمق، كانت جاكي سـريعة البديهة والفطنة،

وعُرفت أنا لدى صديقاتي بأني مقلِّدة خطيرة، كلتانا كنا مغرمتين بتقديس أصحاب الذكاء والفطنة من الرجال، وما ليس غريبًا عن صداقتنا المتنامية أن كلًّا منا كانت قد اقترنت وهي على علم بزير نساء، ما لبث أن أصبح رئيسًا للجمهورية.

ما إن رفعت هي نفسها السماعة حين اتصلت، حتى أصرت على دعوتي إلى تناول وجبة الغداء معها في شقتها الأنيقة الواقعة في الشارع الخامس (الفيفث آفنيو)، فأوصلني الجهاز السري إلى بيتها، حيث استقبلتني جاكي عند مدخل الطبقة الخامسة عشرة للمصعد، وجدتها أطول، ناحلة أكثر، وأجمل من صورها، وكما على الدوام كانت بالغة التأنق في الملبس، بسروالها الحريري الرمادي الفاتح وقميصها المناسب طرازًا ولونًا، لم تكن أقل إشراقًا وهي في الثالثة والستين من العمر منها حين كانت سيدتنا الأولى.

سرني أن أجد بيتها دافئًا ومريحًا، زاخرًا بالكتب، وبالرسوم، والأعمال الفنية، بدلًا من مكان صمم لاستعراض صرعات ديكور المجتمع الأخيرة، مباشرة سحرني حضورها. فكرت بلهفة: إنها ملكة أمريكا حقًّا، وأنا مجرد فتاة صغيرة من إيلينوي عبر نيوهافن وليتل روك، كيف أستطيع أن أحذو حذوها في أي من الأوقات؟!

غير أنه سرعان ما جعلها حدسها الممتاز تحس بهواجسي، فبادرت فورًا إلى طمأنتي، بدت كما لو كانت عارفة سلفًا الأمر الذي جئت لأبحثه معها، فبدأت تتكلم عن سنواتها وهي سيدة أولى، حين وجدت نفسها مشوشة ووظيفتها غير محددة، أذكر أنها قالت: «لايوجد أي كتاب قواعد يمكن أن يتعلم منه المرء فن الاضطلاع بدور سيدة أولى، يتعين على المرء اجتراح القواعد ذاتيًّا، ليس الأمر سهلًا، وإذا كنت دون الخامسة والعشرين فأنت من جيل إكس المفتقر إلى الكفاءة؛ وإذا كنت فوق الأربعين فأنت من كثيرات الأولاد الأنانيات؛ وإذا كنت ليبرالية، فأنت صاحبة قلب نازف؛ وإذا كنت محافظة، فأنت بلا قلب كليًّا».

أضفت «نعم، وإذا كنت رئيس جمهورية ديمقراطي من آركنسو، فأنت كل أولئك بالتناوب، تبعًا لليوم الذي أنت فيه». ضحكت جاكي وأكدت لي أنها فهمت ما قصدتُه.

صقلها القائم على سعة المعرفة للبيت الأبيض ساعد على تمكينها من تحديد دورها لنفسها كما للرئاسة الكندية، وأسهم كثيرًا في شيوع أسطورة كاميلوت (Camelot). تساءلت عن الأسلوب الذي من شأني أن أعتمده لتحديد دوري بوصفي سيدة أولى لنفسي، راودني كثير من الشك حول مدى قدرتي على الارتقاء إلى مستوى الدور اللامع، بالغ الأصالة الذي اجترحته جاكي لنفسها بوصفها سيدة أولى.

تناولنا الغداء حول مائدة في زاوية غرفة معيشتها المطلة على الأشجار الفخمة للحديقة المركزية (السنترال بارك) ومتحف المتروبوليتان للفنون، وناقشنا أسلوب تحصين تشلسي ضد وسائل الإعلام، وإلا فإن الأخيرة ستدمن مطاردتها. أخبرتني جاكي بما كانت قد فعلته لحماية كارولاين وجون، وقالت إن على موضوع توفير حياة طبيعية لتشلسي أن يشكل أولى أولوياتي، نبهتني إلى أن علينا أن نمكن تشلسي من النمو بل وحتى من ارتكاب الأخطاء، مع الاستمرار الوقت كله في تحصينها ضد الحضور الدائم للمراسلين، أفادت جاكي بأن ولديها كانا محظوظين بكونهما محاطين بعدد من أبناء وبنات العمومة وأولاد الأصدقاء والصديقات، ومن شأن الأمر أن يكون أصعب بالنسبة إلى تشلسي؛ لأنها وحيدة العائلة.

قالت لابد لي من حمايتها وإبقائها محاطة بالعائلة والأصدقاء والصديقات، غير أن إغراقها بالدلال لم يكن أسلوبًا ناجحًا، تعين علي أن أبتسم عند سماع ذلك التعليق، لم يكن حصول تشلسي على كثير من الدلال احتمالًا واردًا وأنا ابنة أبي، ربما يجب أن أدعو جاكي إلى الكلام مع بل، خطر لي. حذرتني من

النسـاء اللواتي سيحاولن نسـج صداقات لأولادهن مع تشلسي للوصول إلى بؤرة الضوء.

عبرتُ لجاكي عن عميق امتناني على إيجاد فسـحة عشـاء في الطبقة العليا مـن البيـت الأبيض، وأخبرتهـا باعتزامنا قلب حجرة السـاقي إلى مطبخ صغير نستطيع الاسترخاء فيه على نحو أقل رسمية من غرفة الطعام الرئاسية. وافقت بكل صدق. حدثتها عن مدى صعوبة صون حياة طبيعية لطفلة في حوض سمك، وبلباقة قالت جاكي إنها كانت قد سمعت عن مدى نجاح تشلسي في التكيف، وإن علي أنا أن أستمر في ما كنت دائبة على فعله، فشعرت بدفقة دفء إزاء صديقتي الجديـدة، وعنـد المغادرة تبادلنـا عناقًا وديًّا طويلًا، وبقينـا على اتصال هاتفي لأعوام لاحقة؛ ظلت منبع عون وإلهام بالنسبة إلي حتى رحلت.

2014 01 20

مع بلوغ تشلسي الخامسة عشرة من العمر وتطورها إلى عروسة مشرقة مجسدة للفرح، قمنا برحلتنا المطولة الأولى في الخارج وحدنا من دون الرئيس، كان الأخير قد طلب إليَّ أن أقوم بزيارة اثني عشر يومًا رسمية لجنوب آسيا؛ لأنه أراد أن يشرف على تنمية علاقات جيدة مع الهند بعد سياسة الهنود القائمة منذ أربعين سنة على عدم الانحياز للولايات المتحدة، وتوثيق الروابط مع روسيا على امتداد حقبة الحرب الباردة. وزارة الخارجية وافقت على زيارتنا، إذ عدَّتها طريقة لتسليط الضوء على التزام الإدارة بالمنطقة، وأنا أردت توسيع نطاق حملتي الصليبية الفاعلة ومدها إلى حقوق المرأة.

كانت الرحلة متعة، نعمة خاصة، بالنسبة إلينا، تشلسي وأنا كلتينا؛ دُهشت لرؤية هذا الجزء الجديد من العالم، وأنا واثقة من أن رؤية العالم الجديد بعينيها الشابتين النضرتين كانت ستضاعف من فرحتي؛ عيناي أنا كانتا قد تعبتا بعد أعوام من متابعة السياسة الواشنطنية. حطت طائرتنا في إسلام آباد الباكستانية بعد رحلة جوية دامت سبع عشرة ساعة.

كما تعلمين لم يسبق لنا قط؛ الصحافة وأنا، أن كنا صديقتين حميمتين، فوجئت بأن ذلك تغير قليلًا في أثناء رحلتنا، مثل جاكي كندي وولديها كنت على

الدوام قد حاولت حماية تشلسي من النشر والأضواء الإعلامية؛ للحفاظ قدر الإمكان على حياتها الطبيعية، كل ما كان يحدث على الطائرة وفي الفنادق كان محظورًا دائمًا عليها، مثل كل شيء تفعله أو تقوله وحدها، أما في الهند فقد كان إبقاء تشلسي بمنأى عن وسائل الإعلام أمرًا بالغ الصعوبة، تقاسمنا العديد من اللحظات نفسها؛ ولائم العشاء الحكومية، وزيارات الأمكنة التاريخية المهمة، ولقاءات النجوم والمشاهير.

للمرة الأولى في حياة تشلسي، كانت الصحافة قادرة على رؤية تشلسي عن كثب، وقد أثارت إعجابها الشديد بطلّتها وجرأتها إضافة إلى كونها ذات شخصية خاصة جدًّا، تابعها الإعلاميون وهي تزور بلطف رضعًا يعانون نقص التغذية، رضعًا بالغي الهشاشة جافلين من أقل لمسة، رأوها آنسة واثقة بنفسها، متأنقة تتناول وجبة العشاء مع رئيس الوزراء، سجلوا أسئلتها البارعة وتعليقاتها الرؤيوية النافذة.

مراسلون كُثر توسلوا راجينها أن تسمح لهم باقتباس كلامها، أخيرًا لدى زيارة تاج محل، تعين علي أن أذعن؛ تعليقها كان مفعمًا بالحكمة فرأيت تمكين العالم من سماعه لازمًا، قالت وردد الصحفيون ما قالته: «في صغري كان هذا التجسيد الحي لقصور الأساطير الخيالية بالنسبة إلي، كنت أرى صور تاج محل ثم أنام فأحلم بأنني أميرة، والآن وأنا هنا فإن المكان مدهش جدًّا كما كنت قد حلمت به تمامًا».

وهل كنت قادرة على منع العالم من الوقوف على مدى روعة تشلسي؟

أدركتُ بدقة ما عنته. حتى اليوم أظل أتباهى بإطراء أولادي على مسامع كل من أستطيع حشره في الزاوية.

2014 01 22

في أثناء الرحلة ذاتها جاءتني تشلسي بوجه بالغ الغرابة. (تابعت هيلاري كما لو كانت الجلستان متواصلتين بلا انقطاع).

سألتها عما إذا كان قد حصل خطأ ما. قالت: إن ما حصل خطأ بمقدار ما هو غريب؛ عنصر من الجهاز السري كان قد أبلغها بأن الفندق أفرغ المسبح لملئه بماء فوار لنا نحن فقط، ضحكت وقلت إنهم يمزحون، غير أن عنصر الجهاز السري لم يكن- على ما بدا- مازحًا؛ في اليوم التالي عادت تشلسي إلي وعلى وجهها ابتسامة مصطنعة لتقول لي إن الهنود كانوا قد رصفوا طريقًا ترابية؛ لأننا كنا نخطط للسير فيها. «ما هذا يا جاكي؟!» قلت في نفسي، «هل أستطيع توظيف نصيحتك اليوم؟! كيف لي أن أحمي تشلسي من فساد الدلال إذا كانوا يرصفون طريقًا كي لا تسير في الوحل؟!». لم يكن الأمر مسعفًا لدى قيامنا بمسيرات طويلة بين التلال المشرفة على المدينة، فيما جحافل من البشر تنتظر على جانبي الطريق للترحيب بنا تصفيقًا عندما نمر. فكرت، «علي ألا أحلم بما هو أكثر من بقاء تشلسي متوازنة العقل بعد مثل هذه التنشئة».

2014 01 24

عدنا من آسيا في الوقت المناسب لذهاب تشلسي إلى المدرسة، باتت في الخامسة عشرة، وراحت تتصرف مثل المراهقات أكثر فأكثر، يومًا بعد يوم، تذكرت ما قالته لي جاكي عن كارولاين مراهقة: «هي تعرف كل شيء، أنا لا أعرف شيئًا». أدركت بدقة ما عنته جاكي، صوت خافت في أعماقي طالبني بأن أكون سعيدة بكون تشلسي طبيعية التصرفات بحسب سنها، إلا أن صوتًا أكبر صرخ قائلًا: «ما الذي جرى لفتاتي الصغيرة التي لم تكن تأتي بأي حركة في أي وقت من دون إذن أمها؟ أين هي؟ أفتقدها!».

ظلت تختبر استقلالها، اختبارًا بات- يجب أن أقر- استثنائي الصعوبة بالنسبة إلى مراهقة جراء تعرضها للتعقب الدائم، دقيقة بعد أخرى من قبل عناصر الجهاز السري، بله أم مولعة بحبها شديدة المبالغة في توفير الحماية لها. أخيرًا ضربت الأرض بقدمها وقالت: «أنا أريد أن أركب مع البنات الأخريات، لا أريد أن يتم إيصالي مثل كائن استثنائي في سيارة بقيادة عناصر الجهاز السري!». أحيانًا يكون المراهقون محقين، وعلى صعوبة الأمر، وجدت رأيها صائبًا فأذعنت.

مثل الفتيات الأخريات اللواتي في سنها، كانت حياة تشلسي دائرة حول صديقاتها، حول المدرسة، وحول الكنيسة، وحول الباليه؛ كانت تشلسي تعشق الباليه، وكل يوم تأخذ دروس باليه بعد المدرسة لبضع ساعات في إحدى مدارس الباليه الواشنطنية، آنذاك أرادت أن تصبح راقصة محترفة، إلا أنني لم أخبرها بأن حظوظها في النجاح، لاسيما بوصفها ابنة رئيس جمهورية، لم تكن عظيمة، تصورت أن كل فتاة تحلم بأن تصبح ممثلة، أو راقصة، أو مطربة غناء حين تكبر، ولابد لتشلسي من أن تتجاوز ذلك الطموح سنًّا آخر المطاف، أحمد الرب أنني كنت على صواب.

أنا لست هاري ترومان الذي بالغ في توبيخ الناقد الموسيقي الذي تجرأ على انتقاد غناء مارغريت ترومان، مع أن بل كان من شأنه أن يكون، سعيدة أنا إذ لم أضطر للاشتباك مع كليهما حول الموضوع كما فعلت جاكي مع جون الابن عندما أراد أن يصبح ممثلًا، وبعد حصص الباليه، كانت تشلسي تعود لتنكب على تلال الوظائف البيتية المفروضة على طالبات السنة الثانوية الثانية اللواتي أصبحن على عتبة الالتحاق بالكلية، في الدراسة الجامعية، وبكل ما عندي من خبرة تعليمية رأيت أنني قادرة على مساعدتها كثيرًا في عملية الانتساب إلى الجامعة.

ولكن هل تظنين أنها أرادت مساعدتي في ملء استمارات انتسابها؟ لا، أعلنت بوضوح كامل أنها باتت في سن يؤهلها للاهتمام بشؤونها الخاصة، وأنَّ علي أنا أن أكف عن امتطاء كتفها! يحرجني أن أصارحك- يا دكتورة- بأنني أويت إلى الفراش وبكيت إلى أن أخذني النوم، وبعد قضاء بضع ليالٍ على هذا النحو، قررت أن تشلسي كانت محقة في أن تكون ذاتها، وقررت أن أمتثل لرغبتها، وواظبت على ذلك، أقله جل الوقت.

صعبٌ أن يُصدق، ولكن تشلسي صارت في السادسة عشرة من العمر، وما أفزعني أنها أرادت أن تتعلم قيادة السيارة، والأكثر سوءًا هو أنَّ بل نفسه كان

سيتولى تعليمها، في الحالات العادية لم يكن الجهاز السري يسمح لبل بالقيادة، وهو أمر رأيته جيدًا، كان ذا عقلية شبيهة بعقلية جامع القمامة الذي يراكم كميات هائلة من المعلومات بما يبقيه، في أي لحظة معينة، عاجزًا عن رؤية الجهة التي يتقدم نحوها، غير أنه أصرَّ على القيام بواجبه الأبوي، وأغوى الجهاز السرِّي تملقًا حتى أعاره إحدى السيارات في كامب ديفيد؛ لأن أيًّا منهما لم يبالِ بمخاوفي.

تركز درسها الأول في القيادة على الرجوع إلى الخلف والركن الموازي، لذت بسرير النوم ورأسي تحت الأغطية، بعد الدرس سألت: «كيف كان الدرس؟». اكتفت تشلسي بقول إن أباها كان قد تعلم أشياء كثيرة. أطلت النظر إليهما كليهما بإمعان، غير أن بل بدا مشمئزًا قليلًا!.

2014 01 27

بدأت هيلاري تقول: بعيد تعلمها القيادة، صادفت تشلسي وثلة من صديقاتها عاكفات على مناقشة أين كن سيتقدمن بطلبات الانتساب إلى الكلية. فكرت: ماذا؟ حان وقت ذلك؟ بالأمس القريب جدًّا كانت في حضني ونقرأ القطة في القبعة (The Cat in the Hat) معًا. ليت تلك الأيام تعود من جديد! باتت بطولي ومن الصعب إجلاسها في حضني. رغم الألم الذي شعرت به إزاء احتمال مغادرتها للبيت، صممت على إخفاء مشاعري راجية أن يقع اختيارها على إحدى الكليات القريبة بما يمكننا - أقله - من قضاء العطل الأسبوعية معًا.

تعقد مدرسة أصدقاء سيدول أمسية جامعية كل سنة تدعو إليها خطباء مؤهلين يتولون مناقشة أحوال الكليات المختلفة وعمليات الانتساب إليها، بل وأنا رافقنا تشلسي إلى الأمسية للوقوف على ما يمكن الاطلاع عليه، في طريق العودة إلى البيت الأبيض بدت تشلسي غارقة في تفكير عميق، أخيرًا أعلنت أنها راغبة في الذهاب إلى ستانفورد، ناسية النصيحة الواردة في الكتب جميعها التي كنت قد قرأتها حول كيفية تجسيد الأم المثالية، صرخت بأعلى صوتي «ستانفورد!؟

هل أنت مجنونة؟ إنها على مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر من هنا، لن نتمكن أبدًا من زيارتك!».

بادر بل- ذلك الرجل الحكيم أحيانًا- إلى قرص ذراعي وهو يقول لها إنها تستطيع أن تذهب إلى أي كلية توافق على قبولها، أدركت- بالطبع- أنه كان محقًّا، أما أنا فلم أكن بعد جاهزة لقبول فكرة ابتعادها عني، غير أني كنت واثقة من أنني سأكون مسرورة لسرورها هي إذا ما رحبت بها الكلية التي تختارها، ضغطت على أسناني وصممت على قضاء أطول وقت يمكن أن تتيحها لي قبل ذلك.

عند الكلام عن روح التمرد في أثناء مراهقة تشلسي، تعين علي أن أضحك وأنا أقرأ في الصحف نبأ ترشحها لنيل جائزة الصندوق القومي للصحة الإسبانية (إن إتش إتش أف/NHHF) في مهرجان جوائزه السنوية بنيويورك. بحسب ما جاء في الصحافة كانت تشلسي جديرة بالثناء لـ «تحريض البالغات صغيرات السن، لاسيما اللاتينيات، على التحلي بالاستقلال وتثقيفهن في اتخاذ القرارات السليمة حول أنفسهن». و(الاستقلال) ليست الكلمة الدقيقة التي أميل إلى اختيارها لوصف سلوك مراهقتي المتشامخ.

كنت عاكفة على قراءة قصص عن صدمات عاناها آباء وأمهات ودعوا أبناءهم وبناتهم المغادرين إلى الجامعات؛ إحدى الأمهات عادت إلى المدينة الجامعية لاختلاس نظرة أخيرة إلى ابنها فوجدت نفسها متسللة إلى ممر مهجعه مثل جاسوسة في أحد الأفلام البوليسية (أفلام بي). ثم كان هناك ذلك الأب الذي لم يكن يستطيع النوم ليلًا لتوجسه من ألا يكون ابنه حاصلًا على ما يكفي من النوم، ما أشبهه ببل! وأم مجنونة لم تطق مسح الرسائل الهاتفية الواردة من ابنتها الغائبة حتى بات جهازها مفرط الامتلاء الفوضوي فتعطل، ما أدى إلى حرمانها سماع صوت ابنتها حين كانت تريد فعلًا أن تتكلم، لعل الأسوأ من الجميع هم الآباء والأمهات الذين كانوا يتجولون في الغرف

الشـاغرة، حيث كان أولادهم ذات يوم يعزفون الموسـيقى بصخب يصم الآذان، لستُ على تلك الدرجة من السوء، أما بل فقد يروي قصة مختلفة.

كنت أرتاح كثيرًا عند الاطلاع على هذه القصص لأن البؤس يحب البؤس، وكنت بالفعل أخاف لحظة اضطرارنا، بل وأنا لوداع تشلسي إلى ستانفورد، وأنا تلـك التـي بكت حين غادرت إلـى الحضانة، نعم أعرف أن علـى الآباء والأمهات الصالحين أن يفرحوا لإنجازات أولادهم، وتملؤهم النشـوة إزاء الحياة الرائعة التـي تنتظرهـم، تلك هي المشـاعر التي راودتني في لحظـات النضج، أما معظم الوقـت فقـد بقيت- للأسـف- متسـائلة عما جعلني أسـمح لهـا بتخطي الصف الابتدائي الثالث.

تعاطفـت مـع الأمهـات الأخريـات المعانيات قلـق الانفصال قبـل الأوان إبان شـهر مـن الإعـداد المكثـف في عـرف أصدقاء سـيدول المقدس: عرض الأم — البنـت. أمهـات طالبات السـنة الثانوية الأخيرة في سـيدول يشـاركن في أمسـية (سكيتشـات) ساخرة تسلِّي بناتهن الموشكات على التخرج، التحقت بركب عدد من أمهات صديقات تشلسـي في تقديم سلسـلة من الطرائف السـاخرة أدت فيها كل منـا دور ابنتهـا، بالغت في تكرار دورات راقصة الباليه وفي الكلام اللانهائي بالهاتـف عن مشـاريع الخـروج، ضحـك الجمهور كثـيرًا، في المشـهد الافتتاحي قمنـا نحـن الأمهـات بلـف أنفسـنا بصحائـف ورقية وكأننـا فرقة توغـا، وغنينا أغنيـة أظـن أني قـادرة علـى الطـيران! (I Belive I Can Fly!)، لـن أفاجـأ إذا اسـتطاعت تشلسـي فعـل ذلك؛ هي قادرة على فعل الأشـياء الأخـرى كلها. رغم خوفي من خشبة المسرح، تمكنت من الاهتداء إلى هاوية التمثيل في أعماقي، إلا أن صوتي- لحسن حظي وحظ تشلسي- غرق وتلاشى في بحر الأصوات الأكثر موسيقية لأمهات أخريات في فقرة الافتتاح.

حفل تخرج تشلسـي الثانوي كان مثل حفلات أخرى كثيرة حضرتها مع فرق رئيـس واحـد: ألقى في الحفل رئيـس جمهورية الولايات المتحـدة خطابًا، دفعني

بل إلى البكاء حين طلب إلى الخريجات إدراك أن من شأن آبائهن وأمهاتهن أن يبدوا حزانى قليلًا أو حتى يتصرفوا بقدر من الغرابة، أذكر جيدًا أنه قال: «نتذكر كما ترون، أيامكم الأولى في المدرسة مع النجاحات والإخفاقات جميعها التي كانت بين تلك اللحظة والآن، وعلى الرغم من أننا تعهدناكم لإيصالكم إلى هذه اللحظة ونحن فخورون جدًّا بكم، فإننا نبقى متطلعين إلى وضعكم في أحضاننا مرة أخرى كما سبق لنا أن فعلنا عندما كنتم صغارًا، وقراءة مادلين (Madeline) أو الآلة الصغيرة القادرة (The Little Engine That Could) على مسامعكم». ومسح دمعة، كما فعلت أنا والأمهات والآباء جميعهم الذين حضروا الحفل.

بعد تخرج تشلسي بوقت أقصر مما ينبغي، دقت ساعة مغادرتنا نحن الأمهات والآباء لمدينة صغارنا وصغيراتنا الجامعية، ومبادرة الصغيرات والصغار هؤلاء إلى إعادة ترتيب غرفهم (هن) وحوائجهم (هن) بحسب أهوائهم (هن). بعد أسابيع من تصور لحظة الفراق، كنت قد صلَّبت نفسي لمواجهة هذه المحنة، وأصبحت شبه جاهزة لمغادرة ستانفورد، أما بل فلم يكن قد فعل، فجاء مسكونًا بقلق شديد حول مغادرة تشلسي.

فيما يخص تشلسي، كانت أكثر من مستعدة لمغادرتنا، ولأن ستانفورد تتأخر كثيرًا في الافتتاح خريفًا عن جل المدارس، كانت قد سمعت من كثير من صديقاتها وأصدقائها الطلاب والطالبات عن مفاجآت الحياة الجامعية الإيجابية منها والسلبية، بما جعلها شديدة التوق للبدء. حاولت منعها من رؤية النظرات الحزينة في عيون أبويها.

رجوت أن نكون قد منحناها الأشياء المهمة فعلًا التي تحتاجها البنت لتنجح في الكلية، وتكون هي قد أقفلت بإحكام على وجدانها الخاص في داخلها. (واصلت هيلاري): مثل جل الأمهات مهجوسة فعلًا حول ما إذا كانت ستربي

صديقـات وأصدقـاء جيديـن يحبونها كرمى لعينها هي لا بسـبب هوية ومنصب أبويها، وما إذا كانت ستحب حصصها الدرسية وستتناول الوجبات المناسبة.

غير أنني كنت، خلافًا للأمهات الأخريات جميعن، مشغولة البال إزاء الأمن والخصوصية اللذين كانا يلازمان كون المرء ابنة رئيس الجمهورية. بل وأنا كنا واثقـين مـن أن تشلسـي كانت مؤهلـة لتعتني بنفسـها تلقائيًّا؛ كانـت على الدوام إنسانة متوازنة، وعاقلة، وجيدة الانضباط، غير أن مشكلات العالم وعقده غير قابلـة للتكهـن، وما كنا لنسـتطيع تحصينها ضدها كما فعلنا طوال مدة عيشـها معنا.

2014 01 29

قالت هيلاري، مستأنفة الكلام من نقطة توقفها في الجلسة السابقة: الحديث عن العقد والمشكلات في العالم، ذلك كان إشكالًا يؤرقني أكثر بعد موت الأميرة ديانا وما أعقب ذلك من قلق عندي على ولديها؛ لا تشلسي ولا الأخوان وليم وهاري اختاروا أبويهم، وخطر لي أنهم، مثل أفراد الأجيال الصاعدة جميعهم، يجب أن يتمتعوا بفضاء كما بالخصوصية؛ فهؤلاء الأول، مثل الآخرين جميعًا، جديرون بحق متابعة تعليمهم وتطورهم العاطفي بعيدًا عن ضغط العيش أسرى عيون العالم، ومن المؤسف أن الأمير تشارلز لم يستطع- على ما يبدو- تسديد الفاتورة، مثله مثل الملكة والأمير الزوج. لا يسعني إلا أن أرجو أن تكون ديانا قد زودت ولديها بما يكفي من الزاد العاطفي الكفيل بهدايتهما على الطريق الوعرة المفضية إلى سن الرشد.

سأكون لانهائية الامتنان لاستبقاء تشلسي بمنأى عن الاهتمام الضاري لوسائل الإعلام إبان سنواتنا في البيت الأبيض، فبعد أن بيَّنتُ للصحافة أننا؛ بل وأنا، شديدا الالتزام بحماية خصوصية تشلسي ومستعدان للذهاب أشواطًا بعيدة على هذا الصعيد، تجنب الإعلاميون متابعتها ولو عن بعد معظم الوقت

أو إزعاجها باهتمام غير مرحب به خارج الأحداث العامة التي كانت تشارك فيها بسبب كون والدها رئيسًا للجمهورية.

الحساسية إزاء وسائل الإعلام من ناحية ومشاعر المسؤولية عن رخاء تشلسي من ناحية ثانية ساعدتاها كثيرًا، ومكنتاها من النمو نموًّا طبيعيًّا قدر الإمكان في البيت الأبيض؛ هذان الأمران أتاحا لها فرصة أن تكون مراهقة عادية، متمتعة بحرية متابعة دراساتها واهتماماتها بعيدًا عن تحديق الصحفيين البليد ليل نهار، تلك كانت حالة كل من كارولاين وجون كندي، تمامًا كما كان يجب أن تكون. سعيدة أنا أن جاكي عاشت مدة كافية لترى ذلك.

ذلك هو ما كان يجب أن يحصل بالنسبة إلى كل من وليم وهاري، أو أي من أولاد الشخصيات العامة، لابد من تركهم من دون إزعاج لينضجوا بعيدًا عن التحديق المكثف لأعين الجمهور، وذلك هو ما رجوت بقاءه لتشلسي لدى انطلاقها نحو سنواتها الجامعية.

دعوت لها ولصديقاتها أن تتوافر لهن فرص تمضية سنواتهن الأربع التالية مشغولات بالتعلم، باكتشاف ما هو مهم بالنسبة إليهن في الحياة، وبالسير قدمًا على طريق قلب أحلامهن إلى وقائع، ومن ثم استطعت العودة إلى الاهتمام بالأمور الأخرى جميعها في ستانفورد؛ مثل اللون المناسب لشراشفها.

حين قبلت تشلسي في برنامج راشيل راي (The Rachael Ray Show) في تشرين الأول/أكتوبر عام 2013م، صُدمت إذ اكتشفت أشياء عن ابنتي لم يكن سبق لي أن حلمت بها. كانت قد حضرت حفلة رقصها الحميمية الأولى في قبو البيت الأبيض؛ نعم البيت الأبيض! في إحدى منعطفات رئاسة بل، مع شاب مجهول ما لبث أن أصبح صديقها فيما بعد. وهنا رأيت أنني كنت ناجحة في رعايتها مبقية إياها تحت المراقبة الدائمة، أقدر أنها نجحت في تجنب مصير الآنسة مفرطة الحشمة مثل أمها في تلك السن، يجب أن تكون قد اكتسبت ذلك من بل. أين كانت نصيحتك- يا جاكي- حول مثل هذه الأمور؟

2014 01 31

حدثتني هيلاري عن ابنتها قائلة: في خريف عام 1997م، صارت تشلسي طالبة بستانفورد، واختارت التاريخ اختصاصًا لها، لا غرابة عندما نتذكر أنها كانت قد أسهمت في صنع التاريخ، ومن شأنها - بحسب ما هو قابل للتصور - أن تواصل ذلك مستقبلًا. في الأسبوع السابق لتسجيلها، نشرتُ رسالة مفتوحة في زاويتي الخاصة حذَّرت فيها الإعلاميين من التعرض لابنتي وإزعاجها، وصلتْ تشلسي إلى ستانفورد في موكب معنا؛ بل وأنا، مع عناصر الجهاز السري، ومع نحو مئتين وخمسين صحفيًّا. جُهِّزت نوافذ مهجعها بزجاج مضاد للرصاص، وثُبِّتت آلات تصوير في الممرات القريبة ضمانًا لأمنها، علاوة على ذلك راح عناصر أمن متنكرات بزي طالبات يعشن في مهجعها، ومما سرني أن سنوات تشلسي الستانفوردية الأربع بقيت بأكثريتها خافية على الجمهور، إذا استثنينا قصة مزعجة عنها في إحدى الصحف الصفراء بين الحين والآخر.

تخرجت عام 2001م بأعلى التقديرات مزوَّدة بشهادة ألبي إيه (B.A.) في التاريخ، وموضوع أطروحتها المؤلفة من (150) صفحة كان اتفاقية الجمعة العظيمة (الحزينة) عام 1998م في إيرلندا الشمالية. هي تعرف عن الموضوع أكثر مما أعرف أنا عنه، مع أني كنت وزيرة الخارجية!

في تموز/يوليو عام 2001م، أدلى بل بتصريح قال فيه إن تشلسي كانت في موعد لاحق من ذلك العام، ستلتحق بكلية الجامعة (جامعة أكسفورد في بريطانيا) التي كان هو قد درس فيها السياسة بين عامي 1968 و 1970م بزمالة رودس، لم تكن تشلسي قد تقدمت بطلب أي زمالة، وشعرنا بأن مثل هذه الزمالات يجب أن تكون مكافأة لطلاب محتاجين. أفاد اللورد بتلر البروكولي؛ رئيس كلية الجامعة بأن «سجل تشلسي كلنتون في ستانفورد يبين أنها طالبة جيدة التأهيل ومتمكنة، والكلية سعيدة بمد ارتباطها إلى عائلة كلنتون». باقتراح مستشارين بريطانيين وأمريكيين، زادت الجامعة من تدابيرها الأمنية وتم الإيعاز إلى الطلاب بالامتناع عن مناقشة موضوع تشلسي مع وسائل الإعلام.

واصلة إلى كلية الجامعة بعيد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، انجذبت تشلسي إلى طلاب أمريكيين آخرين كانوا شاعرين مثلها بالعواقب الصادمة للهجوم. قالت لمجلة توك (Talk) إنها كانت تغرق في بحر مشاعر أمريكية يوميًّا؛ كانت تتوقع الانفتاح على صداقة آخرين غير أمريكيين ولكنها ظلت بدلًا من ذلك تلوذ بأشقائها الأمريكيين طلبًا للدعم.

تعرضت تشلسي لانتقادات عنيفة على تعليقاتها في الصحافة ومن قبل جريدة الطلاب: أكسفورد ستيودنت التي أثارت غضب الجامعة بمهاجمة تشلسي في إحدى مقالاتها الافتتاحية، بالمقابل كثيرون ممن التقوها وصفوها بالجاذبية الفاتنة، وبالاتزان، وبعدم الانفعال، وهذا صحيح، وما لم تكن تخفي مشاعرها عني أنا، وذلك ليس من طبعها، فإن تشلسي بدت ناجحة التكيف مع الحياة فيما وراء البحار، وفي سنواتها الأكسفوردية فوجئت برؤية تشلسي متبنية منظرًا متأنقًا، بمساعدة صديقة عائلتنا دوناتيلا فيرساتشي التي لم يكن أي من عروضها يفوت تشلسي. وغيوردي غرايغ؛ رئيس تحرير مجلة تاتلر وضعها في المرتبة الخامسة من قائمة (الفتيات العشر الأولى) لعام 2002م.

في عام 2003م، طرت فرحًا حين كوفئت تشلسي بشهادة ماجستير الفلسفة في مادة العلاقات الدولية، وعقب تخرجها عادت إلى الولايات المتحدة حيث بدأت تعمل من أجل الحصول على درجة دكتوراه الفلسفة في العلاقات الدولية من جامعة أكسفورد، عاكفة على العمل من أجل ذلك في جامعة كولومبيا. (عندي بنت ذكية! هو ما رددته دائمًا)، وفي ربيع عام 2010م أنجزت تشلسي رسالة ماجستير في الصحة العامة بقسم الصحة العامة في مدرسة ميلمان الكولومبية، وبدأت تدرس صفوف دراسات عليا هناك في عام 2012م.

2014 02 03

قالت هيلاري: والآن عن حياة تشلسي العملية؛ لا أستطيع الانتظار؛ أريد أن أحدثك عما حققته، في عام 2010م بدأت ابنتي اللامعة تعمل نائبة لرئيس شبكة جامعة نيورك الجامعية الكوكبية، المهتمة بإستراتيجيات التجنيد الدولية، كانت أيضًا شريكة في تأسيس معهد ماني للقيادة متعددة العقائد بجامعة نيويورك وعملت مساعدة للرئيس، وفي عام 2012م حصلت على جائزة من هيكل التفاهم تقديرًا لـ «اجتراحها أنموذجًا جديدًا لتكامل التعليم الجامع للعقائد والعابر للثقافات في حياة المدن الجامعية»، بالاشتراك مع الإمام خالد لطيف والحاخام يهودا سارنا.

في عام 2003م قامت مؤسسة ماكينزي وشركاه الاستشارية في نيويورك بتوظيف تشلسي، وفي خريف عام 2006م انتقلت إلى عمل آخر إذ التحقت بأفنيوكابيتال غروب؛ عُينت نائبة رئيس لمشروع جمع تبرعات من قبل مؤسسة كلنتون، وهي عضوة في مجلس إدارة المدرسة الأمريكية للباليه رغم صغر سنها؛ إنها تشلسي التي لا يمكن إلا أن تحصل على ما تريده، صحيح أنها لم تستطع أن تصبح راقصة باليه شخصيًا، إلا أنها حصلت على المرتبة الثانية من حيث الجودة من خلال مشاركتها في حياة الراقصات الصغيرات.

قلت: فكرة مثيرة للإعجاب يقينًا!

موافقة، أعلنت شبكة إن بي سي في تشرين الثاني/نوفمبر أنها وظفت تشلسي مراسلة خاصة، وكُلفت بتقديم قصص مصورة عن إحداث فرق، في برنامجي نايتلي نيوز (Nightly News) (أخبار ليلية)، و روك سنتر (Rock Center) (مركز الروك). كان عقدًا لمدة ثلاثة أشهر مكنها من مواصلة العمل في مؤسسة كلنتون ومن البقاء في كولومبيا، وعلى الرغم من أنها تلقت عددًا من المراجعات النقدية لعملها، فإن عقد ألـ إن بي سي تم تجديده.

في كانون الأول/ديسمبر عام 2007م، بدأت عزيزتي تشلسي- بمبادرة منها- تنشط في أيوا دعمًا لمحاولتي الرامية إلى أن أفوز بترشيح الحزب الديمقراطي للرئاسة؛ تحدثت بكثافة في المدن الجامعية عبر البلاد، ومع حلول نيسان/أبريل عام 2008م كانت قد ظهرت في مئة كلية للحديث نيابة عني، كم هي رائعة ابنتي أنا! جل البنات يهجرن أمهاتهن حين يشرعن في بناء حياتهن الخاصة إلا تشلسي. مستمرة هي في التعبير عن حبها لي في أفعالها، أفترض أنها تحذو حذوي على هذا الصعيد؛ بقيت ملتصقة بأمي حتى النهاية المريرة، وكنت سعيدة بتسديد مقابل ما منحتني إياه من حب حين باتت بحاجة إليه.

حين أقرأ عن المشكلات كلها التي تعترض الناس مع أولادهم، أحمد الرب على أمومتي لتشلسي، وأتمنى للجميع أن ينعموا بالحظ السعيد الذي ننعم به بل وأنا. ولكن، هل هو حظ إذن؟ يطيب لي أن أعتقد بأن دورًا ما اضطلعت به في عملية جعلها الإنسانة الرائعة التي أصبحتْها.

فيما كانت تشلسي ناشطة في حملتي، ردت على أسئلة الجمهور، إلا أنها رفضت إجراء المقابلات ومساجلة الصحافة، وعلى الدوام كان سكرتيري الصحفي فيليبي راينس يتدخل كلما حاولت وسائل الإعلام الانقضاض على تشلسي، كان ناجحًا، وعبرتُ له عن امتناني حين أقدم مراسل إم إس إن بي سي الجاهل ديفد شوستر على نعت أنشطة تشلسي نيابة عني بـ (ممارسات غير

لائقة)، سـارع راينس إلى الاعتراض بعنف، فاعتذر شوستر على الهواء وأوقف عن العمل مدة أسبوعين. أنا مع حرية التعبير مئة بالمئة، إلا أنني أشك في أن من شأني أن أدير ظهري إذا ما تعرض ديفد شوستر للإسكات!.

لـدى سـؤالها للمـرة الأولى عن أسـلوبي في التعامل مع فضيحة لوينسـكي في إحـدى المحطـات الدعائيـة، ردت تشلسـي بلسـان أمهـا البتار قائلـة إن ذلك لم يكـن يخصـ أحدًا، ومع تطورها إلى داعية أغنى خبرة خففت من حدة ردودها، وصـارت تـراوغ الأسـئلة بتعليقات من قبيـل «إذا كان ذلك ما تريـدون قوله، فلا تـترددوا إذن في قولـه، غـير أن هنـاك آخريـن مهتمـين بأمـور أكـثر أهمية مثل الرعاية الصحية والاقتصاد». فتاة بالغة البراعة! إنها تشلسـي! لعلي أتيت على ذكر ذلك من قبل!

في المؤتمر القومي الديمقراطي في عام 2008م، بادرت تشلسي، غامرة إياي بالسـعادة، إلـى الكلام عني قائلة: «بطلتـي وأمي» وقدمتني من خلال فلم فيديو تقديري طويل. ثم عادت إلى مدينة نيويورك واستأنفت حياتها الخاصة.

2014 02 04

الآن إلى المربع الأفضل؛ في الحادي والثلاثين من تموز/يوليو عام 2010م أقدمت تشلسي ومصر في استثمارات يدعى مارك مزفينسكي على الاقتران زواجًا، في حفل مشترك بين عقيدتين دينيتين في راينبوك النيويوركية، كان حفل الزفاف في قصر آستور، وهو عقار مشرف على نهر هدسون، كان آنذاك عائدًا إلى كاثلين هامر؛ إحدى مؤيداتي، كانت ذات منتجة ميديا الأكسجين، وآرثر سيلبايندر، تاجر ومنمي عقارات ورجل أعمال، ومع أنني كنت شديدة الخوف من فقدانها فقد أعجبني مارك وكنت فرحة بالعروسين كليهما.

ولد مارك في الخامس عشر من كانون الأول/ديسمبر 1977 لأم عضوة كونغرس ديمقراطية بنسلفانية سابقة تدعى مارجوري مارغوليس- مزفينسكي، وأب عضو كونغرس ديمقراطي آيواوي سابق يدعى إدوارد مزفينسكي، نشأ مارك في كنف تراث يهودي محافظ، نحن والزوجان مزفينسكي كنا أصدقاء في تسعينيات القرن العشرين، وولدانا التقيا في إحدى استراحات نهاية الأسبوع النهضوية في هلتون هد بكاليفورنيا الجنوبية. قيل عنهما إنهما صديقان للمرة الأولى في عام 2005م، ثم ما لبثا أن أصبحا خطيبين بمناسبة عطلة عيد الشكر في عام 2009م.

قبل زواجها من مارك، كانت حياة تشلسي الغرامية أشبه بمادة دائمة تلوكها ألسنة وسائل الإعلام والصحف الصفراء مكدِّرة إيانا؛ بل وأنا كثيرًا، صديقها الأول كان شابًا يدعى ماتيو بيرس التقته في ستانفورد، غير أنهما افترقا في عام 1998م جراء الصدمة العاطفية التي أحدثتها فضيحة بل مع مونيكا لوينسكي كما قيل، ارتبطت تشلسي بزميل طالب في ستانفورد اسمه جيرمي كين، عمل حتى في إدارة بل في البيت الأبيض، وفيما بعد وقعت تشلسي في غرام إيان كلاوس بأكسفورد، أخيرًا استقرت مع مارك وراح العالم (ومعه أمها) مباشرة يطالب بمعرفة تاريخ ظهور حفيد صغير للزوجين كلنتون على خشبة المسرح.

لدى سؤالها من قبل الصحافة دائمة الحضور، أجابت تشلسي معبرة عن الأمل بأن ذلك سيكون في مستقبل غير بعيد جدًّا، أما الآن فإنهما؛ هي وزوجها، يعملان باجتهاد كثيف، مضيفة أنهما يركزان على تأمين فضاء يمكنهما من جعل إنجاب طفل صدر أولوياتهما. لا يسعني إلا أن أعلق بالعبارة اليهودية أليفي التي تعني «ينبغي أن يحصل لي أنا وحدي!»، عبارة تعلمتها من الزوجين مزفينسكي، انتبهي دكتورة! أكاد أصبح يهودية ملتحقة بركب ابنتي وحفيدي!

تعيش تشلسي ومارك في عقار مشترك أنيق يساوي (10,5) مليون دولار، بالقرب من ساحة ماديسون بمانهاتن، ينبغي- بالمناسبة- أن يكون أهل زوج تشلسي قد طاروا فرحًا حين فزت بجائزة إنجاز العمر من المؤتمر اليهودي الأمريكي، مع أن من شأن عظام أبي تمردتْ احتجاجًا بالتأكيد وهي في القبر، أرجو أن يستوعب الأمر بطريقة ما، لن يشكل أي إساءة إليه!

2014 02 05

تأليـف كتابـي يكلف قريـة (It Takes a Village)، بيَّن لي أن هناك أشـياء أخرى عدا علاقات الأمهات ببناتهن، وساعدني كثيرًا على مواجهة غياب تشلسي عن حياتي اليومية، ورحلات كتابي وفرت لحظات مثيرة كثيرًا ما جعلتني أنسى تشلسـي لبضع ساعات متواصلة، عشرات الناس جاؤوا إلى حفلات توقيع كتابي مرتديـن قمصـان نـادي مؤيدي هيـلاري، كانت ثمـة مئات من الفـروع في طول البلاد وعرضها، تلك الفروع التي كان أعضاؤها يبدون سـريعي الإحساس بأي حاجة لي إلى الدعم.

فـروع مسـتعدة لإرسـال وحداتهـا للترحيـب بـي بالابتسـامات، بالتلويـح، والإشـارات المنزليـة، غمرني ذلـك بالفرح على الرغم من أن يـدي بقيت تؤلمني علـى الـدوام جراء تكـرار المصافحـة والتوقيع، مـا كان يدفعني إلى الانسـحاب باكرًا إلى الفندق لدلك يدي وتغطيسـها في ماء فاتر مملح، كان هذا يزيل الألم إلـى اليـوم التـالي، حيث كانت العملية تتكرر من جديد. لعلي أشـير إلى أن ذلك لم يؤدِّ إلى التأثير سلبًا في معنوياتي العالية وأنا أرى صفوف الناس الطويلة حول مجمع المكتبات، أولئك الذين كانوا حريصين على اقتنـاء نسخ موقعة من كتابي، الأمر الذي أكسبني مبالغ كبيرة من المال. انظر إذن يا بل كلنتون! لستَ الوحيد

الذي يتزاحم قراؤه في صفوف طويلة، وينتظرون ساعات خارج المكتبات لشراء نسخ موقعة من كتابه.

باتت تشلسي كثيفة الانخراط في عمل مبادرة كلنتون الكوكبية، وواحد من هذه الاجتماعات هو الذي كشف لي أن مارك بدا هائمًا جدًّا بحب تشلسي؛ لم يستطع أن يزيح نظره عنها وهي تتبختر في ثوبها الأرجواني الفاقع إبان الجلسة الموسعة الختامية للمبادرة في نيويورك، كان مارك في السابعة والثلاثين من العمر، وقد وصف تشلسي في إحدى المرات بأنها (نصفي الآخر)، بقي جالسًا بجانبها طوال اليوم الأخير لاجتماع مبادرة كلنتون الكوكبية السنوي في نيويورك، مسلِّطًا الضوء على نظراتها الزاخرة بالشغف.

بل وأنا التحقنا بركب الخليلين في القاعة، كنت في قصة شعري القصيرة وطقمي الأخضر الجاذب للعيون، ورغم ظهور تقارير لا أساس لها في وسائل الإعلام تحدثت عن أن زواجهما كان على شفير الهاوية، فإن تشلسي ومارك أفادا في مقابلة لهما مع مجلة فوغ العام الماضي بأنهما كانا هائمين بحب كل منهما للآخر أكثر من أي وقت مضى، وعاكفين على التمهيد لتأسيس أسرة في غضون عامين! ظهورهما معًا بدا مؤكدًا لهذه المشاعر.

كان مارك مشرقًا في جلسته بجانب تشلسي التي بدت أيضًا سعيدة مثله بالحياة، كلاهما كان كومة ابتسامات، شعرها الأشقر المرسل كان لافتًا، مثله مثل ثوبها الذي كان بلا كمَّين، مع عقبين عاريتين. «طب الطنجرة (الجرة) على تمها، بتطلع البنت لأمها»؛ أخذنا سلسلة من اللقطات ونحن واقفتان على المنصة في اجتماع مبادرة كلنتون الكوكبية، وقد قيل إننا تقصدنا أن نختار ارتداء ملابس متساوية في الجاذبية والألق، كم كنت صادقًا يا بوب ديلان حيث تحدثت عن التعرض للرجم!

أظن أن مارك وتشلسي متناسبان تمامًا؛ يبدوان متطابقين مثلنا؛ بل وأنا، رغم دعائي للرب أن تكون علاقتهما بريئة من الغراميات الخارجية! قبيل

انتهاء الجلسة الختامية لمبادرة كلنتون الكوكبية، صعدت تشلسي إلى المنصة معنا لتخاطب الجماهير، قالت كلامًا جميلًا، شعرت بكثير من الفخر!

اجتماع مبادرة كلنتون الكوكبية السنوي يوفر منبرًا لكل منا، وبل، تشلسي، وأنا، لإعلان سلسلة من الالتزامات المالية من جانب عدد من الشركات، والمنظمات غير الحكومية، والمحسنين، بما يمكننا من المساهمة في حل مشكلات معقدة حول كوكب الأرض. والمبادرة التي أُطلقت في عام 2001م تمكن بل من معالجة مشكلات عبر القارات وترسيخ ميراثه؛ هي تشكل الآن قاعدة وطنية لي أنا أيضًا نظرًا إلى تفكيري بالترشح للرئاسة في عام 2016م، ومن شأنها أيضًا أن تغدو منصة إطلاق بالنسبة إلى تشلسي إذا ورثت أبويها وصارت شخصية سياسية مثل أمها وأبيها، ما بدأ بدفع رجل واحد لمساعدة الناس في الأمكنة جميعها سرعان ما تحول إلى مؤسسة حافلة بأشخاص متمتعين بآيات عظيمة من الشغف والموهبة.

اجتماع المبادرة السنوي الممتد أربعة أيام يسلط الضوء على كيفية قيامنا، نحن آل كلنتون، بالانتقال من البيت الأبيض إلى تأسيس مؤسسة عالمية تتولى معاينة مشكلات طاغية مثل الوقاية من الإيدز، والتغذية، واضطهاد المرأة، والعيش بمداخيل متدنية بغية الاهتداء إلى حلول لها، وتأكيدًا لقدرتنا المتواصلة على جمع أسماء كبيرة، فإن صالة الرقص تكون دائمًا مزدحمة بأعداد كبيرة من موظفي إدارة كلنتون السابقين، من المديرين التنفيذيين، ومن مسؤولي الشركات المتنفِّذين جنبًا إلى جنب مع أعداد من النجوم اللامعة.

وفيما كان زوجي الساذج يقلب صفحات دفتره خلف الستارة، دأب بونو على تسلية الحشد وإلهائه بانطباع كلنتوني مرتجل بتفاصح جنوبي كامل مئة بالمئة، ضج الحشد تجاوبًا، حتى بل ظن أنه مسل وأطلق واحدة من قهقهاته العالية، أنا أيضًا ضحكت لباقة، وفي جلسات أضيق تحدث الممثل سين بن عن

عمله التنموي في هاييتي، ودعت الممثلة المحبوبة كيت هدسون إلى اجتراح أدوار قيادية للنساء.

أما أنا فتحدثت كيف أستطيع من خلال المؤسسة أن أقود مشروعًا لتقييم التقدم الذي حققته النساء حول كوكب الأرض، قبل الاحتفال السنوي بإحياء الذكرى العشرين لملاحظاتي أمام مؤتمر الأمم المتحدة للنساء في بكين، وبوصفي سيدة أولى في مؤتمر عام 1995م، كنت قد أطلقت ملاحظة كثر اقتباسها، ملاحظة قلت فيها: «حقوق الإنسان هي حقوق النساء، وحقوق النساء هي حقوق الإنسان»، لعلها إحدى أفضل العبارات التي سبق لي أن تفوهت بها، وهي لاتزال مترددة الأصداء في طول العالم وعرضه، تشلسي تركت زوجها مع الجمهور وجاءت لتقف إلى جانبي على المنصة، معبرة عن أفكار كلينا، سرَّتني حين تكلمت عن التزام مبادرة كلنتون الكوكبية بوقف عمليات الإجهاز على الفيلة الإفريقية.

في أثناء إحدى الجلسات في يوم الأربعاء، أعلنت ثلاثة التزامات جديدة لمساعدة النساء حول كوكب الأرض، بما في ذلك مشروع بمبلغ (1,5) مليار في غضون السنوات الخمس القادمة لمساعدة الأعمال العائدة ملكيتها لنساء، ومن الأطراف المشاركة في المشروع شركات كوكاكولا، وإل– مارت، وإكسون موبيل. عائلتنا دائبة على جمع الأموال لإنشاء مؤسسة المبادرة الوقفية بافتتاح فرعي جمع تبرعات جديدين هامبتونز النيويوركية وواشنطن، ثمة حفلة موسيقية خيرية مخططة بلندن في الخريف جنبًا إلى جنب مع سلسلة أنشطة في واشنطن وميامي.

في آب/أغسطس أُجبر بل على الدفاع عن المؤسسة بعد ظهور تقارير إعلامية عن صراعات داخلية بين الأركان وعن مشكلات حول سوء إدارة المنظمة ماليًّا. قولي لي دكتورة، لماذا يستمر أولئك في مطاردتنا والإصرار على مقاضاتنا؟ من المؤكد أننا دفعنا ثمن الخطايا جميعها التي قد نكون متورطين فيها سابقًا.

كشفت المؤسسة عن أن جهازًا محايدًا تولى مراقبة الحسابات وتدقيقها في عام 2011م، وأوصى باعتماد أركان أقوى للإدارة ومجلس أكثر استقلالًا، حاولنا تحقيق ذلك، غير أنني لست مطمئنة إلى أنهم سيتوقفون عن مواصلة إزعاجنا طوال بقائنا نحن آل كلنتون في الحلبة السياسية.

ألمح الجمهوريون سلفًا إلى أن عمل المؤسسة سيكون هدفًا مشروعًا للتشهير إذا أقدمتُ على الترشح للرئاسة في عام 2016م، فاللجنة الجمهورية القومية راحت من الآن تتحدث عن سوء إدارة وصراعات مصلحة، داخل المؤسسة، وقالت إنها أظهرت أسلوب عمل الزوجين كلنتون، وأحالت جزءًا من المسؤولية عليَّ أنا، فما الجديد إذن؟

2014 02 06

عادت هيلاري سعيدة إلى جلستنا التالية للمزيد من التفاخر بابنتها تشلسي وصهرها مارك، ولاسيما حدث زواجهما الكبير.

لسبب لا أفهمه، كان عدد الحاضرين من المشاهير أقل مما توقعت، إنه لأمر غريب؛ لأنني شديدة الحرص على حضور حفلات زفاف المشاهير وأشباه المشاهير، ومن الوجوه المعروفة كان الزوجان تد دانسون وماري ستينبرغن، ووزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت الثرية ثراء غير معقول، ووارن بوفيت، ورئيس اللجنة القومية الديمقراطية السابق تيري ماكاوليف، أزعجني تخلف أوبرا وينفري، وستيفن سبيلبرغ، وباربارة ستريساند جميعًا عن الحضور، ألا يحبونني؟ (سألت بحزن).

سارعتُ إلى إخبارها بأن هؤلاء يحبونها من دون شك؛ لأنها قريبة من القلوب، غير أنهم ربما تخلفوا عن الحضور جراء ارتباطات سابقة، إلا أنني لم أقتنع بأنها صدقتني.

قالت مواصلة الموضوع نفسه: ليتني لم أكن على هذه الدرجة من الحساسية، شعرت بأن كل نكرة وكل شخص غير مهم في الحفل كان سهمًا يخترقني،

لم أكن حتى صاحبة الحفل! ما الذي يجعل مشاعري تتعرض للخدش بهذه السهولة يا دكتورة؟

أظن أنك كنت شديدة التعرض للأذى كلما انتقدك أبوك. فمهما أحسنت صنعًا، كان ثمة شيء تستطيعين فعله على نحو أفضل، وها أنت ذا الآن تقيمين حفل زفاف بالغ الروعة لابنتك، وتصرين مع ذلك على عده دون المستوى؛ لأن بعض الناس لم يحضروا.

ابتسمت وقالت: أنت على حق، ذلك بالتحديد هو الشعور الذي يراودني حين يخفق أحدهم في تلبية دعوتي؛ إنه تمامًا مثل شعوري حين التمست إطراء من أبي ورفض منحي إياه.

جيد أنك تدركين ذلك يا هيلاري، هم الخاسرون، لست أنت، ربما في المستقبل، إذا ما صدَّك أحدهم ستقولين لنفسك: لم أعد فتاة صغيرة.

أطرقت ساهمة ثم ما لبثت أن عادت إلى مناقشة زفاف تشلسي، وتابعت تقول: الطريق الموصلة إلى العقار أُغلقت لغير المدعوين، وفرض حظر على الطيران، مُنع الضيوف من اصطحاب أي أجهزة للاتصال، للتغريد، للتصوير، أي نوع من أنواع الوصف في أي مكان، وما أثار فزعي أن الضيوف المراوغين نجحوا في التقاط الصور التي أقدموا على بيعها للصحف الصفراء بأسعار باهظة كما أعتقد جازمة، كان عليَّ أن أتحلى بقدر أكبر من الحذر إزاء هويات الذين دعوناهم.

الزفاف الذي عُدَّ حدث العام الاجتماعي، اشتمل على عشاء ورقص لأربع مئة ضيف، وأولئك الذين دعوتهم ولم يلبوا لا يعرفون ما خسروه، لن يروا شيئًا مثله مرة أخرى؛ فالدارة التي حضنت الحدث تعود إلى عام 1902م، وتتباهى بملعب تنس داخلي وحوض سباحة من الرخام الأبيض، طقس الزفاف تم داخل غرفة استثنائية ذات نوافذ مظللة بالثريات، وداخل الخيمة جرى تحويله إلى

بقعة من عالم الخيال؛ السقف والجدران كانت مغطاة بالحرير، وأعمدة الدعم كانت مزينة بباقات الورود، مع موائد مغطاة بقماش سماوي-رمادي عليه رسوم حوريات وأزهار وردية، وزرقاء، وأرجوانية شاحبة، لا بأس بالنسبة إلى فتاة صغيرة من باين ريج الإيلينوية.

مع أن تشلسي نباتية، فإن الضيوف تناولوا لحم عجل محلي مشوي على الفحم، وروستو، وسلطة مع خبز خاص من تقديم فندق ريجيس بنيويورك، والخبز كله المقدم كان خاليًا من الدابوق (الغلوتين)، إشارة إلى حساسيات العروس. وكعكة الشوكولا ذات الطبقات الإحدى عشر التي كانت من ابتكار صحارى لاتيوليب في ماونت كيسكو النيويوركي كلفت (11,000) دولار، وكانت أفخم كعكة زفاف ممكنة، من المؤكد أنها كانت متواضعة؛ متواضعة بمبلغ (11,000) دولار، مستحيل، هل تصدقين؟

انتفض الأب البخيل في أعماقي: «كيف تستطيعين تبديد هذا المبلغ كله؟ ثمة عائلات كاملة في الهند تستطيع أن تعيش عامًا كاملًا بأقل من ذلك!» أجبته: «كفى بابا! لن تتزوج إلا مرة واحدة». لحسن الطالع لم يكن موجودًا ليركلني على مؤخرتي.

لن ننسى، لا أنا ولا أي من الحاضرين، مهما نسينا النخب الذي رفعه بل للعروس، لعل السطر الأكثر اقتباسًا كان الموجه إلى المعركة الدائرة بين الجنسين؛ بما أن أم تشلسي علمتها فن التعبير عن آرائها، فإن بل الذي لم يكن معروفًا بالاعتدال، قال إنه «كان قد تعرض لأن يكون أقلية أمام النساء، أما الآن بعد التحاق الصهر بالركب، فقد حصل التعادل على أرض الملعب؛ ثمة شخص في صفي»، وأضاف «ابنتي سعيدة، أحب صهري المستقبلي ومعجب به، ما يجعلني أكثر سعادة». لم أصدقه؛ أخشى أن يكون شديد الغيرة من مارك في السر.

الزوجان الجديدان أديا رقصة تانغو كوريوغرافية روتينية على أنغام، أخيرًا (At Last) الكلاسيكي لـ إيتا جيمس، كانت رقصة بالغة البهاء والألق، كدت أنفجر كبرياء.

أسهم بل في قيادة طقوس الزواج إلى درجة محدودة، ومع أنه أخبر ريان سيكرست في آذار/مارس بأن دوره كان محصورًا بـ «المشي مع تشلسي إلى المذبح وتسديد الفواتير»، فإنه أبلغ ألـ إن بي سي في التاسع من نيسان/أبريل أن ابنته كانت قد قررت أن تسمح له بإضفاء خبرته بوصفه زعيمًا عالميًّا على عملية اتخاذ القرار. بقي بل حريصًا على جعل التركيز منصبًا على العروس.

2014 02 07

بدأت هيلاري الكلام تقول: قلة وحسب من حلقة تشلسي الداخلية كانت قد رأت هدية خطبتها إلى أن أشرق خاتمها الماسي العملاق في سهرة افتتاح وعود، وعود في برودواي، سارعت وسائل الإعلام- بالطبع- إلى نشر صور عروس المستقبل على العكاكيز، كانت عزيزتي قد كسرت عقبها وأصرت على إنكار معرفتها بكيفية حصول ذلك؛ تتميز تشلسي بالصدق، ولكنها صعبة التصديق هذه المرة، تعود ابنة بل كلنتون حين تخلط الأمور! لحسن الطالع، كان من المتوقع أن تتعافى قبل موعد زفافها.

قبل الزفاف، سُئلت عن احتمال كون الطقس دينيًّا، فقلت إن الجواب كان ملتبسًا؛ أنا ميثودية، بل معمداني جنوبي، ولزيادة الأمر تعقيدًا مارك يهودي، كان أمام الزوجين سلسلة من الخيارات، بما فيها الاهتداء أو جمع التراثين في طقس واحد، آخر المطاف وقبل عام أقدمت تشلسي على حضور صلاة يوم الغفران مع مارك في نيويورك.

تبين أن وظائف الطقس كانت موزعة بين قسيس جامعة ييل اليهودي جيمس بونت، والكاهن وليم شيلادي من كنيسة بارك أفنيو الميثودية بنيويورك، وفي

أحد المنعطفات بعد أن قامت نسمة بقلب إحدى صفحات كتاب قداس شيلادي، بادرت تشلسي إلى تذكيره بالسطر التالي. بعد تبادلهما القسم والخاتمين، تلا الأصدقاء والأقارب البركات السبع اليهودية المألوفة، وقفت تشلسي ومارك تحت قوس من أغصان الكرمة والورود.

أحد أصدقائهما قرأ قصيدة عائدة إلى عام 1943م للشاعر ليو ماركس بعنوان الحياة التي أعيشها التي أنا مغرمة بها، يقول المقطع الأول:

الحياة التي أملكها

هي كل ما أملك

والحياة التي أملكها

هي لك أنت.

صرخت مثل الآخرين جميعهم.

بدا الأمن مشكلة منذ البداية، صحافيان نروجيان اعتقلا واتهما بانتهاك حرمة المكان لالتقاط صور عند بوابة العقار، ما سرني كثيرًا أن السلطات الاتحادية عمدت- قطعًا للطريق على المتطفلين- إلى إغلاق مجال المنطقة الجوي على امتداد عطلة نهاية الأسبوع، أقدر حقًّا حين تبادر الحكومة إلى مساعدتي، بدلًا من العكس.

بعد زواجهما، استقرت تشلسي ومارك في منزل بحي حديقة غراميرسي النيويوركي، وفي آذار/مارس عام 2013م اشتريا ذلك العقار المشترك الغالي في حي فلاتيرون المانهاتني، ليتنا؛ بل وأنا، كنا على ذلك المستوى من الثراء في سنهما! لا أشعر بأني على تلك الدرجة من الغنى حتى الآن، قد لا نكون، لعلي مسكونة بشيء من الغيرة.

2014 02 08

بالعودة إلى المؤسسة، فإن الديمقراطيين يرون الهجمات عليها انقضاضًا نموذجيًّا على آل كلنتون، ويقولون إن العمل الخيري الذي نقوم به يعبر عن نفسه. (قالت هيلاري) ، وقد صرحت المؤسسة هذا الأسبوع أنها ساعدت أكثر من خمسة ملايين إنسان مصابين بالإيدز في الحصول على المعالجة في سبعين بلدًا، وأن عملها الزراعي في إفريقيا ساعد (4300) مزارع على إطعام (30,000) نسمة، وأن نشاطها أفضى إلى غرس (4,5) مليون شجرة في رواندا ومالاوي. أعتقد أن ذلك سجلٌّ رائع إلى حد كبير، رغم ما يمكن للجمهوريين أن يقولوه عنه.

كل وأي شيء متاح، بل وحتى بعض التهم المصطنعة، ستُستخدم ضدنا، ولكنني مستعدة للصمود أمام كل ذلك إذا بقيت الشكوى الكبرى التي يستطيعون نقبها ضدي محصورة بتورط عائلتي في جريمة إنقاذ حيوات كثيرة في طول العالم وعرضه.

من شأن مستقبل المؤسسة أن يؤول إلى يدي ابنتي العزيزة تشلسي التي طافت العالم طولًا وعرضًا، وتضطلع رغم صغر سنها بدور نائبة الرئيس اضطلاعًا استثنائي البراعة، مؤخرًا تولت رئاسة حلقة بحث حول الأمراض

غير السارية، وأعلنت جملة التزامات إنسانية، بما فيها جهود لتوفير مياه الشرب النظيفة، وتعزيز صحة النساء والأطفال في أمريكا اللاتينية، حاذية حذوي تمامًا! ألا يحق لأمها أن تفخر؟!

ألمحت تشلسي إلى احتمال انخراطها في السياسة مستقبلًا، لن يفاجئني ذلك وهي بنتنا نحن الاثنين؛ بل وأنا. من كان يمكن أن يحظى بقدر أفضل من الإعداد؟ كانت تتابع السياسة مطروحة للمناقشة يوميًّا منذ لحظة ولادتها، لم تكن قد بلغت الثانية من العمر حين تقاسمت المنصة معنا؛ بل وأنا، ونحن عاكفان على الدعوة عبر ولاية آركنسو لانتخاب بل حاكمًا. في مقابلة لها مع ألـ سي إن إن من رواندا، صرحت أنها كانت تعيش حياة عامة عن قصد، وقد تفكر في دخول حلبة السياسة إذا اقتنعت بقدرتها على إحداث فرق.

إذا لم أفز أنا بالرئاسة، فقد تنجح ابنتي في التعويض عني، أرجو أن أعيش لأرى ذلك! وإذا لم أفعل فإننا؛ أمي وأنا سنشرق عليها من السماء، إذا بقيت السياسة على حالها اليوم فإن تشلسي ستكون بحاجة إلى المساعدات والصلوات كلها التي تستطيع الحصول عليها.

2014 02 10

قالت هيلاري: أريد اليوم– دكتورة– أن أحدثك عما ربما كانت أروع سنوات حياتي.

كنت أستمع إلى قصص ملأى بالأسى طوال ساعات النهار عن موتى، مرضى، وعشاق مهجورين، أحسست بثقل وطأتها، نظرت إلى هيلاري نظرة فرح، متصورة الانفراج العظيم الذي سيجلبه سماع أخبار عن مناسبات سعيدة تغييرًا. قلت: من شأن سماع مثل تلك الأمور أن يكون خيرًا يا هيلاري، هيا حدثيني عنها.

قالت: قبيل نهاية ولاية بل الأخيرة، استيقظت ذات صباح وأنا أفكر: مللت ركوب ذيل معطف بل، لست أقل ذكاء منه، وعمليًّا شاركته إدارة رئاسة الجمهورية، ما الذي يمنعني من إنعاش هيلاري رودهام التي كانت قيادية بالفطرة وبعثها من جديد، بالمبادرة شخصيًّا إلى الترشح لمنصب؟ قلَّبت الفكرة بعض الوقت حتى أوائل عام 1999م، حين خطر لي أنني أستطيع الترشح لمقعد في مجلس الشيوخ الأمريكي عائد لنيويورك كان سيخليه دانييل باتريك موينيهان وقد أفوز، وكلما زدت تفكيرًا بالموضوع، بدا معقولًا أكثر، فقررت بحث الأمر مع صديقي ومستشاري الأفضل؛ بل، سألته عن رأيه في إطلاق حياة عملية

خاصة بي بالترشح لعضوية مجلس الشيوخ عن نيويورك بعد مغادرتنا للبيت الأبيض.

لعل أحد أجمل الأشياء المميزة لبل بوصفه زوجًا هو أنه دائم التشجيع لي في كل ما أريد أن أفعله، لو قلت إنني راغبة في الذهاب لصيد الأسود في قمة إيفرست، لقال: لنحجز على الطائرة غدًا! وحين سألته عن رأيه حول الترشح عن نيويورك لمجلس الشيوخ، قال إنها فكرة عظيمة وسوف نفوز بأكثرية ساحقة.

فكرت، ما الذي تعنيه بنفوز، نحن -مستخدمًا ضمير الجمع-؟ إلا أنني لم أفصح عما فكرت به واكتفيت بالتعبير عن الشكر وتقدير دعمه، سارعنا إلى شراء بيت جميل في تشاباكوا النيويوركية لتأسيس مقر إقامتنا النيويوركي، ترشحت للمنصب في تشرين الثاني/نوفمبر عام 2000م، واكتشفت أن بل كان على صواب كالعادة، حدسه السياسي استثنائي بلا مثيل؛ فزت بأكثرية ساحقة، وكنت عضوة مجلس شيوخ الولايات المتحدة عن نيويورك مدة ثمانية أعوام من 2001/1/3م إلى 2009/1/21م، كنت سعيدة مثل قبَّرة، ووجدتني أغني- بالفعل- في الحمام أكثر ساعات النهار، كنت أخيرًا قد اهتديت إلى رسالتي، كنت في الستين من العمر. بعضنا يستغرق وقتًا أطول قليلًا قبل أن يكتشف رسالته.

2014 02 11

الحادي عشر من شباط/فبراير هو يوم ميلادي، فوجئت إذ وصلتني اثنتا عشرة وردة ضاحكة ذات سيقان طويلة، كم هي لطيفة! لم أتلقَّ أي ورود منذ رحيل زوجي، من ذا الذي يمكن أن يكون قد أرسلها؟

فتحت البطاقة الصغيرة المرفقة بالورود، وكدت أقع حين قرأت: ميلاد سعيد جدًّا، جدًّا، من هيلاري. أنا سعيدة بأنك ولدت. تأثرت كثيرًا؛ يا لها من امرأة عاقلة!

لدى وصولها إلى جلستنا قلت لها: شكرًا جزيلًا على الوردات يا هيلاري، غير أنك أخطأت، يفترض في المرضى ألا يقدموا أي هدايا لمحلليهم.

علقتْ مع ابتسامة: لا أمتثل للقواعد إلا إذا لاءمتني.

سألتها: كيف عرفت تاريخ ميلادي؟

قالت وهي تغمز: اطمئني! عندي أساليبي، كفّي عن ذلك وإلا فستعرفين كل شيء عني، قالت وراحت تزيد من الكلام عن أيامها في مجلس الشيوخ.

التماسي لعضوية مجلس الشيوخ قوبل بشيء من الريبة، غير أنني تمكنت من كسب الناخبين، وبعد أن أصبحت عضوة بدأ حتى الجمهوريون الذين توقعت

أنهم سيكرهونني يكتشفون أن بوسعنا أن نتعاون، وراحوا يحترمونني وإن على مضض.

في السنة الأولى، فيما أنا عاكفة على فهم ولايتي الجديدة ومنصبي الجديد، حاولت إبقاء سقفي العام منخفضًا ريثما أستكمل بناء العلاقات مع أعضاء الحزبين كليهما، كذلك أردت تجنب سيركات وسائل الإعلام التي سبق لي أن خبرتها وأنا سيدة أولى، التحقت بركب أعضاء متدينين عن طريق التحول إلى شريكة منتظمة في جماعة الصلاة بمجلس الشيوخ التي وجدتها بالغة الطمأنة في زحمة المجلس الزاخر بالهرج والمرج.

فرحت كثيرًا إذ انتخبت من جديد في عام 2006م، ومع حلول تشرين الثاني/نوفمبر عام 2007م كنت متمتعة باستحسان (60%) لأدائي.

ثم قالت: لعل إنجازي الأكثر أهمية كان إنجازًا لا يعرف عنه شيئًا سوى عدد قليل جدًّا من الناس. (راحت تعاين أظافر يدها). أحيانًا حين تقدمين خدمة استثنائية الجودة للناس، تشعرين بالخجل إذا تحدثت عن الأمر.

ابتسمتُ وقلت: أعرف ما تعنينه يا هيلاري.

استأنفت هيلاري الكلام قائلة: بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول عام 2001م المرعبة، سارعت إلى مساعدة النيويوركيين بتوفير التمويل لجهود الاستشفاء والإصلاح والتحسينات الأمنية الإضافية في الولاية، نجحنا؛ كبير سيناتوري نيويورك تشارلز شومر وأنا، بهدوء في تأمين (21,4) مليارًا من الدولارات لتمويل إعادة تنمية مركز التجارة العالمي، كذلك اضطلعت بدور قيادي في تقصي الشؤون الصحية لأوائل متصدي أحداث 9/11، وأيدت تحسين المكاسب الصحية لقدماء المحاربين.

أومأت؛ كانت جديرة بالاعتزاز بإنجازاتها ومحقة أيضًا في أن كثيرين بمن فيهم أصحابها الحميمين، لم يكونوا قد اطلعوا على جهودها.

قالت هيلاري: على الرغم من أنني تعرضت لوابل من النيران جراء الأمر، ربما حتى نيرانك أنت، فإنني كنت شديدة التأييد لتدخل الولايات المتحدة العسكري عام 2001م في أفغانستان، بذريعة أن ذلك كان فرصة لمحاربة الإرهاب مع العمل في الوقت نفسه على تحسين حياة النساء الأفغانيات اللواتي كن يرزحن تحت كابوس الحكم الطالباني، مازلت أعتقد أنني كنت على صواب.

بالمثل أقدمت، رغم أن بعضهم انتقدني وعدَّني من الصقور، على تأييد قرار تشرين الأول/أكتوبر عام 2002م، الخاص بالحرب العراقية؛ القرار الذي خوَّل الرئيس جورج دبليو بوش باستخدام القوة العسكرية ضد العراق، إذا ما تطلب أمر تنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي ذلك، بعد اتباع المحاولات الدبلوماسية الممكنة جميعها، كذلك راسخة الإيمان أنا بوجوب بقاء الأمم المتحدة- مهما كان الثمن- ضمانة أمن العالم، وإلا فسنواجه تكرر ما حصل لعصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى، ولطالما فكرت بأن الكونغرس اقترف خطأ فادحًا إذ أبقانا خارج العصبة، في ذلك المنعطف -أؤكد التوقيت المحدد- كنت أرى أن التفويض بعمل عسكري ضد العراق كان مبررًا.

مرة أخرى بقيت صامتة، من منطلق كونها صاحبة حق امتلاك قناعاتها، وإن لم أكن متفقة معها، لم تلاحظ هيلاري ذلك على ما بدا.

تبعًا لإيماني بأن الطبقة الوسطى تستحق شيئًا من الانفراج على النقيض من أصحاب الملايين في البلاد، اقترعت ضد حزمتي تقليص الضرائب الرئيستين اللتين روَّجهما الرئيس بوش، وفي مؤتمر عام 2000م الديمقراطي القومي، كنت قد دعوت إلى الحفاظ على فائض موازنة لتقليص الدين القومي لصالح أولادكم وأولادي.

في إحدى مناسبات جمع التبرعات في عام 2004م قلت لحشد من المتبرعين «كثيرون منكم ربما كانوا في أحوال جيدة كانت كافية لتمكينكم من الاستفادة، أما العمل على إعادة أمريكا إلى المسار الصحيح فقد يجعلنا مضطرين لقطع

الطريق على ذلك، سيتعين علينا أن نحرمكم أشياء باسم الخير العام». ربما أوجدت لنفسي عددًا كبيرًا من الأعداء بذلك الخطاب، إلا أن واجبي هو أن أدلي بصوت لصالح ما أنا مؤمنة به؛ ألا وهو الخير العام.

هنا كنت متفقة معها، غير أنني بقيت صامتة أيضًا، وبالفعل فإن سياستي أنا لم تكن شأنًا من شؤونها.

قالت هيلاري: انسجامًا مع اهتمامي بالتعليم توليت قيادة جهد مدعوم من الحزبين لتزويد الأرياف بشبكات اتصال واسعة المدى، وشاركت في رعاية قانون القرن الواحد والعشرين لبحوث علم النانو وتطويرها، ومما سرني كثيرًا أنني نجحت، مواصلة النشاط التعليمي الذي كنت قد بذلته في آركنسو، في استحداث تعديل يقضي بتمويل خلق فرص عمل لإصلاح المدارس العامة وتجديدها، وتحديثها.

أما هذا فقد تجدينه– يا دكتورة– صعب التصديق، مازلت غير مصدقة. في عام 2005م انضم إليَّ رئيس المجلس السابق غينغريتش تصورينا، نيوت (Newt) وأنا متعاونين! ذات يوم كان يتولى قيادة المعارضة الجمهورية لإدارة زوجي. أما الآن فقد بادرنا كلانا إلى تأييد اقتراح باعتماد رعاية صحية شاملة تراكمية متدرجة، وقد كان ذلك اقتراحًا عشقته استثنائيًّا! كذلك تعاونت مع زعيم الأكثرية الجمهورية في مجلس الشيوخ، بل فريست؛ دعمًا لتحديث السجلات الطبية بتكنولوجيا الحواسيب اختزالًا للأخطاء البشرية مثل خطأ قراءة الوصفات، انضممت إلى فيرست لاستصدار التشريع عندما اكتشفت أن فتاة صغيرة كانت قد ماتت جراء إعطائها وصفة غير صحيحة، أقسمت على فعل كل ما أستطيعه لمنع حصول مأساة أخرى مشابهة.

اقترعت ضد تثبيت جون روبرتس رئيسًا للمحكمة العليا في الولايات المتحدة؛ لم أقتنع بتحليه بما يكفي من الصراحة والدقة في آرائه كي أؤيد تثبيته، في اللجنة كنت أيضًا مع نحو نصف الأعضاء الديمقراطيين في معارضة ترشيح

سـاموبل آليتـو لعضوية هيئـة المحكمة العليا، ومـن ثم تثبيته جنبًـا إلى جنب مع جل الأعضاء الديمقراطيين في مجلس الشيوخ، ومن على منصة مجلس الشيوخ قلت إن آليتو كان سيجهز على التقدم الحاصل، ومرة أخرى أنا سعيدة باتباعي وجداني الميثودي، وإن أدى ذلك إلى إكسابي عددًا أكبر من الأعداء.

أدليـت بصوتـي مرتين ضد تعديـل الزواج الاتحادي الرامـي إلى حظر زواج المثليين، وقد فعلت ذلك لإيماني بأن الناس جميعهم يجب أن يتمتعوا بحق حب مـن يشـاؤون، شـرط ألا يلحقـوا الأذى بأي أحد، لسـت مع تمكـين الحكومة من إملاء من ينبغي أو لا ينبغي أن أقترن به زواجًا، أردت أن يكون الجميع متساوين في الامتيازات. (قالت هيلاري بحماسة).

مع أن الجمهوريين لم يكونوا راضين عن سجلِّي، يسعدني أن أخبرك بتمتعي، لدى الناخبين النيويوركيين، باستحسان ممتاز لأدائي في مجلس الشيوخ، بنسبة قياسية بلغت في كانون الأول/ديسمبر عام 2006م ستًا وسبعين بالمئة مقابل أربع وعشـرين بالمئة، هي النسـبة الأعلى إلى الآن. توجهت إلى النيويوركيين بخطاب شكرتهم فيه على إعطائي ثمانية أعوام لشغل منصب أحبه، عاكفة على متابعة أمـور أنـا شـديدة الاهتمام بها، لم أكـن وحدي من دمعت عينهـا؛ حيثما التفتُّ، رأيت أشخاصًا ينفضون أنوفهم.

رفعت هيلاري رأسها وسألت: سجل لابأس به، أليس كذلك يا دكتورة؟

أجبتهـا: معـك حق! بإحساس نابع مـن أعماقي ثم أضفت: تأثـرت بعمق إذ سـمعت عـن مسـاهماتك الرائعـة في خدمة أهـل ولايتنـا، ينبغي أن تعـرفي أنني فخورة بكوني محللتك.

2014 02 12

فاجأتني هيلاري اليوم إذ اتصلت وطلبت جلسة إضافية؛ ليقيني أن الأمر مهم بالنسبة إليها، وإلا لما طلبت، واصلت بقائي في العيادة بعد موعد المغادرة لاستقبالها.

سألتها، مهجوسة بنظرات الألم الواضحة: ما الخطب يا هيلاري؟

أجابت: أريد أن أحدثك عن أسوأ شيء تعرضت له؛ إنه لأمر يصعب علي كثيرًا أن أتحدث عنه، إلا أنني اكتشفت أن من الأفضل أن أبادر إلى إفراغ ما في جعبتي مباشرة فيما أنا مندفعة وإلا فلن أكون أبدًا قادرة على البوح.

علقتُ: عين الصواب.

بقيتْ صامتة إلى أن استعادت تحكمها في نفسها، ثم قالت: كما تعلمين من دون شك، ترشحت لرئاسة الولايات المتحدة وأخفقت، كنت قاب قوسين أو أدنى من البيت الأبيض، ودخل باراك أوباما على الخط في الدقيقة الأخيرة، وخرَّب كل شيء بالنسبة إلي، لا أظن أنني سأتعافى من الصدمة إلى الأبد.

كنت قد حلمت بأن أكون الرئيسة الأولى للولايات المتحدة منذ الطفولة، وكنت قد بدأت في السر أعد لترشيحي الرئاسي منذ أوائل عام 2003م، وفي العشرين من كانون الثاني عام 2006م، أعلنت على موقعي الإلكتروني عن تشكيل لجنة استكشافية رئاسية لانتخابات 2008م الرئاسية في الولايات المتحدة، قائلة بتباهٍ: «أنا في الحلبة! نازلة لأفوز!». حلَّقت تيهًا مع هتافات التأييد والاستحسان الصادرة عن الملايين في طول البلاد وعرضها.

لم يسبق لأي امرأة قبلي أن رُشحت من قبل حزب رئيس لرئاسة الولايات المتحدة، حين أصبح بل رئيسًا للجمهورية في عام 1993م، ثمة ثقة عمياء باسمنا باتت مترسخة؛ وفي نيسان/أبريل عام 2007م، شطبنا الثقة مع دخولي سباق الرئاسة، وفيما بعد ثمة تصريحات كشفت أن ثروتنا المشتركة نحن الزوجين بلغت الآن خمسين مليونًا من الدولارات، وأننا كسبنا ما يزيد على مئة مليون من الدولارات منذ عام 2000م، جاء الجزء الأكبر منه من كتاب بل ومحاضراته. تصوري بعد أن كنت أنا الداعمة له لسنوات، صار بل أخيرًا صانع ثروتنا!

سرني أن أكون في طليعة مرشحي الحزب الديمقراطي جميعهم للرئاسة في استطلاعات الرأي في النصف الأول من عام 2007م؛ فأكثرية الاستطلاعات كانت تضع كلًّا من السيناتور باراك أوباما والسيناتور السابق جون إدواردز من كارولاينا الشمالية بوصفهما المنافسين الأقرب مني، إلا أنني بقيت مطمئنة؛ فأنا معتادة على الفوز في أي منافسة أدخلها، أوباما وأنا كلانا سجل أرقامًا قياسية في حملات جمع التبرعات المبكرة، مراهنين على التفوق المالي في كل ربع، ومع حلول أيلول/سبتمبر عام 2007م، صارت استطلاعات الرأي في الولايات الست التي كان الحزب الديمقراطي يعقد فيها انتخاباته التمهيدية تشير إلى أنني الأولى في جميعها، ما أدى إلى إبقاء معنوياتي عالية، ومع حلول الشهر التالي كانت الاستطلاعات القومية تشير إلى تقدمي على منافسيّ الديمقراطيين جميعهم، يقينًا بدا كما لو كنت موشكة على أن أصبح رئيسة الجمهورية الأولى للولايات المتحدة.

غير أن ما فاجأني بعض الشيء أن ذلك لم يدم طويلًا؛ سرعان ما بدأت أقلق إزاء احتمال رجحان كفة أوباما، ولسوء الطالع تعرضت أواخر شهر تشرين الأول/أكتوبر لوعكة صحية فيما كنت منخرطة في حوار معه، وكان أدائي سيئًا إلى حد كبير، أعتقد أن تلك كانت بداية سقوطي؛ فقدرات أوباما الخطابية جنبًا إلى جنب مع رسالته الداعية إلى التغيير، بدأت تتناغم مع الديمقراطيين أكثر من تناغمهم مع سجل خبرتي، ولبعض الوقت الإضافي كنا متوازيين عنقًا لعنق، لاسيما في استطلاعات الولايات ذات التمهيديات المبكرة المتمثلة بإيوا، نيوهامبشاير، وساوث كارولاينا، غير أنني بدأت مع حلول شهر كانون الأول/ديسمبر أفقد إحساسي بالراحة والاطمئنان؛ على الصعيدين السياسي وغير السياسي.

أوائل عام 2008م كنت منحدرة إلى درك المرتبة الثالثة في مؤتمر إيوا الديمقراطي لاختيار المرشح، بعد كل من أوباما وإدواردز، وفي الأيام القليلة التالية راحت استطلاعات الرأي كلها تتنبأ بالنصر لأوباما في تمهيديات نيوهامبشاير، غير أنني نجحت في اجتراح فوز مباغت هناك بتاريخ الثامن من كانون الثاني/يناير؛ إذ هزمته بفارق بسيط ما أدى إلى تحسن حالي، أعتقد أنني نجحت لأن الجمهور ولاسيما النساء تعاطف معي أكثر، بعد رؤية عيني الدامعتين وصوتي المتهدج لدى الرد على سؤال أحد الناخبين عن الأطفال الذين يموتون جوعًا في إفريقيا، لعلي أردت أن أزعق: «انظروا، أنا لست الآنسة ثلاجة في النهاية».

غير أن طبيعة السباق تغيرت جذريًّا في الأيام القليلة التالية؛ تعرض عدد من ملاحظاتنا؛ بل وأنا، حول مارتن لوثر كنغ الابن لإساءة التفسير من قبل وسائل الإعلام، بوصفها ملاحظات تضع أوباما في خانة مرشح ذي توجه عنصري إضافة إلى الاستخفاف بمجمل إنجازاته السياسية، تصوري أن يكون أحدهم مقتنعًا بأننا؛ بل وأنا، ممن يمكن أن يطلقوا تعليقات ذات توجهات عنصرية نظرًا إلى تاريخنا الطويل من التسامح العنصري! لا أحد

يهتم بالحقيقة، الضرر وقع، ونتيجة لذلك خسرت جزءًا كبيرًا من تأييدي بين صفوف الأمريكيين الأفارقة.

كانت حملتي قد راهنت على كسب الترشيح يوم الثلاثاء الاستثنائي، ولم نكن مستعدين لجهد مالي مطول، وحين بدأت حملة جمع تبرعاتنا الإلكترونية تتعثر، أقرضت الحملة من رصيدي الخاص؛ لا بد من معرفة مدى أهمية الفوز بالرئاسة بالنسبة إلي، فأنا ابنة أبي آخر المطاف، ونحن نعرف كم كان بخيلًا.

كذلك كانت هناك شجارات متواصلة في إطار جهاز أركان الحملة، ومنطلقة من الاعتقاد بأن ذلك كان هو السبب، أقدمت على إحداث سلسلة من التعديلات في المراتب العليا، لم يفد ذلك في شيء، وبدءًا بشهر شباط/ فبراير عام 2008م، فاز أوباما في المؤتمرات والتمهيديات الأحد عشر التالية عبر البلاد، وبفوارق كبيرة في الغالب، وبات لافت التقدم فيما يخص المندوبين؛ كان استثنائي النجاح في التمهيديات حيثما كان الناخبون الأمريكيون الأفارقة، الأكثر شبابًا، خريجو الجامعات، أو الأكثر غنى ممثلين بين صفوف ناخبي هذه التمهيديات.

كنت أفضل حالًا في التمهيديات حيث كان الناخبون ذوو الأصول الإسبانية، الأكبر سنًا، غير خريجي الجامعات، أو العمال البيض هم الأكثرية، بعض قادة الحزب الديمقراطي عبروا عن القلق إزاء احتمال تمخض الحملة المطولة بيننا نحن الاثنين عن إلحاق الضرر بالفائز في المباراة الانتخابية العامة مع المرشح الجمهوري المفترض جون ماكين. لحسن حظ الحزب الديمقراطي، وإن لم يكن لحسن حظي أنا، ذلك لم يحصل.

أواخر آذار/مارس، تعين علي أن أعترف بعدم صحة تصريحاتي الدعائية المتكررة عن التعرض لنيران معادية صادرة عن قناصة إبان زيارة في عام 1996م لقوات أمريكية في قاعدة توزلا الجوية في البوسنة-الهرسك، اجتذب الأمر قدرًا كبيرًا من الاهتمام الإعلامي، وهدد بنسف صدقيتي وادعاءاتي حول

كوني صاحبة خبرة في السياسة الخارجية؛ لم أتعمد الكذب حول الموضوع، إلا أن خيالي يبالغ في التحليق أحيانًا، كان القناصة يطلقون النار فعلًا في مكان قريب، وتملكني الرعب خوفًا من التعرض للإصابة، ومن هذا الخوف شعرت كما لو أن القناصة كانوا قد أطلقوا النار علي أنا. حاولي أن تشرحي ذلك للصحافة!

في الثاني والعشرين من نيسان/أبريل، نجحت في تمهيدية بنسلفانيا، وعادت معنوياتي إلى الصعود إزاء أن احتمال الفوز بالترشيح وارد، إلا أن نشوتي لم تدم طويلًا؛ ففي السادس من أيار/مايو، أدى فوزي الضعيف في إنديانا جنبًا إلى جنب مع خسارة مدوية في نورث كارولاينا إلى وضع حد لأي فرصة واقعية لي في كسب إيماءة حزبي، لم تكن أمي مستعدة للموافقة على أن أكون انهزامية، فصممت على الصمود إلى حين انتهاء التمهيديات المتبقية، وبسبب تعليمها –تعليم أمي– كنت قادرة على تقبل الخسارة، أما الانهزام فلا وألف لا، رغم تقدم أوباما ربحت بعض المباريات الباقية، وبالفعل فإنني إذا حصرت النظر إلى الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحملة، اختتمت متفوقة على أوباما من حيث عدد الولايات، وعدد الأصوات، وعدد المندوبين، غير أنني بقيت غير قادرة على التغلب على تفوقه الأولي من حيث عدد المندوبين.

بعد التمهيديات الأخيرة في الثالث من حزيران/يونيو عام 2008م، كان أوباما حاصلًا على ما يكفي من المندوبين ليصبح المرشح، وفي خطاب وجهته إلى أنصاري في السابع من حزيران/يونيو، أنهيت حملتي بعينين دامعتين، فيما كانت أمي تبكي خلف الستارة، وعلى الرغم من أنني كنت محطمة القلب، فإنني لم أتردد في تأييد أوباما بحماسة مطلقة كلامًا من قبيل: «طريقة مواصلة نضالنا الآن لبلوغ الأهداف التي نرنو إليها تتمثل باستنفار كل ما لدينا من طاقة، وشغف، وقوة والمبادرة إلى فعل كل ما نستطيعه للمساعدة على انتخاب أوباما». كل منا كان قد حصل على ما يزيد على سبعة عشر مليونًا من الأصوات إبان عملية الترشيح، متجاوزَيْن الرقم القياسي السابق. لك أن تظني أن من

شـأن تحقيـق الأرقـام القياسـية أن يسـعدني، غـير أنـه لم يفعـل؛ إنني خاسـرة مسكينة، وإن حاولت أن أخفي ذلك.

ألقيـت خطابًـا مفعمًـا بالشـغف تأييـدًا لأوبامـا في مؤتمـر عـام 2008م الديمقراطـي القومي، وشـاركت مـرات في حملة الدعاية لـه في خريف 2008م، تلـك الحملـة التـي انتهت بفـوزه على ماكـين في الانتخـاب العام يـوم الرابع من تشـرين الثاني/نوفمـبر. حملتـي أنا انتهت رازحة تحت وطـأة ثقيلة من الديون؛ كنـا مدينـين بملايين الدولارات لأنصار خارجيين، شـطبت مبلغ الـ(13) مليونًا من الدولارات الذي كنت قد أقرضته للحملة، كان أبي سـيصاب بقدر هائل من الرعب. لحسـن حظ راحة بالي وهدوء أعصابي سُـدِّدت الديون أخيرًا مع حلول بداية عام 2013م.

بقينا صامتتين لبضع لحظات، ثم قلتُ بحزن: يؤسفني كثيرًا– يا هيلاري– أنك خسرت الانتخاب.

ردتّ: أنا أيضًا آسفة! –صرنا اثنتين!–.

2014 02 14

اقتحمت العيادة وبيدها خاتم ماس جميل وهي تقول بفرح: انظري إلى هدية بل لي في يوم الحب، يوم (الفالنتاين)!

لم يكن متوفرًا على ما يكفي من المال ليشتري لي خاتمًا كهذا عندما خطبني، وهو يعوِّض عن ذلك الآن؛ أن يأتي متأخرًا أفضل من ألا يأتي أبدًا، هذا ما أقوله دائمًا.

كان الخاتم رائعًا حقًّا، قلت: إنه جميل يا هيلاري؛ أرجو أن يجلب لك الكثير من السعادة.

علَّقتْ بما يشبه المزاح: واثقة أنا من أنه سيفعل، مع أنني لست من المغرمات بالحلي والمجوهرات. دعينا ننتقل إلى أمور أكثر أهمية؛ بعد خسارتي للانتخابات أمام أوباما وجدتني غارقة في بحر من الاضطراب والتشوش: لا شيء مما قاله كلٌّ من بل، أو تشلسي، أو أمي، أو أصدقاء حميمين، كان مفيدًا؛ تملكتني فكرة أنا خائبة.

ومن ذا الذي جعلني أشعر بالتحسن برأيك؟ إنه باراك أوباما؛ غريمي الأول، لا أحد سواه، الذي عرض عليَّ منصب وزارة الخارجية! كنت دائمة

الإعجاب ببـاراك، وعرضـه السـخي أشـعرني بشـيء مـن الذنب حول الأشـياء السـلبية التـي كنـت قد قلتها عنـه في أثناء الحملـة، أظن أنه لم يأخذ سـقطاتي مأخذًا شخصيًّا، بل تفهمها وعدَّها مجرد بلاغة سياسية. ليس من شأن كثيرين ممـن أعرفهـم أن يتحلوا بميـزة وضع الإسـاءات وجرح المشـاعر جانبًا، وتعيين المنافسـة السـابقة في ثاني أهم منصب في حكومة الولايات المتحدة. ولدى تأمل ما حصل، يراودني الشـك حول ما إذا كنت سـأعيِّنه وزيرًا للخارجية، أو في أي منصب آخر– بالفعل– لو كنت قد فزت أنا في الانتخاب.

قلـت: ربما لا يـا هيلاري، غير أنني معجبة بقدرتـك على قول الحقيقة حتى حين تكون بعيدة جدًّا عن تملقك.

فكرتْ بملاحظتي وقالت: شـكرًا دكتورة، يسـرني أن يكون هذا رأيك، بعض النـاس ينعتوننـي بالفظاظـة، أنـا صريحـة جـدًّا حول مـا أفكر بـه، ولا أتردد في البوح بما في ذهني، إذا أراد بعضهم أن يسـيء تفسـير ذلك، فأنا لا أسـتطيع أن أمنعهـم، غير أني لسـت ناجحة دائمًا في خدمة نفسـي حـين أبالغ في الإكثار من الكلام دونما ضوابط للسـان، شـخصيًّا اسـتطعت فعل ذلك، وعشت لأندم على ما فعلت إذ إن بل أو صديقًا عزيزًا كان يغضب مني.

ولكـنّ كلمـا فتحت فمي وأنـا وزيرة للخارجية، كانت أمريـكا تتكلم، كل كلمة قلتهـا تعرضـت للمعاينة، وللـروز، وللتأويل. ثمة أشـخاص حاولوا قـراءة ما بين الأسطر، ما تحتها، ما فوقها، وحتى البحث عن معنى لكل فاصلة وفراغ، صارت الحالة مزعجة قليلًا، ووجدتني أحيانًا تواقة إلى الأيام التي كنت أسـتطيع فيها أن أقول ما يحلو لي.

ثم أضافت: لسـت امرأة غبية، أعرف أن عليَّ مداهنة الصحافة، وأن تغيير قَصَّـة شـعري تزعـج النـاس، أعرف أن علـيَّ أن أتصرف كما لو كنـت بلا أفكار مطلقًا، إلا أنني لن أفعل ونقطة على السـطر. أنا قادرة على المسـاومة واجتراح

الحلول الوسط، وقد سبق لي أن فعلت؛ تخليت عن اسمي، واشتريت عدسات لاصقة، غير أنني أرفض التظاهر بأني شخص آخر لستُه.

ابتسمتُ. إنها هيلاري من قمة الرأس إلى أخمص القدم، هيلاري حتى النخاع من العظم.

تابعت الكلام قائلة: في غضون أسبوع واحد بعد الانتخاب الرئاسي، اتصل الرئيس المنتخب معي، وتحدث عن إمكانية اضطلاعي بتولي منصب وزيرة خارجية الولايات المتحدة، أتذكر حوارنا جيدًا؛ لأنني ذُهلت حين كرر: «أريدك وزيرة خارجيتي». وقلت: «ماذا؟ لا، إياك! رجاء! هناك في الولايات المتحدة أناس كثيرون يستطيعون أن يقوموا بالمهمة على نحو أفضل مني أنا!». أجابني: «لاأوافق على رأيك هذا».

إبان سباقنا الرئاسي، كان أوباما قد انتقد مؤهلاتي على صعيد السياسة الخارجية، وفكرة أن يبادر إلى تعييني وزيرة للخارجية كانت غير متوقعة إلى درجة أنني قلت لأحد مساعدي: «لن يحصل ذلك في مليون سنة». غير أن الاختلافات السياسية بيننا، رغم معاركنا في التمهيديات، لم تكن مفرطة الضخامة وقد طوَّرنا قدرًا من الاحترام المتبادل الذي أتاح لي فرصة الدعاية له من دون أي تحفظ في الانتخاب العام.

الصدقَ أقول إنني، وإن كُرمت بالعرض، لم أرغب في قبوله؛ أحببت أن أكون سيناتورًا ممثلة لنيويورك، لم أكن قد أنجزت مهمتي، ولم أرغب في ترك المنصب، غير أن أي فرصة تقدم ذات شأن على صعيد مجلس الشيوخ لم تبدُ واردة، وفيما كانت قيادة المجلس عاكفة على مناقشة مناصب قيادية محتملة أو ترقيات أخرى معي، فإن شيئًا محددًا لم يكن قد عُرض؛ آفاق صيرورتي زعيمة الأكثرية في مجلس الشيوخ بدت شبه مسدودة، لم يعجبني ذلك، فلسفتي في الحياة هي أنها منشارية: إذا لم تكوني صاعدة فأنتِ نازلة.

كنت أيضًا قلقة بشأن دور بل إذا ما وافقت على تولي المنصب، كنت صادقة مع أوباما حول هواجسي، كذلك كنت مشغولة البال باحتمال تمخض أنشطة بل ما بعد الرئاسية عن انتهاك قواعد صراع المصالح بين أعضاء الإدارة. كان -سلفًا- ثمة قدر كبير من التخمينات في الصحافة عن التأثير الذي يمكن لتولي المنصب أن يمارسه على سيرتي السياسية كما على أي تطلعات رئاسية مستقبلية محتملة، وأنا لم أكن بعد قررت إذا ما كنت سأتولى المنصب. ما الذي يجعلهم مهتمين إلى هذه الدرجة بالموضوع؟ فكرت: لماذا لا يكتفي هؤلاء بالاهتمام بشؤونهم الخاصة؟

تصورت استفهامها وقلت: إنه سؤال جيد.

فيما كنا؛ أوباما وأنا، نتحاور، بدأت أفكر: لو كنت قد فزت واتصلت به، لكنت رغبت أن يوافق، تعرفين أنني فتاة من الطراز القديم، تلك هي أنا تمامًا، إذا طلب إليك رئيس جمهوريتك أن تتولي منصبًا، فإن من الطبيعي أن تقولي: أمرك.

صديقتي كابريشيا مارشال، وقد كانت آنذاك رئيسة قسم البروتوكول في الولايات المتحدة، وكانت قد عرفتني منذ أيامي في البيت الأبيض، أكّدت صواب منطقي قائلة إنني كنت قد خدمت حين طُلب إليَّ أن أفعل فيما مضى.

أطفأت نار كبريائي وقبلت العرض، بعد ثمانية أعوام من إدارة بوش، كانت أمريكا على مفترق طرق؛ بلدان كثيرة باتت تتجنبها، خططتُ لجعل الولايات المتحدة شريكة مرغوبة من جديد، دائبة على استكشاف قطاعات قوة جديدة وتوسيع إطار دبلوماسية القرن الواحد والعشرين.

شرطًا لقبولي بالتعيين المعروض، وافق بل على عدد من القيود على أنشطة جمع التبرعات العزيزة على قلبه، على مركز كلنتون الرئاسي، وعلى مبادرة كلنتون الكوكبية، هو من حيث الجوهر وافق على امتناع ذينك الكيانين عن

التماس التبرعات من أي حكومات مرشحة للتعامل معي بوصفي وزيرة للخارجية، وافق على الأمر كرمى لعيني، كما لعين البلد.

قالت وقد تألقت عيناها: أعشق ذلك الرجل! أعول عليه دائمًا واثقة من دعمه لي، كنت أيضًا لاأزال أخشى أن يكون عرض باراك مجرد مجاملة، وألا يكون في الواقع متوقعًا قبولي للعرض، يبدو أنني كنت مخطئة في هذا.

وهكذا وافقت والذعر يملأ قلبي ويقصف ركبي؛ بدا وكأنه توقع مني تلقف المنصب مباشرة، من المؤكد أنه هادئ ورابط الجأش (بارد مثل خيارة)! إذا ما تعرضت الولايات المتحدة- لا سمح الله- لأي هجوم نووي، فسأكون راغبة في كونه ممسكًا بدفة القيادة، حسنًا أنا سعيدة بقبول المنصب، حتى إذا كادت أن تقتلني، فإنها ربما كانت التجربة الأعظم في حياتي، حتى إنها أفضل من شغل منصب عضوة مجلس شيوخ الولايات المتحدة، وإذا كنتِ قادرة على تحمل سماع قصة شغلي لمنصب وزارة الخارجية من دون أن تُصابي بملل قاتل- دكتورة- فسيسعدني أن أحدثك عن ذلك، سأحاول أن أوجز قدر الإمكان، في هذه المحطة لا تهم القصة سوى المؤرخين... والجمهوريين بلا أدنى شك.

على الرغم من أن السياسة لم يسبق لها قط أن كانت ساحة اهتمامي الكبرى، فقد وجدتني أقول لها: العكس هو الصحيح يا هيلاري، يطيب لي كثيرًا، وكثيرًا جدًّا أن أسمع عن ولايتك، عن مدة توليك لمنصب وزارة الخارجية.

تبقى هيلاري بالغة الدهاء؛ رمقتني بنظرات مثقلة بالشك غير أنها تابعت كلامها، شعرت بالأسف من أجلها وندمت على ضعف اهتمامي بالسياسة من قبل، وإلا لكنت قد ساعدتها على نحو أفضل، قررت أن أقرأ الصحف بقدر أكبر من العمق والإحاطة في المستقبل، وعلى الأمر ألا يكون بالغ الصعوبة لأنني كنت سأقرأ عن مرضاي، وزبائني.

ذلك هو أحد الأشياء التي أحبها كثيرًا حول عملي؛ كل مريض، زبون، يأتيني بنظرة مختلفة إلى العالم، مثل انكسارات الضوء المتباينة للماسة عند تقليبها.

بصرف النظر عن معرفتي واهتمامي السياسيين المحدودين، كانت هيلاري بحاجة إلى إنجاز اطلاعي على قصة حياتها.

2014 02 17

في وزارة الخارجية، كانت كوندوليزا رايس التي ليست شخصيتي المفضلة، سَلَفي، وجاء جون كيري بعدي، لم أكن إلا المرأة الثالثة التي شغلت المنصب في تاريخنا كله، كذلك كنت السيدة الأولى الوحيدة في الولايات المتحدة التي غدت عضوًا في مجلس وزراء الولايات المتحدة، ليس سجلًا سيئًا بالنسبة إلى فتاة لم تنجح قط نجاحًا يكفي لإرضاء أبيها! ما الذي كان يمكنك أن تقوله تعليقًا يا بابا؟ أنا واثقة من أنك كنت ستقول: كان يتعين عليك أن تصبحي رئيسة للجمهورية!

جلسات استماع التثبيت في لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ بدأت في الثالث عشر من كانون الثاني/يناير عام 2009م، قبل تنصيب أوباما بأسبوع واحد، أتذكر بعض ما قلته في تلك الجلسات مثل: «أعتقد أن الطريقة الفضلى لخدمة مصالح أمريكا في اختزال الأخطار الكوكبية، والإفادة من الفرص المتاحة على النطاق العالمي، هي المبادرة إلى تصميم حلول كوكبية وتطبيقها، علينا أن نستخدم ما باتت تعرف باسم (القوة الذكية) مجمل طيف الأدوات التي هي تحت تصرفنا- الدبلوماسية، والعسكرية، والاقتصادية، والسياسية، والحقوقية، والثقافية- وموظفو الأداة أو باقة الأدوات المناسبة لدى التعامل مع

كل حالـة؛ فمـع القوة الذكية سـتكون الدبلوماسـية طليعة سياسـتنا الخارجية».

رغـم كرهـي العميـق جدًّا للحـرب، كنـت في الصـف الأمامي لتجـاوب الولايات المتحـدة مع الربيع العربي، مع تلك الموجة الثورية من المظاهرات والاحتجاجات اللاعنفيـة والعنيفـة في العالم العربـي التي بدأت في كانون الأول/ديسـمبر عام 2010م، لاحقًـا دفعـت نحـو التدخل العسـكري في ليبيـا؛ لاعتقادي أن من شـأن الانخـراط العسـكري المبكـر أن يحـول دون وقـوع كارثـة شـبيهة بالهولوكوسـت لاحقًا، من المؤسـف أنه لم يفعل، مع أنه يسـرني أن أفيد بأنه أسـهم في الإطاحة بدكتاتور ليبيا الفاسد معمر القذافي في عام 2011م.

مـا إن اكتسـبت قـوات القـذافي مزيدًا من الزخـم حتى باتت تهـدد بارتكاب مجازر ضد مواطنين أبرياء أوائل عام 2011م، أعرب عدد من مستشاري أوباما النـافذيـن بمـن فيهم مندوبة أمريكا في الأمم المتحدة سـوزان رايس ومسـاعدا الأمن القومي بن رودس وسـامانتا باور، عن تأييدهم لشـن ضربات جوية، ومع أن أكثـر مـن ثلثي الرأي العام كان معارضًا لرأيهـم، فإننـي التحقت بركب دعاة التدخل، على الدوام ظلت فلسفتي قائمة على أن الدبلوماسية، والتنمية، وعملية الدفاع، لا تكون فاعلة وناجحة ما لم تُستخدم معًا، لعل ذلك يُذكِّر بحكمة «تكلم بنعومة واحمل عصا غليظة» المنسوبة إلى تيودور روزفلت.

كان ثمة أمر غريب حول المبادرة المباغتة للشـعوب كلها في تونس، وسـوريا، ومصر، واليمن إلى إطلاق سلسلة من الثورات معًا في الوقت نفسه، على الدوام يسألني الناس: ما الذي حلَّ بهم؟ جوابي هو أن هذا كله كان يغلي تحت السطح منـذ زمن طويل، ولم يكن أحد قد تنبـأ بحدوث هذه الانفجارات المتزامنة كلها، إلا أن تحذيـرات كانـت تطلـق منذ سـنوات حول كون المنطقة شـديدة الهشاشـة وعـدم الاسـتقرار؛ فحالـة الفقـر، وأنظمـة الحكـم الدكتاتوريـة، والانفجـارات السـكانية، والبطالـة المتفشـية بقسـوة تشـكل خلطـة متفجرة، لم تكـن الولايات المتحـدة عاكفـة على التخطيط لاعتماد مقاربة إسـتراتيجية شـاملة إزاء الربيع العربي، بل تعاملت مع الوضع المختلف لكل بلد على نحو منفصل.

2014 02 19

بادية شديدة الاضطراب بدأت هيلاري الكلام قائلة: أنا بحاجة إلى أن أحدثك عن أكثر التجارب إثارة للرعب في حياتي، من المؤكد أنك تعرفين مجموعة كثيفة التسليح مؤلفة من (125–150) مقاتلًا شنت هجومًا في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عام 2012م على البعثة الدبلوماسية الأمريكية في بنغازي الليبية، وقتلت سفير الولايات المتحدة جي كرستوفر ستفنس ودبلوماسيًّا آخر، وتاريخ 9/11 لم يكن مجرد صدفة يقينًا.

بعد بضع ساعات، في صباح اليوم التالي الباكر، أقدمت مجموعة ثانية على شن هجوم ضد مجمع مختلف على بعد نحو مئة ميل، وقتلت اثنين من عناصر أمن السفارة، عشرة آخرون جُرحوا في الاجتياحين اللذين سارعت حكومات ليبيا، والولايات المتحدة، والعديد من البلدان في طول العالم وعرضه إلى استنكارهما وشجبهما، كان ستفنس صديقًا عزيزًا. (قالت وهي تمسح دمعة). تفطر قلبي حين سمعت بموته، لم أتعافَ بعد، أشك بأنني سأفعل إلى الأبد.

كان ستفنس دبلوماسيًّا متمتعًا بقدر كبير من الإعجاب، والمحبة، والاحترام لدى رجال ونساء ينتمون إلى ضفتي عالم السياسة كلتيهما، وبجاذبية وتواضع

كان ممارسًا بارعًا للدبلوماسية الشخصية، لم تعد الأيام تجود بأمثاله إلا نادرًا؛ كان دبلوماسيًّا من النوع النادر الذي نجح في إنجاز سلسلة طويلة من الاتفاقيات وآليات التعاون من خلال علاقاته الشخصية، وكان معروفًا بأنه أنجز على موائد القهوة في الأسواق أكثر بكثير مما كان يمكن إنجازه من خلال أكوام الورق وآلاف البرقيات الإلكترونية.

ثمة تقرير خبيث للجنة استخبارات مجلس الشيوخ ختم تحقيقه باستنتاج أن الهجوم الذي أودى بحياة أربعة أمريكيين في بنغازي كان يمكن منعه، ووجه اللوم إلى وزارة الخارجية على إخفاقها في تعزيز الأمن بعد تلقي تحذيرات عن أزمة أمنية في المدينة، أحال التحقيق- أقله- جزءًا من المسؤولية على ستفنس بالذات. قال الجنرال كارتر هام قائد القوات الأمريكية في إفريقيا آنذاك، إنه كان قد اتصل بستفنس ليسأله عما إذا كانت السفارة بطرابلس بحاجة إلى المزيد من العسكريين الإضافيين لاستخدامهم في بنغازي، غير أن ستفنس أفاد هام بعدم وجود أي حاجة.

بعد مدة قصيرة، كرر الجنرال هام العرض في اجتماع بألمانيا، ورفضه ستفنس مرة أخرى، أنا شخصيًّا كنت قد أوفدت ستفنس مبعوثًا خاصًا، ما يجعل الحدث أكثر ألمًا بالنسبة إلي، وما لا أستطيع رَوْزه هو ما جعل رجلًا بذكاء ستفنس أن يتصرف بمثل هذه الحماقة المتمثلة برفض عرض هام؛ فلو قيل لي إنني في خطر، لما ترددت في قبول أي حماية أستطيع الحصول عليها، لا أريد أن أقول أي شيء غير إيجابي عن هذا الرجل المرموق والمحبوب غير الحاضر ليدافع عن نفسه، غير أنني سأقول لك أيتها الدكتورة ديل، إن عناد ستفنس سبب لي فيضًا من المتاعب، وكلفه هو، ويا للحزن! حياته.

في أوقات مختلفة بين الحادي عشر والسابع عشر من أيلول/سبتمبر، تعرضت ثماني سفارات دبلوماسية أخرى في الشرق الأوسط، وآسيا، وأوروبا لهجمات ثورات عفوية، كانت برأي بعض الرسميين ردًّا على فلم فيديو مثير

بعنوان براءة المسلمين، أعدَّه أحد الأمريكيين يحط من قدر نبي الإسلام محمد (ص)، في البداية ظُن أن هجوم بنغازي ترتب على احتجاج غير مخطط له مشابه، إلا أن المزيد من التقصي من قبل وزارة الخارجية الأمريكية ولجان مجلس النواب للقوات المسلحة، والشؤون الخارجية، والاستخبارات، والقضاء، ومراقبة الحكم وإصلاحه، أدى إلى استنتاج عدم وجود مثل هذا التمرد، وأن الهجوم كان مدروسًا ومدبرًا سلفًا، ونفَّذه حركيون إسلاميون.

تعرضت لوابل من نيران النقد لحضِّي على الانخراط العسكري في ليبيا، ويغيظني أن يُحكم على شغلي لمنصب وزيرة الخارجية من ذلك المنطلق وحده، من الواضح أنني أخطأت، إلا أن نيتي كانت سليمة؛ كنت أسعى للحيلولة دون وقوع كارثة إنسانية، وعلى الرغم من أن الكارثة تم تجنبها، والدكتاتور جرت إزاحته، فإن البلد يبقى غارقًا في عدم الاستقرار.

وعلى النقيض من شعوري بالذنب، كنت سعيدة بسماع ما قاله ديفد بروكس؛ أحد كتاب النيويورك تايمز والمعلق في بي بي أس (P.B.S) وإن بي آر (N.P.R)، عن الهجوم؛ كان الأمر موضوعًا عملياتيًّا خالصًا برأيه، وليس من شأن وزيرة الخارجية أن تُورط في أمر على مثل هذا المستوى المتدني؛ فأنا مسؤولة عن قضايا سياسية أكبر، وبروكس على صواب، غير أن الجمهوريين يحاولون استغلال الهجوم إلى الحدود القصوى الممكنة، على أي حال أنا راسخة الإيمان بأن دفعي باتجاه التدخل في ليبيا كان الخطأ الأكبر في حياتي السياسية. فيما كنت أتأهب لترك المنصب شاعرة بأنني قدَّمت عملًا جيدًا وزيرة للخارجية، هوجمت في استجواب يذكر بمحاكم التفتيش الإسبانية من قبل جمهوريين في مجلسي النواب والشيوخ حول خطأ حصل في بنغازي.

تقرير صادر عن لجنة استخبارات مجلس الشيوخ وزَّع المسؤولية عن عدم منع الهجمات على وزارة الخارجية والأجهزة الاستخباراتية، وتقرير الحزبين كشف عما يزيد على اثنتي عشرة واقعة عن الهجمات؛ قال التقرير إن وزارة

الخارجية أخفقت في زيادة الأمن في بعثتها الدبلوماسية رغم التنبيهات، ووجه اللوم إلى أجهزة الاستخبارات على عدم تقاسم المعلومات عن محطة ألـ سي آي إيه المتقدمة مع الجيش الأمريكي، على الرغم من أن الجمهوريين لا يكفون أبدًا عن إزعاجي حول الهجوم كما لو كنت شخصيًّا قد ألقيت القنابل وأطلقت النار، فإنهم ليسوا بحاجة إلى ذلك، إذا كانوا يريدون أن أكون حزينة، فإن عليهم أن يعرفوا أنني دائبة على لوم نفسي الوقت كله، مازالت قصة بنغازي تقض مضجعي، وأظن أنها ستظل تفعل ذلك طوال بقائي على قيد الحياة، لن أسامح نفسي أبدًا. أتحمل كامل المسؤولية عما حصل في بنغازي، ومازلت أصر على أن إدارة أوباما لم تتعمد تضليل الجمهور الأمريكي حين ألمحت إلى أن الهجوم خرج من رحم الاحتجاج على الفلم المعادي للإسلام، أعتقد أن الكراهية التي ولَّدها الفلم أسهمت في عنف الهجمات، كذلك أشرت إلى أنني لم أطلع على أي طلبات عن أمن إضافي للبعثة الدبلوماسية الأمريكية في بنغازي قبل الهجوم.

ما يبعث على الاطمئنان هو أن الكونغرس لم يكن مجمعًا على إلقاء مسؤولية الكارثة على عاتق وزارة الخارجية وعاتقي أنا؛ فعضوة مجلس الشيوخ الكاليفورنية ديانّه فاينشتاين؛ كبيرة الديمقراطيين في لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ، انتقدت المنتقدين الذين زعموا أن تقرير اللجنة ألقى اللوم علي أنا، وفي اليوم الذي أعقب إصدار اللجنة استعراضًا مطولًا لهجمات بنغازي، سلَّط بعض الجمهوريين الضوء على أن اسمي لم يرد حتى في الصفحات الثماني والخمسين للاستنتاجات التي كان أعضاء فريقي اللجنة الاستخباراتية قد وقعوها، أرادت فاينشتاين تنقية السجل، شاجبة توظيف التقرير لأغراض سياسية.

أحبك يا ديانّه فاينشتاين! بفضل أشخاص مثلك أنت و ديفد بروكس، أستطيع أن أنام ليلًا على نحو أفضل قليلًا.

2014 02 21

بابتسامة مضيئة دخلت هيلاري وهي تقول: مراحب دكتورة.

فكرت: يا للفرق الذي تحدثه الابتسامة! تبدو أصغر سنًا بعشرين سنة.

ثم بدأتُ الكلام: حسنًا، كفى عن بنغازي! أقله مؤقتًا. تغييرًا للموضوع، أقدمتُ في عام 2010م على استحداث تغيير إداري كبير في وزارة الخارجية– عملية مراجعة الدبلوماسية والتنمية كل أربع سنوات– في محاولة لجعل برامجنا وتخصيصنا للموارد أكثر مواكبة لأهدافنا الرئيسة، وعملية المراجعة (ألـ كيو دي دي آر QDDR اختصارًا) هذه هي دراسة تقوم بها وزارة الخارجية مرة كل أربع سنوات لتحليل الجهود الدبلوماسية والتنموية القصيرة، والمتوسطة، والطويلة الأمد التي تبذلها الولايات المتحدة في الخارج؛ تمثل الهدف بالتخطيط من منطلق أطول من التخصيصات والتحويلات السنوية العادية وصولًا إلى المزاوجة بين الدبلوماسية والخطط التنموية تحت مظلة واحدة.

كذلك هدفت العملية إلى عطف بعثات الوزارة على قدراتها لتعرُّف نواقصها، وقد أنجزنا أولى هذه المراجعات أواخر عام 2010م، وأنا مسرورة

لأنني استطعت بوساطة هذه العملية (عملية كيو دي دي آر) أن أساعد بلدنا على التخطيط مسبقًا لعالم أفضل للنساء كما لمجمل الجنس البشري.

كنت أيضًا وزيرة الخارجية الأولى التي وظفت وسائل التواصل الاجتماعي لإيصال رسالتنا إلى العالم، جميل أن يكون المرء أولًا بالنسبة إلى بعضهم، أما بنظري فهو أمر جوهري.

كنت أيضًا وزيرة الخارجية الأكثر سفرًا في تاريخ الولايات المتحدة، يا إلهي، عظامي مازالت شاعرة بذلك! راحت تضحك.

قلت لها: ما المضحك يا هيلاري؟

كنت أفكر برحلة إلى الصين، وذكرني ذلك بأني قلت لبل: «ينبغي ألا تكثر الجدل، وكما يقول المثل الصيني فإن «علينا أن نعبر النهر بسلام»، عندما نكون في القارب نفسه».

رد بل: «أستطيع السباحة دائمًا».

كلانا غرقنا في بحر من الضحك، ولم ننجز أي شيء إضافي في الجزء الباقي من الجلسة.

2014 02 24

إلـى جلسـتنا التاليـة جـاءت هيـلاري بادية أكثر جديـة مما كانـت في نهاية الجلسـة السـابقة. خير، قلت في نفسـي؛ كنت بدأت أخشـى أن نكون مبالغين في الاستمتاع واللهو على حساب تحليلها.

قالـت هيـلاري: اختيار أوباما لي وزيرة للخارجية عُدَّ جزءًا من خطة هادفة إلـى (جمـع المتنافسـين) في إدارتـه مـن قبيل مـا فعلـه أبراهام لنكولـن، كذلك اكتُشـف نجاح فلسـفة تعاون المتنافسين في الحرب أيضًا، كما حصل عندما كان تعـاون الجنرالـين جـورج مارشـال ودوايت آيزنهـاور لدى إطلاق غـزو التحالف لأوروبا الغربية الواقعة تحت الاحتلال الألماني في الحرب العالمية الثانية، كذلك اعتُمـد هـذا الأسـلوب في الأعمال مـن قبل أناس مرموقين مثل إنـدرا نوي التي أبقت على منافسـة رئيسـة في مجلس قيادة شـركة بيبسـي كولا، وهكـذا فإننا؛ باراك أوباما وأنا، كنا نخطو خطوات عملاقة.

إبـان المـدة الانتقاليـة لـلإدارة الأوبامية بعـد الانتخاب، وجدت عبـوري إلى منصبـي الجديـد صعبًـا، ربمـا لأنني لم يسـبق أن خطـر لي ولو حتـى حلمًا، أن أكـون وزيـرة للخارجية، أو أي وزيـرة أخرى في الإدارة بالمناسـبة، ومما زاد من صعوباتي إضافة إلى ذلك، كان في الأيام الأولى من شـغلي للمنصب، ثمة فيض

مـن المنـاورات طلبًـا لمناصـب في الـوزارة بين صفـوف أهل هيلاريلانـد، حلقتي القديمة من المستشـارين والمسـاعدين، جنبًا إلى جنب مع أعضاء هيئة الأركان الذيـن كانـوا قد عملوا معـي في الماضي. مؤسـف حقًّا أن طالبـي الوظائف كانوا أكـثر مـن المناصـب المتوافـرة، مـا اضطرني لخـذلان بعض النـاس الذين كنت شـديدة الرغبـة في تمكينهـم من العمل تحـت إمرتي، منحني بـاراك قدرًا أكبر من الحرية في اختيار أركاني مقارنة بأي عضو آخر في الإدارة، ومن نواح أخرى أيضًـا كان بـاراك يعاملنـي بقدر أكبر من الاحترام مقارنة بأي شـخص آخر في المجلس، هل كان يشعر بالذنب جراء انتزاعه للانتخاب مني؟ أم إنه كان معجبًا بي وحسب؟

رغم كل ما أحدثته في بداية سـيرتي العملية في مجلس الشـيوخ من ضجيج، أبقيـت سـقفي منخفضًا في الأشـهر الأولى من شـغلي لمنصـب وزارة الخارجية، اجتهـدت كثـيرًا للتآلف مع تاريـخ الوزارة، خلافًا لوضع بعض الوزراء، من دون ذكر أي أسماء، لا أومن بالكلام إلى أن أعرف كل شيء عما أتحدث عنه، وبغية امتـلاك القـدرة على روز مدى اطلاعي، تحدثت مع الوزراء السـابقين جميعهم الأحياء، لاسيما مع صديقتي الحميمة مادلين أولبرايت التي كانت عونًا لا يقدر بثمن، وبالمناسـبة فقد اكتشـفت مؤخرًا أمرًا مدهشًا عن مادلين؛ إنها تجيد قرع طبل الإيقاع! ليتني كنت أفعل! أنا عاجزة حتى عن أداء اللحن صفيرًا، قد يكون ذلك في الحياة الأخرى.

2014 02 27

كرست معظم أيامي الأولى في وزارة الخارجية للهاتف، إذ اتصلت بالعشرات من القادة الدوليين الذين كانوا ينتظرون سياسة خارجية أمريكية جديدة بفارغ الصبر، كان علينا أن نرمم أعطالًا كثيرة، لم أقل إن الإدارة البوشية كانت هي المسؤولة، غير أن الجميع كانوا يعرفون الحقيقة، أكدت أن السياسات السابقة لم تكن جميعًا واجبة الإلغاء، ورأيت استثنائيًّا أن من الجوهري أن تبقى المفاوضات السداسية حول برنامج أسلحة كوريا الشمالية النووية مستمرة.

في خطابي الأول أمام موظفي وزارة الخارجية، أعدت تأكيد وجهات نظري حين قلت (بذكاء، أعتقد، يجب أن أقول لنفسي)، «ثمة ثلاث قوائم لكرسي السياسة الخارجية الأمريكية: الدفاع، والدبلوماسية، والتنمية، نحن مسؤولون عن اثنتين من القوائم الثلاث، وسنكون واضحين في أثناء العمل حول أن الدبلوماسية والتنمية ليستا أداتين ضروريتين لبلوغ أهداف الولايات المتحدة بعيدة المدى وحسب، بل إن الدبلوماسية القوية والتنمية الاقتصادية الفاعلة هما أفضل أداتين على المدى الطويل لضمان مكانة أمريكا في العالم».

وقريبًا من ذلك الوقت، زرت أيضًا الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، حيث قابلت الموظفين وأفدتهم بأنهم سيحصلون على قدر أكبر من التمويل والاهتمام في ظل الإدارة الجديدة، ويسرني أن أقول إن خطابي قوبل بالتصفيق.

أبقيت سقفي منخفضًا حين كانت أسباب دبلوماسية تفرض ذلك، إلا أنني حافظت منذ البداية على علاقة عمل وثيقة مع الرئيس، لاسيما في قرارات السياسة الخارجية.

أيامي المئة الأولى شهدت إتقاني لمهنتي واكتسابي لمهارات معينة بوصفي عضوًا في المجلس. لدهشة الجميع- باستثنائي- وجدت الاضطلاع بدور لاعب فريق تابع لأوباما أمرًا سهلًا، كنت قد تعلمت أداء ذلك الدور بوصفي زوج بل كلنتون، غير أني- على أي حال- كنت نجمة دولية ذات قامة أطول بكثير من قامات جل وزراء الخارجية. خلفيتي بوصفي مسؤولة منتخبة أسهمت في تمكيني من امتلاك بصيرة نافذة إلى حاجات الممثلين المنتخبين في البلدان الأخرى وهواجسهم.

مع حلول صيف عام 2009م، كان ثمة نقاش كثير في وسائل الإعلام حول النفوذ الذي كنت أتمتع به في إدارة أوباما، مع أنواع التخمينات والاختلاقات كلها القابلة للتصور، ما الذي كان أولئك يظنونه؟ هل كنت أحاول أن أكون رئيسة بالشراكة مرة أخرى؟ حتى إن أحدهم زعم أننا عاشقان! لا أعتقد أن ذلك كان من شأنه أن يناسب ميشيل، بالفعل باراك وأنا نوعان مختلفان جدًّا من البشر، رغم حقيقة أننا اتفقنا عادة حول السياسة؛ لا تهمني خطاباته العصماء، وأعتقد أن فظاظتي كانت تزعجه، لم أصبح قط جزءًا من حلقته الداخلية الموثوقة، على الرغم من أنه كان على الدوام يكن لي أعظم آيات الاحترام، ويأخذ بنصحي بوجه عام.

مع أننا تعلمنا كيف نعمل معًا، لم نصبح حميمين في أي من الأوقات، إلا أنه صار في العامين الأخيرين من وزارتي يصغي إلى ما أقوله بقدر أكبر من

الانتباه، ولدى غيابي عن مناقشة أي أمر ذي علاقة بالسياسة الخارجية، كان يعبر عن رغبته في سماع رأيي قبل اتخاذ القرار، بدوري أصبحت أكثر ثقة بمنصبي، ورحت أدلي بآرائي وأبذل نصائحي بوتائر أكثر كثافة؛ أضفت آرائي البراغماتية إلى آرائه الأكثر نظرية، وأعتقد أن صوتي كان راجح الكفة.

أعدت تقييم دوري في وزارة الخارجية في خطاب بارز ألقيته منتصف تموز/ يوليو أمام مجلس العلاقات الخارجية، حيث قلت كلامًا من قبيل: «لا يسعنا أن نكون خائفين من الاشتباك أو غير مستعدين له، وتركيزنا على الدبلوماسية والتنمية ليس بديلًا من ترسانتنا الأمنية القومية، مازالت الولايات المتحدة متمتعة بالمؤسسة العسكرية الأكبر في العالم، أكبر من نظيراتها الثلاث التالية مجتمعة، إلا أن القوة العسكرية لم تعد كافية لحمايتنا، لاسيما مع تعرض الموازنات للتخفيض. يتعين على بلدنا أن يعيد ابتكار دبلوماسيته». أخشى أن يكون هذا النوع من التفكير بدأ يضفي علي ثوبًا صقريًّا، غير أن ذلك ليس هو ما عنيته. لم أرغب في ما هو أكثر من الالتزام بنصيحة تيودور روزفلت حول الكلام الناعم مع حمل العصا الغليظة.

2014 02 28

فيما يخص مبادرة المراجعة الأربعية (مبادرة QDDR) التي أطلقتها في الوزارة، لن تفاجئي- يا دكتورة- إذا علمت أن هدفًا مهمًّا لعملية المراجعة تمثل بهدف عمري الذي هو تمكين النساء في البلدان النامية حول العالم، ولأبين لك مدى مركزية تمكين النساء في تقرير المبادرة الأول، أشير إلى أن هذا التقرير أتى على ذكر كلمتي (نساء وبنات) مئة وثلاثين مرة! ومن خلال جعل أهدافي في هذا المجال جزءًا من الخطة الرسمية، كنا؛ زملائي وأنا، نأمل في أن يدوم عملي لخدمة تمكين المرأة طويلًا بعد انتهاء مدة ولايتي، جنبًا إلى جنب مع تحطيم السقف الزجاجي المميز للأعمال في الولايات المتحدة.

في أيلول/سبتمبر، تحدثت أمام المبادرة الكوكبية لمكافحة الجوع، والأمن الغذائي في الاجتماع السنوي لمبادرة بل السنوية، تمثل هدف الحملة بمحاربة الجوع في الأمكنة كلها من منطلقات منظمة بوصف الأمر جزءًا جوهريًّا من سياستنا الخارجية، بدلًا من بقائه مجرد توزيع للأغذية عند الضرورة.

شخصيًّا لست صعبة الإرضاء حول مواعيد الطعام ونوعية الغذاء، ويمكنني أن أكتفي بقضم سندويشة أو قرن موز إلى أن يحين الموعد المبرمج لفرصة الوجبة؛ لا داعي لأن أتناول الطعام في وقت محدد، ويمكنني أن أتحمل قرقعات

معدتـي مـن دون أن أغـرق في بحـر مـن البؤس، غـير أن ذلـك لا يشـبه الجـوع الحقيقي في شيء، إذا سبق لك أن جعت، نعم جعت جوعًا حقيقيًّا، فإنك تعرفين مدى هوله وانطوائه على الألم القاتل؛ حين يحل الجوع الحقيقي- يا دكتورة- لا شيء غيره يبقى مهمًّا. هل سبق للجوع أن عضك شخصيًّا يا دكتورة؟.

نفيت بحركة رأسية. قالت: قدرت، أنـا أيضًا لم يسبق لي أن عانيت جوعًا حقيقيًّـا، نحـن مـن الأوفـر حظًا على كوكب الأرض، ليس الأمـن الغذائي عن الغـذاء وحسـب؛ يخص الأمن كله: الأمن الاقتصـادي، والأمن البيئي، بل وحتى الأمـن القومـي، فالجوع الجماعي خطر على اسـتقرار الحكومات، والمجتمعات، والحدود.

والمبـادرة الكوكبيـة عاكفـة علـى تطوير اقتصـادات زراعية، ومكافحة سـوء التغذيـة، وزيـادة الإنتاجيـة، وتوسـيع نطـاق التجـارة، والتشـجيع علـى التفكير الإبداعـي الخـلاق في الأمـم الناميـة. قلـت إن الواجب يقضي بوضع النسـاء في مركـز الجهد، لأننا نشـكل- صدَّقت أم لا- أكثرية الأيـدي العاملة الزراعية في العالم، ما من أم مستعدة لرؤية فلذة كبدها تبكي جوعًا.

مـا أعظم المهمـة التي اضطلعت بها! مهمة شـغلتني 7/24 (أربعًا وعشـرين كل يوم من أيام الأسـبوع السـبعة)، رغم تأثيرات ذلك في كل عضو من أعضاء جسدي المرهق.

مـن ذا الـذي قال: «إذا عشـقت عملك، فلن تضطر للعمـل أبدًا من جديد»؟ تلـك هـي عواطفي بدقة؛ لم أشـعر قـط بأنني منخرطة في العمل؛ لأنني عشـقت عملي كثيرًا، وكنت مستعدة لمواصلته إلى الأبد لو لم يخذلني جسدي.

في تلـك الأثنـاء لم يتعـين علـي أن أفكر بمـا إذا كنا؛ رئيس الجمهورية وأنا، نصدر الأحكام نفسـها على صعيد السياسـة الخارجية، ولم أبالِ مطلقًا بدخول السـباق الرئاسـي مرة أخرى، وفي حـين أن بعض الأصدقاء والمستشـارين ظنوا

أني لم أكن أقول ذلك إلا لتركيز الاهتمام على دوري الذي كان راهنًا، وأن من المحتمل أن أغيِّر رأيي حول الترشح للرئاسة عام 2016م، فإن آخرين أدركوا أني كنت قانعة بالاتجاه الذي أخذته حياتي وسيرتي المهنية ولم أعد ذات طموحات رئاسية، وذلك كان شعوري إلى حد كبير، غير أنني لم أُفاجأ حين لم يصدقني أحد.

ابتسمتُ. أنا أيضًا لم أكن قد صدقتها.

2014 03 03

مـع حلـول نهايـة عـام 2009م، كان خمسـة وعشـرون بلـدًا قـد عينت نسـاء سـفيرات في الولايات المتحدة، رقم قياسـي! بعض المراقبين عـدوا ذلك (تأثيرًا هيلاريًّا)، ويشـرفني أن يكون ذلك صحيحًا، قالت سـفيرة موزبيق إلى الولايات المتحدة أميليا ماتوس سـومبانا إن تألقي وزيرة للخارجية سهَّل على قادة بلدان أخرى تعيين إناث في مناصب.

صحيح أن اثنتين أخريين؛ مادلين أولبرايت وكوندوليزا رايس، كانتا وزيرتين للخارجية الأمريكية حديثًا، فإن شهرتي الدولية منذ أيامي سيدة أولى للولايات المتحدة جعلت تأثيري هو الأقوى.

أما في الداخل فلم يكن كل شـيء ورديًّا، في شـهادة كانت في شـباط/فبراير 2010م أمام لجنة التخصيصات الفرعية، والعمليات الخارجية، والبرامج ذات العلاقة، بمجلس الشيوخ، عبرت مرة أخرى حول البطء الشديد لوتيرة عمليات تثبيـت تعيينـات أوبامـا في مناصـب دبلوماسـية، مـع تعرض بعضهـم للتعطيـل والتأخير المتعمد لأسـباب سياسية من جانب أعضاء جمهوريين، شددت على أن المشكلة شديدة الإساءة إلى صورة أمريكا فيما وراء البحار، بات أصعب فأصعب تفسـير سـبب عدم قيامنا بتعيين سـفراء يتولون مهامهم لعدد من البلدان ذات

الشـأن، هل تظنين أن ذلك أدى إلى ردع جمهوريي مجلس الشيوخ عن إزعاجي في كل منعطف؟

عند هذه المحطة كنت مرهقة جدًّا جراء أسفاري ومعاركي الموسعة في طول العالم وعرضه، وكنت أرى كلما نظرت في المرآة أن صراعات شغل منصب وزارة الخارجية كانت قد زادت عمري أقله عشر سنوات، لك أن تعودي إلى صوري دكتورة، سترين أنني لا أبالغ؛ لست امرأة مسكونة بالزهو، ولكن من منا يسعد بأن يكبر عشر سنوات في أربع؟ في عام 2009م، وأخرى في عام 2010م وثالثة في عام 2011م، أبلغت أوباما التزامي إكمال مدتي في الوزارة إلا أنني لن أعاود الكرة لمدة ثانية إذا ما تمت إعادة انتخابه، حذوت حذو الجنرال وليم تيكومسه شيرمان الذي قال بعد الحرب الأهلية حين كان البلد كله يضغط عليه طالبًا منه الترشح لرئاسة جمهورية الولايات المتحدة: «لن أدخل السباق، لن أتولى الرئاسة، ولو انتُخبت». لم يكن أوباما سعيدًا بقراري، غير أن أي شيء مما قاله لم يستطع أن يغير قناعتي. لو استطاع، ربما كنت قد مِتُّ حتى الآن.

قلتُ: فعلت ما هو صحيح يا هيلاري، لو مِتِّ فمن كان سيتولى قض مضاجع الجمهوريين؟

ضحكت قهقهة.

2014 03 07

بـدأت هيـلاري كلامها قائلة: في شـباط/فبراير 2009 قمت برحلتي الأولى بوصفي وزيرة إلى آسـيا، زائرة كلًّا من الصين، وكوريا الجنوبية، وأندونيسـيا، واليابـان في جولـة أطلقت عليها عنوان (جولة اسـتماع)، سـاعدتني على رسـم مسـاري المسـتقبلي بوصفـي وزيرة خارجيـة، كانت خططي حول ما كان النـاس يتمنـون أن أنجـزه، واصلت السـفر لأوقـات مديدة إبـان تلك الأشـهر الأولى في المنصب، حيث كنت أجد المحللين متحمسين مثلي لأهداف تحسين ظروف حياة النساء في الأمكنة جميعها.

كان الإصغاء إلى هذا العدد الهائل من الأصوات المتباينة رائعًا، في كل مكان زرته التقيت شـخصًا أو صادفت شـيئًا جديدًا أدى إلى فتح قلبي وعقلي كما إلى توسـيع فهمي للبشـر، ونتيجـة لذلك فإن العالم سـيكون على الـدوام مكانًا أكبر بنظري، ما تعلمته في (جولتي الاستماعية) جعلني جزءًا مما أنا اليوم.

في آذار/مارس، لدى حضور اجتماع وزراء خارجية دول الناتو في بروكسـل، أثرت موضوع إشـراك إيران في مؤتمر حول أفغانسـتان، واقترحت عقد المؤتمر آخـر الشـهر في هولنـدا، لم ينجح الاقـتراح، إلا أنني مازلت مقتنعـة بأنها فكرة جيدة.

كان حدث إعلامـي مع وزير الخارجية الروسـي سـيرجي لافـروف مصممًا لإلقـاء الضوء على القيـام بالضغط على (زر إعادة ضبـط) العلاقة المضطربة بعض الشـيء مع روسـيا، ولكـن الأمور خرجت قليـلًا عن سـكَّتها نتيجة ترجمة غير صحيحة لإحدى العبارات؛ يبدو أن كلمة (بريغروزكا) التي اخترناها نحن الأمريكيين عنت (زيادة تحميل) أو (فرط شحن) بدلًا من (إعادة ضبط)، ما أدى إلى وضعي في موقف محرج.

في شـهر آذار/مارس عـام 2009م، انتصـرت في حـوار داخلـي علـى نائـب الرئيـس جو بايدن حول إرسـال عشـرين ألف جندي إضافي إلى أفغانسـتان؛ أنا قلـت نعـم، هو قـال لا. يا له من جو طيب! نحن متنافسـان مخضرمان منذ زمن بعيـد، وسـرني الفوز في السـجال معه، شـعرت أيضًا بطبيعة الحـال أن ما فعلته كان هو الصحيح.

2014 03 19

تعرضت لوعكة صحية بسيطة تفسر الفجوة الحاصلة بين تاريخ الجلسة الأخيرة وتاريخ جلسة اليوم.

بدأت هيلاري كلامها قائلة: في كانون الثاني/يناير عام 2010م، قطعت رحلتي إلى مناطق آسيا والمحيط الهادي؛ للوقوف على الآثار المدمرة للزلزال الحاصل في هاييتي ولقاء الرئيس رينيه بريفال، كذلك أردت روز جهود الإغاثة والمساعدة على إجلاء الأمريكيين العالقين هناك، كان الجميع دائبين على العمل الجاد لإعادة البلد إلى حالته السابقة، كنت أيضًا محتفظة بذكرى خاصة عن هاييتي تعود إلى ما قبل عقود من الزمن؛ حيث أمضينا شهر عسلنا المؤجل هناك، كان بل مبعوث الأمم المتحدة الخاص إلى هاييتي، بكيت عندما زرت شاطئًا كنا قد أمضينا فيه وقتًا جميلًا، لأجده وقد تحول إلى كومة هائلة من الرماد.

وبوصفي من دعاة الإكثار من الأطفال، كنت منبهرة منذ وقت طويل بالطرق المختلفة التي تعتمدها بلدان متباينة في توظيف الإنترنت، بعضها لخدمة المواطنين وبعضها الآخر- مع الأسف- بطرق لا تفيد البشرية في شيء. في خطاب رئيس بتاريخ 21 كانون الثاني/يناير عام 2010م، متحدثة باسم

الولايات المتحدة، قلت إننا نريد شبكة إنترنت واحدة يتمتع فيها الجميع بحق الوصول المتكافئ إلى المعرفة، وإن الناس باتوا بفضل توافر الإنترنت قادرين، حتى في البلدان ذوات الأنظمة الدكتاتورية المتسلطة، على اكتشاف حقائق جديدة عن حكوماتهم كما على السعي لجعلها- هذه الحكومات- أكثر خضوعًا للمحاسبة، عقدت أيضًا مقارنات بين الستار الحديدي من جهة والإنترنت الحر والمقيد من الجهة الثانية.

خطابي الذي جاء بعد سجال حول خطة غوغل المتغيرة في مواجهة الرقابة الصينية أحدث على ما يبدو صدعًا بين الرأسمالية التسلطية الدكتاتورية والأنموذج الغربي للنظام الحر وتوافر الإنترنت.

احتج المسؤولون الصينيون بقوة، زاعمين أن ملاحظاتي مسيئة للعلاقات الصينية-الأمريكية، ومطالبين الرسميين الأمريكيين بإلحاح، بـ (احترام الحقيقة). بعض مراقبي السياسة الخارجية رأوا أنني بالغت في الاستفزاز، إلا أن البيت الأبيض بادر لحسن الطالع إلى تأييد موقفي، وطالب الصين بتقديم أجوبة أفضل عن الهجوم المعلوماتي الصيني الأخير ضد غوغل، أصاب خطابي عين الهدف، كانت هذه هي المرة الأولى التي بادر فيها مسؤول أمريكي إلى التعبير عن رؤية تقوم على النظر إلى الإنترنت بوصفه عنصرًا مفتاحيًّا من عناصر السياسة الخارجية الأمريكية.

في شباط/فبراير عام 2010م قمت بأولى زياراتي بوصفي وزيرة إلى أمريكا اللاتينية، جلت على الأورغواي، وتشيلي، والبرازيل، وكوستاريكا، وغواتيمالا، والأرجنتين. محطتي الأولى كانت بوينس آيرس حيث تحدثت مع رئيسة جمهورية الأرجنتين كريستينا فيرنانديز دي كريتشنر، ناقشنا سيادة جزر الفوكلاند ومسألة النفط في هذه الجزر، عبرت عن رغبتنا في رؤية الأرجنتين والمملكة المتحدة عاكفتين على تسوية المسائل بينهما بطريقة سلمية ومنتجة.

عرضت المساعدة على تيسير مثل هذه المناقشات إلا أنني لم أحصل على موافقة أرجنتينية بتولي دور الوساطة، رأيت أن لدي ما يكفيني من المشكلات، وبعد اثنتي عشرة ساعة من ملاحظاتي، سارعت رئاسة الوزارة البريطانية (10 داوننغ ستريت) إلى رفض الدور بقوة، قائلة إنها ترحب بإبقاء القنوات الدبلوماسية مفتوحة، ولكن دونما حاجة إلى أي انخراط من جانب الولايات المتحدة.

ثم ذهبت إلى سانتياغو، وتشيلي؛ للوقوف على العواقب الكارثية لزلزال تشيلي في عام 2010م، ولإيصال بعض المعدات لمساعدة السكان في جهودهم الرامية إلى التعافي.

2014 03 21

في نيسان/أبريل عام 2010م انطلق فيض من اللغو حول احتمال تعييني في المحكمة العليا الأمريكية؛ لملء الشاغر الذي ترتب على تقاعد القاضي جون بول ستفنس، بما في ذلك نوع من التوصية الصادرة عن عضو لجنة القضاء بمجلس الشيوخ أورين هاتش، شعرت بالاعتزاز إلا أنني أزحت الفكرة جانبًا؛ ليقيني أن ترشيحًا من هذا القبيل كان سيتعرض للإلغاء من قبل الرئيس أوباما الذي سرعان ما أعلن قناعته بأنني كنت أقوم بعمل ممتاز، وبأنه راغب في بقائي وزيرة للخارجية.

أسعدني سماع رأيه، ناطق باسم وزارة الخارجية أكد تصريح الرئيس حين قال إنني مولعة بحب عملي الحالي وغير طامحة إلى أي منصب جديد، كان على حق إلا أنني أتذكر الماضي أحيانًا وأفكر بأسى تصوري، كنت أهلًا لعضوية المحكمة العليا! كم كانت أمي ستفاخر بذلك! وعملي في المحكمة العليا كان من شأنه أن يبقى أقل ثقلًا وكلفة جسدية من عملي وزيرة للخارجية.

قلتُ: من جهتي، شخصيًّا، أنا سعيدة ببقائك صامدة.

مـع حلـول منتصف عـام 2010م كنا؛ الرئيسـ وأنـا، قد طوَّرنـا علاقة عمل ناعمة، خالية من الشوائب، كنت قد برهنت على أنني لاعبة فريق داخل الإدارة وحرصـت علـى بقائنـا؛ بل وأنـا، بعيدَين عن التطـاول على الرئيسـ، بدوره درج الرئيسـ علـى عادة قبـول وجهات نظري بل، وأقدم في بعض الحالات على تبني مقارباتـي الأكـثر صقرية، كنت ألتقيه أسـبوعيًّا إلا أنه لم تربطني به أي علاقة، مثل تلك التي نسجها بعض أسلافي مع رؤسائهم، كما فعلت كوندوليزا رايس مع جورج دبليو بوش (ظل الشـك يـراودني دائمًا حول كونهـا في علاقة حب معه)، وفعـل كل مـن جيمسـ بيكر وهنري كيسـنجر مع كل من جورج إتشـ دبليو بوشـ وريتشارد نكسون على التوالي.

2014 03 24

بدأت هيلاري تقول: في أثناء زيارة كانت أوائل حزيران/يونيو عام 2010م.

ما إن نطقتْ بعبارة حزيران/يونيو عام 2010م، حتى وجدتُني مشغولة كليًّا بسؤال: كيف تذكرتْ هذه التواريخ والمواعيد كلها؟ ورأيت أن من الأفضل أن أستوضح كي أتمكن من تركيز انتباهي عليها من جديد.

قلتُ: آسفة لمقاطعتك يا هيلاري، غير أنني كنت أتساءل عن كيفية تذكرك لتلك التواريخ كلها.

ردت وهي تبتسم: الجميع يسألون عن ذلك دائمًا؛ قبل كل شيء، متمتعة أنا بذاكرة ممتازة، أحيانًا يفاجأ الناس حين أتذكر أسماءهم وأسماء أولادهم، كذلك أبذل جهدًا لأتذكر الأشياء، أنا إنسانة مرتبة، ومنظمة، ويساعدني بقاء الأمور في ذهني حين أكون مطلعة على تواريخ حدوثها، ولا بد لي من الاعتراف بأنني أقوم (حين أكون على علم بما أنا راغبة في الكلام عنه معك في جلسة معينة) بتدقيق الموعد سلفًا كي تظني أنني ذكية. (قالت مع ابتسامة). غير أنك أنت أيضًا تتذكرين كل تفصيل دقيق يا دكتورة، كثيرًا ما تقتبسين أشياء

قلتها سابقًا، أن فلانًا قال كذا، حتى بعد أشهر. تخميني أننا نتذكر ما يكون مهمًّا بنظرنا.

تذكرت كتاب الإصغاء بالأذن الثالثة لتيودور رايك. وافقت على استنتاج هيلاري الأخير، وكنت من جديد قادرة على الإصغاء إليها بآذاني الثلاث كلها.

استأنفت من النقطة التي توقفت عندها لتقول: في أثناء زيارة كانت أوائل حزيران/يونيو عام 2010م لكل من كولومبيا، والإكوادور، وبيرو، تعين علي أن أعالج جملة قضايا في كل محطة حول قانون أريزونا المثير للكثير من الخلافات حول الهجرة، ذلك القانون الذي كان قد أجهز على صورة الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية؛ قانون دعم تطبيق القانون وعلاقات حسن الجوار السلمية (المستحدث بوصفه مشروع قانون لمجلس شيوخ أريزونا برقم 1070) كان نصًّا تشريعيًّا عائدًا لمجلس شيوخ أريزونا، نصًّا شكل التدبير الأوسع والأقسى ضد الهجرة غير الشرعية في تاريخ الولايات المتحدة الحديث.

نص مشروع القانون على أن قانون الولايات المتحدة الاتحادي يلزم الأجانب جميعهم الذين هم فوق سن الأربع عشرة، والذين يبقون في الولايات المتحدة مدة تزيد على ثلاثين يومًا بتسجيل أنفسهم لدى الحكومة، ومخالفة هذا القانون- أي إذا وُجد أجنبي في أريزونا غير متوفر على الوثائق المطلوبة- ستعد مخالفة محلية على صعيد الولاية من ناحية ومخالفة اتحادية على الصعيد القومي من ناحية ثانية، وقضى النص أن يتولى ضباط تطبيق القانون مهمة توصيف وضع الفرد المهاجر إبان (اعتقال، أو توقيف، أو احتجاز قانوني)، لدى توافر ما يدعو إلى الشك بأن ذلك الفرد المهاجر غير شرعي.

منتقدو القانون قالوا إنه تشجيع للنزعات العنصرية، في حين قال مناصروه إنه وضع حدًّا لتوظيف الانتماء العنصري أساسًا وحيدًا لتقصي وضع هذا المهاجر أو ذاك. جرت مظاهرات احتجاج ضد القانون في أكثر من سبعين

مدينـة أمريكيـة، غـير أن اسـتطلاعات الـرأي برهنـت على تمتع القانـون بقدر واسع من التأييد الشعبي.

في الثلاثـين مـن نيسـان/أبريل عـام 2010م (نظـرت إلي وابتسـمت حـول تذكرها للتاريخ على ما يبدو) مجلس أريزونا التشريعي أقر المشروع الذي عدل القانـون الموقـع قبل أسـبوع، ووقعه حاكـم الولاية بريور، مع النص المعدل الذي تضمن أن «محامي الادعاء العام لن يحققوا في شكاوى مسـتندة إلى أي أساس قائم على العنصر، أو اللون، أو الجنسية».

كذلـك تضمـن النص الجديـد أن الشـرطة لا تسـتطيع التحقيـق في وضـع المهاجر إلا في حالة (اعتقال، أو توقيف، أو احتجاز قانوني). في الولايات المتحدة تـوزع معارضـو القانون ومؤيـدوه على الحزبين على نحو تقريبـي؛ إذ كان معظم الديمقراطيين ضد المشـروع وجل الجمهوريين معه، لكِ أن تقدري الصيغة التي أيدتها.

ردًّا على سؤال من مراسلي التلفاز في كويتو، قلت إن الرئيس أوباما كان ضد القانـون، وإن وزارة العـدل- بتوجيه منه- خططت لإطلاق دعوى ضد القانون، كان هذا البيان العلني الأول عن اعتزام وزارة العدل التحرك ضد القانون، وبعد شـهر واحد أصبحت القضية رسـمية تحت عنوان الولايات المتحدة الأمريكية في مواجهة أريزونا.

في آب/أغسطس 2010م، أدخلتُ ذلك النزاع حول القانون في تقرير موجه إلـى مكتـب مفوض الأمم المتحدة السـامي لحقوق الإنسـان، مـوردة إياه بوصفه أنموذجًا يمكن للبلدان الأخرى أن تعتمده لحل مشكلات صعبة في ظل القانون.

في تموز/يوليو 2010م، زرت الباكستان للمرة الثانية وأنا وزيرة، مصطحبة حزمـة كبـيرة مـن المعونـات الاقتصاديـة الأمريكية جنبًـا إلى جنب مـع اتفاقية تجارية ثنائية بين باكسـتان وأفغانستان بقيادة أمريكية. (ضحكتْ وهي تقول):

تلك كانت المرة التي وثقت فيها من أكون ضيفة جديرة بالترحيب، وفي أثناء وجودي هناك كانت لي محادثة ممتعة مع محافظ البنجاب؛ سلمان تيسير المولع بالمزاح. قال: «يطيب لي أيتها السيدة كلنتون، أن تعلمي أنني درجت على رمي مبنى السفارة الأمريكية في ساحة غروسفينور بالحجارة، حين كنت في لندن –التي كنت أنوي السفر إليها–». أجبته من دون إضاعة لحظة السخرية المناسبة: «لا حاجة إلى القلق حول الأمر، يا سيادة المحافظ. أنا فعلت الشيء نفسه».

وكانت نوبة ضحك هستيرية تملكتنا كلتينا.

2014 03 26

بعد ذلك طرت إلى أفغانستان لحضور مؤتمر كابول. (قالت هيلاري، عائدة إلى أسفارها وهي وزيرة للخارجية) حيث أقسم الرئيس الأفغاني حامد قارزاي على إطلاق حملة إصلاحات مقابل التزامات غربية متواصلة، أبلغت الحضور بأن الولايات المتحدة لم تكن عازمة على التخلي عن وعدنا بتحقيق أفغانستان مستقرة، وآمنة، ومسالمة. التضحيات والخسائر الجسيمة التي تكبدتْها أعداد كبيرة جدًّا من البلدان أضخم من أن تسمح لنا بالتسرع في الانسحاب قبل الأوان.

ثم ذهبت إلى سيؤول والمنطقة الكورية منزوعة السلاح حيث التقينا، وزير الدفاع روبرت غيتس وأنا، كلًّا من وزير خارجية كوريا الجنوبية يو ميونغ هوان ووزير الدفاع الوطني كيم تاي يونغ؛ لإحياء الذكرى السنوية الستين للحرب الكورية، وقلت هناك إن الولايات المتحدة كانت، من خلال بقائها في كوريا عقودًا من الزمن، حققت نتيجة ناجحة، يمكن تطبيقها على أفغانستان أيضًا، أخيرًا ذهبت إلى هانوي لحضور منبر آسيان (ASEAN) الإقليمي مختتمة ما أطلقتْ عليه النيويورك تايمز اسم «رحلة شاقة موازية لجولة على حروبنا الأمريكية، السابقة والحالية».

قد لا تكون (شاقة) هي الكلمة المناسبة! من شأن عبارة (قاتلة) أن تكون أكثر دقة في وصف ما تعرضت له، عدت إلى الوطن وذبت ذوبانًا في سريري مدة أسبوع كامل، ساعة جسدي كانت مشلولة معطلة، لم تكن أجزائي كلها قد عادت إلى الولايات المتحدة؛ بعضي بقي ملتصقًا بجدار الطائرة، حين دخلت سكرتيرتي غرفة النوم قائلة: «ثمة مخابرة هاتفية مهمة لك!» أجبتها: «قولي لهم ماتت». بيان يكاد أن يكون صحيحًا!

2014 03 28

في خطاب واسع الانتشار في أيلول/سبتمبر عام 2010م أمام مجلس العلاقات الخارجية، أكدت أولوية قوة الولايات المتحدة وانخراطها في العالم، معلنة الزمن الحالي: «لحظة أمريكية جديدة عظيمة»، ومشيرة إلى عدد كبير من التحركات إبان ولايتي وزيرة للخارجية، من إحياء المباحثات الشرق أوسطية إلى مساعدة الولايات المتحدة عقب الفيضانات الباكستانية في عام 2010، قلت إن الولايات المتحدة عادت، بعد سنوات من اللايقين والحرب، تتولى قيادة العالم في هذا القرن الجديد.

ومع احتمال تعرض الديمقراطيين لخسائر كبيرة في انتخابات 2010م النصفية، وتدهور شعبية الرئيس أوباما السريع في استطلاعات الرأي، كان ثمة كلام كواليس في واشنطن عن احتمال صيرورتي مرشحة نائب الرئيس مع أوباما في 2010م تعزيزًا لحظوظه الانتخابية، هل ترين أنني كنت أكثر جاذبية من جو بايدن، يا دكتورة؟

ابتسمت إلا أنني لم أرد على السؤال.

لم تكن هيلاري معجبة بلجوئي إلى امتياز المحللة النفسية المتمثل بالتزام الصمت، تأففت وتابعت: بعض طبعات هذا اللغو جعل نائب الرئيس بايدن يحل محلي في وزارة الخارجية، ألا يوجد لدى الناس أي شيء أهم من اللغو؟ وحين ذُكرت فكرة المقايضة الوظيفية أمامي، اكتفيت بالابتسام وهز الرأس، وبعد نحو شهرين أجهز الرئيس أوباما كليًّا على الفكرة، قائلًا إن الرأي «عديم الأساس تمامًا، وإننا كلينا، ناجحان نجاحًا ممتازًا في منصبينا». ذلك هو كل ما أنا بحاجة إليه: أن أصبح نائبة رئيس! لن أقبل بذلك المنصب ولو أعطوني سطلًا من الذهب فوقه! أليس التعب المصاحب للاضطلاع بمنصب وزارة الخارجية كافيًا؟!

في صيف عام 2010م تم إحياء عمليات السلام المشلولة في النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني، حين وافق البلدان أخيرًا على التفاوض، ومع أن الرئيس أوباما كان ضابط إيقاع التحرك، فإنني كنت قد أمضيت أشهرًا من ملاطفة الطرفين المعنيين لمجرد إجلاسهما إلى الطاولة، وإقناع الفلسطينيين من خلال ترتيب الدعم لمفاوضات مباشرة مع مصر والأردن، ومتحدثة في أيلول/سبتمبر في اجتماع بوزارة الخارجية بين رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو ورئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس ذكَّرتهما بأننا نعرف- من التجربة- أن الأمر سيكون صعبًا.

كان دوري في الوساطة هو الحلول محل جورج ميتشل، مبعوث الولايات المتحدة الخاص إلى الشرق الأوسط، لدى تعرض المباحثات لخطر الانهيار. بوجه عام لم تحظَ المباحثات إلا بالقليل من فرص النجاح، وقد واجهت تاريخ سلسلة طويلة من الإخفاقات السابقة بما فيها شبه- ضياع بل في قمة كامب ديفد عام 2000م، غير أن دوري البارز في هذه الجلسات أدى إلى قذفي إلى بؤرة أبعد من الأضواء الدولية وترك بصمته على تراثي وزيرة.

سألتها: وكيف ذلك؟

كما لو كنت لم أسافر كفاية، أقدمت في تشرين الأول/أكتوبر بركبتين مرتجفتين، على الانطلاق إلى جولة على سبع دول في آسيا وأوقيانوسيا، وزير خارجية نيوزيلندا موراي ماكولي وأنا، اجتمعنا في نيوزيلندا ووقّعنا إعلان ولنغتون لإحياء ذكرى العلاقات الوثيقة بين بلدينا، ولوضع الإطار المناسب لشراكة إستراتيجية أمريكية-نيوزيلندية جديدة، فشكل اتفاقنا تعافيًا للعلاقة الدبلوماسية والعسكرية المشلولة منذ زمن طويل بين نيوزيلندا والولايات المتحدة.

كان التوقيع بعد خمس وعشرين سنة من قيام الولايات المتحدة، في أعقاب حادثة يو أس أس بوكانان، بتجميد التزامات معاهدة آنزوس (ANZUS) مع نيوزيلندا، كنا قد طلبنا قيام يو أس أس بوكانان بزيارة البلد، لاختبار سياسة نيوزيلندا البريئة نوويًّا، رفضت الولايات المتحدة تأكيد أو نفي ما إذا كانت حاملة البوكانان مسلحة نوويًّا، والحكومة النيوزيلندية حظرت دخول البوكانان، ونتيجة لذلك قطعنا العلاقات الدبلوماسية، ودامت القطيعة خمسًا وعشرين سنة! كنت سعيدة برتق صدع قديم. لعل هذا- كما أرى- هو العمل الدبلوماسي الدولي بأفضل تجلياته.

2014 03 31

لسوء الطالع حين تكون الأمور سائرة على ما يرام يكون احتمال وقوع الكارثة أقوى؛ ففي تشرين الأول/أكتوبر عام 2010م أطلقت منظمة اتصالات دولية تتولى نشر معلومات وأخبارًا سرية في تسريبات تدعى ويكيليكس، حزمة مؤلفة من (400) ألف وثيقة عن العراق وأفغانستان تحت عنوان سجل الحرب العراقية، وبين أشياء أخرى كشفت التسريبات عن مدى الإخفاقات في أفغانستان، وعن أعداد أكبر من القتلى المدنيين مقارنة بالأعداد المعلنة من قبل، أرادت المجموعة فضح الدسائس والمكائد داخل الحكومة الأفغانية، ووعدت بأن تكون وزارة الخارجية الهدف الثاني. من عادتي أن أنام جيدًا، إلا أنني منذ شهر جافاني النوم، جراء توجسي مما سيُكشف.

وكما بات معلومًا فإن ويكيليكس أقدمت أواخر تشرين الثاني/نوفمبر على إطلاق جملة من برقيات الخارجية السرية، نُشرت مختارات منها لاحقًا من قبل عدد من صحف العالم الرئيسة، كانت المنظمة قد وضعت يدها على (250) ألفًا من الوثائق الرسمية، وراحت تتعاون مع وسائل إعلام دولية لنشر كنوزها على الصفحات الأولى في طول الكوكب وعرضه، خططت ويكيليكس لإماطة اللثام عن التسريبات في عطلة عيد الشكر الأسبوعية.

كنت في تشـاباكوا مع عائلتي للاحتفال بعيد الشـكر، وطلبت تشلسـي ألا أرد علـى أي اتصـال هـاتفـي أيـام العطلـة، تعـين علـي أن أوافق بصـرف النظر عن الأزمـة، غـير أنني عوَّضت عن ذلك يـوم الجمعة؛ بقيت على الهاتف الوقت كله، كنت أمشـي والسـماعة على أذني اليمنى مواصلة الاتصال برسـميين في ألمانيا، وبريطانيـا العظمـى، وفرنسـا، والمملكـة العربية السـعودية، والإمـارات العربية المتحـدة، والصين، وأفغانسـتان، وكندا، منبهة إياهم حول التسـريبات القادمة وملتمسـة صفحهـم، تعـين علي تكرار الأشـياء ذاتها مرة بعد أخـرى حتى كادت تخـرج مـن أذني. لم نكـن نعرف بعـد ماهية المواد السـرية التي سيُكشـف عنها بالنسـبة إلى كل بلد، إضافة إلى تأثر قادة العالم سـلبًا، كنت أخشـى من تعرض موارد سـرية للانكشـاف، ولعل ما هو أسـوأ أنه بات ضروريًّا إبلاغ قادة معينين بـأن علـى أسـمائهم أن تشـطب من الوثائـق، وإلا فإن حياتهم سـتكون في خطر، تحملت مسؤوليتي بكل جدية، وآمنت بأن أفضل طرق التخفيف من الضربة هي المبادرة إلى توظيف لباقتي والتماس تفهمهم.

تسـريب البرقيـات تمخض عن أزمة في وزارة الخارجيـة، مع تعرض بيانات وتصريحـات صريحـة وفظـة لدبلوماسـيين أمريكيـين وأجانب للانكشـاف على المـلأ، توليـت قيادة عملية التحكم في الأضرار عـن الولايات المتحدة في الخارج، وسـعيت لتعزيـز معنويات موظفي السـلك الخارجـي المخضوضـة. بعض القادة الأجانـب سـلموا باللغـة الصريحـة للبرقيات؛ فوزيـر الخارجية الكندي لورنس كانـون مثـلًا، طلـب إليَّ ألا أبالي؛ لأن مـا كان الكنديون قد قالوه عني كان أسـوأ بكثير مما كنا نحن قد قلناه عنهم.

انتقدت التسريبات بقسوة مطلقة كلامًا من قبيل «لنكن واضحتين بشأن هذه التسريبات: ليست مجرد هجوم على مصالح السياسة الخارجية الأمريكية. إنها عدوان على الأسـرة الدولية — على جملـة محادثاتها، وتحـالفاتها، ومفاوضاتها التـي تحمـي الأمـن الكوكبـي». علـى الفـور بـادرت وزارة الخارجية إلى تشـكيل

(غرفة عمليات)؛ لمعالجة آثار عمليات الكشف، واتخاذ تدابير من شأنها أن توفر إمكانية الحيلولة دون حدوث تسريبات مماثلة في المستقبل.

فضائح الويكيليكس أحدثت هلعًا في العالم كله، إذ إن الجميع، بمن فيهم أنا، راحوا يسعون على نحو محموم لاكتشاف رأي الولايات المتحدة فيهم، سارع الناس في كل بلد إلى معاينة الثبت أو الفهرس، أيُّ البلدان كان الأكثر تفضيلًا؟ أيها ورد ذكره أكثر من الجميع؟ كيف تم تصويرها؟ ما وضع الأصدقاء أو الأعداء؟ بات لكل بلد سجله، تحولت برقيات الويكيليكس إلى زاوية ثرثرة دولية، زاوية مثقلة بالكثير من التفاصيل المنكهة والمتبلة عن عادات قادة أجانب، يجب أن أقول إنني قرأتها باستمتاع، جنبًا إلى جنب مع باقي العالم.

تولت البرقيات فضح الارتباطات الشبكية التي كانت حكومتنا قد أوجدتها حول العالم عبر عقود من الزمن، والفجوة القائمة بين ما قالته الولايات المتحدة وما قمنا به فعلًا مدهشة الضيق، تمثل التباين الأكبر بين ما قاله قادة أجانب لشعوبهم على الملأ وما قالوه في خلواتهم، وسرعان ما اكتشفت أن عددًا من البرقيات التي سربتها ويكيليكس كانت تخصني شخصيًّا.

راعني- مثلًا- اكتشاف أن توجيهات لأعضاء في السلك الخارجي كانت قد صدرت في عام 2009م باسمي لجمع تفاصيل عن دبلوماسيين أجانب، بمن فيهم بعض موظفي الأمم المتحدة والدول الحليفة للولايات المتحدة، وقد تضمنت التفاصيل الأسماء المعتمدة في حسابات الإنترنت والإنترانت، والعناوين الإلكترونية، ورموز المواقع الشبكية المفيدة للتعرف، وأرقام بطاقات الاعتماد، وأرقام حسابات النشرات المتكررة، وبرامج العمل، وغيرها من المعلومات ذات العلاقة بسير الحيوات، في عملية عرفت باسم توجيه جمع المعلومات الإنترنتية الإنسانية.

أفاد الناطق باسم وزارة الخارجية فيليب كراولي بأنني لم أكن قد وضعت مسودة التوجيه، بأن اسم وزيرة الخارجية كان يضاف دوريًّا إلى أسفل

البرقيـات الصـادرة عن واشـنطن، وبأنه لم يكن واضحًـا ما إذا كنت قد اطلعت عليها فعلًا، كانت المادة الموجودة في البرقيات مكتوبة عمليًّا من قبل ألـ سـي آي إيـه قبـل أن تعمـم باسـمي؛ لأن ألـ سـي آي إيه لا تسـتطيع توجيـه موظفي وزارة الخارجيـة مباشـرة، والبرقيات المفضوحـة كانت عائدة إلى عـام 2008م، حين أُرسلت مذيلة بتوقيع كوندوليزا رايس إبان شغلها للمنصب.

صحيـح أن ممارسـة الولايـات المتحـدة ووزارة الخـارجيـة لجمـع المعلومـات الاسـتخباراتية عـن الأمـم المتحدة أو عـن دول صديقة لم تكن جديـدة، غير أن أنمـاط المعلومـات المطلوبـة تجـاوزت الممارسـة السـابقة أشـواطًا، ولم تكـن من النوعية التي يمكن أن توقع قيام الدبلوماسيين بجمعها من بيانات.

طوال أشـهر من الزمن كنت، كلما علقت الإدارة على قضية ما، أجد نفسـي عاكفـة علـى مقارنتهـا بتصريحـات كان جوليان آسـانج قـد أماط اللثام عنها، وبصـرف النظـر عـن اللغـو كلـه، مـا مـن شـيء ذي أهمية فعليـة كُشـف؛ كانت البرقيـات مـن مسـتويات التصنيـف الدنيـا، ولم تكـن أي منهـا من نوع (سـري جـدًّا)، لم يكـن ثمة أي تلميحات إلـى انقلابات رهن التدبـير أو إلى قيام بلدان مختلفة بمراكمة أسـلحة سـرية لم يسـمع أحد بمثلها. تابعت اتصالاتي الهاتفية حول ويكيليكس حتى الربيع التالي الذي جاء بحزمة جديدة من المشكلات.

زعيم ديني وكاتب أمريكي يدعى توماس مونسـون كتب يقول- اسـمحي لي أن أقـرأ مـا يأتـي فقط-: «مبادئ العيش العظيـم تتضمن مواجهـة الصعوبات بشجاعة، مواجهة خيبة الأمل بالفرح، ومواجهة المحن بالتواضع».

أنا عاكفة على تطبيق نصيحتك أيها السيد مونسون، كَوْني وزيرة للخارجية أتاح لي وفرة من الفرص للممارسة.

2014 04 02

في الأول من كانون الأول/ديسمبر، بعيد الإخفاق الويكيليكسي، طرت إلى العاصمة القازاخية آستانا لحضور قمة منظمة الأمن والتعاون في أوروبا، وهناك التقيت خمسين زعيمًا كانوا ضحايا لتعليقات محرجة في التسريبات، بمن فيهم رئيس جمهورية قازاخستان نور سلطان نازاربابييف، مسؤول قازاخي أفاد بأنني (كنت رابطة الجأش) في أثناء المواجهات، ولم أتهرب من الأسئلة الصعبة. أكّدت أن البرقيات المسربة لم تكن تعكس سياسة الولايات المتحدة الرسمية، بل كانت مجرد آراء دبلوماسيين أفراد يتم إيصالها من دون غربلة إلى واشنطن، حول ما كانوا يرونه حاصلًا في بلدان أخرى، هذا الوضع دفع بعض القادة إلى إعادة توجيه ملاحظاتي القوية حول حرية الإنترنت في وقت سابق من العام ضدي.

كذلك شهدت قمة الأمن والتعاون في أوروبا لقاء بيني وبين أمين عام الأمم المتحدة بان كي مون، وفي محاولة لتخفيف التوتر الناجم عن فضائح تجسس الهيومنت، عبرت عن الأسف بشأن التسريبات ولكنني لم أقدم أي اعتذار مباشر، لعدم اقتناعي باقتراف أي خطأ. بيان صادر عن الأمم المتحدة أفاد

بأن بان شكرني على التوضيح والاهتمام بالمصاعب التي كانت التسريبات قد تسببت بها.

في الوقت نفسه تقريبًا، أُصيب صديقنا العزيز ريتشارد هولبروك بمرض خطير. بداية مرض في أثناء لقاء معي، ما أدى إلى أن يتملكني الرعب؛ شعرت بأنه في خطر غير قابل للدرء، إلا أنني رجوت أن أكون على خطأ، لم أكن على خطأ؛ مات بعيد ذلك، يشرفني أنني كنت صديقة جيدة لزوجه قبل مرضه وموته، بقيت جالسة بجانب سريره مع كاتي ممسكة بيدها فيما كان ريتشارد محتضرًا، أرجو أن تتصرف إحداهن معي بالطريقة ذاتها عند رحيل بل.

بعد موته في الثالث عشر من كانون الأول/ديسمبر، ترأست اجتماعًا عفويًّا لنحو أربعين شخصية من كبار موظفي وزارة الخارجية ومساعديهم في مستشفى جامعة جورج واشنطن حيث أَبَّنَّاه معًا، وفي قداس لراحة نفسه بعد بضعة أيام، كِلنا؛ بل وأنا، المديح لعمله، قلت: «كل ما أنجزناه في أفغانستان وباكستان يعود جزء كبير من فضله إلى ريتشارد». من المؤسف أن ذلك لم يكن صحيحًا مئة بالمئة؛ فهولبروك كان قد طور علاقات ضعيفة مع البيت الأبيض في أثناء اضطلاعه بمهمة مبعوثنا الخاص إلى أفغانستان وباكستان، ورؤيتي له مجترحًا اتفاقًا مع أفغانستان على غرار اتفاقية دايتون (تلك التي أنهت الحرب في البوسنة ووُقعت في قاعدة رايت-باترسون الجوية القريبة من دايتون الأوهايوية) لم تكن واقعية، غير أني أقدر أنني سأحصل على الغفران (ليتك تسمع يا أبي!؟) لعدم البوح بما ليس من المحاسن عن أي شخص في تأبينه.

أومأتُ وعبرتُ عن سعادتي بتعلمها كيف تصفح عن نفسها: أنت تتقدمين فعلًا يا هيلاري!

قالت: أعرف أنني أفعل.

2014 04 04

بدأت هيلاري كلامها قائلة: في الثاني والعشرين من كانون الأول/ديسمبر عام 2010م، عدت إلى منصة مجلس الشيوخ في أثناء جلسة البطة العرجاء رقم 111 للكونغرس؛ للوقوف على تصديق ستارت الجديد (الاتفاق الإستراتيجي لاختزال الأسلحة النووية) بأكثرية (71) صوتًا مقابل (26) صوتًا، كنت قد أمضيت عددًا من الأيام ملتصقة بالهاتف لدفع الشيوخ المترددين إلى التأييد، وهذا الاتفاق يقضي بتقليص حجم الأسلحة النووية الموجودة لدى كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

بموجب بنود المعاهدة كان عدد منصات إطلاق الصواريخ البالستية النووية الإستراتيجية قد اختزل إلى النصف، اعتُمد نظام جديد للتفتيش والتحقق، على الرغم من عدم تحديد عدد الرؤوس النووية المختزنة، غير الفاعلة عملياتيًّا، الذي بقي يصل إلى الآلاف في كل من مخزوني روسيا وأمريكا، ومع ذلك فإن الاتفاق كان بداية جيدة. إذا لم أفعل أي شيء آخر وأنا وزيرة للخارجية، فإنني فزت بأوسمتي لقاء المصادقة على معاهدة ستارت الجديدة.

حدقت في هيلاري بمهابة، وجدتني أمام هذه المرأة البادية غير جديرة بالاهتمام مصرة على إبلاغي بأنها هي التي جعلت استمرار الحياة على

الأرض ممكنًا، كم من المحللين والمحللات صادفوا مرضى على هذا المستوى من الاضطلاع بأدوار جوهرية في الحياة؟ أعرف الشعور الذي راود هيلاري. إذا تمكنت من مساعدة ولو هذه المريضة وحدها في أثناء ممارستي التي دامت الحياة كلها، فإنني قد فزت بأوسمتي بوصفي محللة نفسية.

تابعت هيلاري كلامها: مع حلول نهاية العام، سرني أن أحصل ثانية من الأمريكيين بوساطة استفتاء أجرته غالوب، على لقب المرأة المتمتعة بالقدر الأكبر من الإعجاب في العالم، إنه فوزي التاسع على التوالي والخامس عشر جملة. ثم أضافت وهي تبتسم: هل تظنين أنني نرجسية، دكتورة؟ شديدة الولع بإثارة الإعجاب أنا.

أجبتها بصدق مشوبه: لا أظن، كنت جديرة بكل عبارة إطراء حصلت عليها، ثم ببعضها.

ردت: حسنًا، لا أريد أن أرى أنني نرجسية، وإن كنت حتى.

2014 04 07

مـن دون أي رتـق لجلسـتنا السـابقة بـادرت هيـلاري كعادتهـا إلـى التقـاط مناقشتنا من دون أي مساعدة من جانبي قائلة: بدأت عام 2011م في البرازيل حاضـرة حفـل تنصيب ديلما روسـيف. أوفدني الرئيـس أوبامـا لتمثيل الولايات المتحـدة، كانت روسـيف المرأة الأولـى التي تحكم بلدهـا، البرازيل متقدمة على الولايات المتحدة من هذه الناحية، قد نتمكن من اللحاق بها ذات يوم.

انتظرت قيام هيلاري بإطلاق تعليق ما حول احتمال توليها لرئاسة الولايات المتحـدة، إلا أنهـا بقيـت صامتـة بعنـاد، مثـل الآخريـن جميعهـم كنت متشـوقة لأعـرف، ومثـل الآخريـن جميعهـم أيضًا كان سـيتعين علي أن أنتظـر، في إحدى المرات أخطأتُ وسألتها عما إذا كانت ستترشح أجابتني: ليتني كنت أعلم.

منتصـف كانـو الثاني/ينايـر، حزمـت حقائبـي مـن جديـد وجررت نفسـي إلى الشـرق الأوسـط، زائـرة اليمن، وعمان، واتحـاد الإمـارات العربية، وقطر، ومسـتخدمة لغـة اسـتثنائية الفظاظـة في مؤتمـر الدوحـة، انتقـدت إخفـاق الحكومات العربية في التحرك بوتائر أسـرع نحو الإصلاح، قائلة إن الأسـس في العديد من الأمكنة بالغة الضعف والهزال، الشـرق الأوسـط الذي تصورته يقوم

علـى قاعـدة أصلب كي يتمكن مـن التجذر والنمو، لم يكن العـرب راضين تمامًا عن ملاحظاتي.

زيارتي لليمن، الأولى لأي وزير خارجية أمريكي منذ عشـرين سـنة، دفعتني إلى التشـديد على أخطار الإرهاب في ذلك البلد، في جولة مرتجلة داخل مدينة صنعاء القديمة المسـورة سـرني هتافات تلاميذ المدارس الهاتفين ترحيبًا بي، لا شـيء أعذب من محبة الأطفال الصغار، جعلوني أشـتاق لتشلسـي الصغيرة – التي لم تعد صغيرة هذه الأيام – حتى أكثر مما هو مألوف.

لدى انطلاق الاحتجاجات المصرية في عام 2011م، كنت في طليعة أصحاب الردود من الإدارة، تصريحي العلني في الخامس والعشـرين من كانون الثاني/ينايـر الـذي قلت فيه إن حكومة الرئيـس حسـني مبارك مسـتقرة و«عاكفة على البحث عن طرق لتلبية الحاجات والمصالح المشروعة للشعب المصري» انتُقد في وسـائل الإعلام؛ إذ عُدَّ فاترًا ومتخلفًا عن وتيرة الأحداث، مع أن آخرين وافقوا علـى عدم جواز اضطـلاع الولايات المتحدة بدور بـارز في تقويض حكومة حليف قديم.

مـن المؤكـد أنني كنـت في مزاج نقدي، وفكـرت: إذا قلقت كلمـا قال أحدهم كلامًـا ينتقـدني فيه، فإن من شـأني أن أهلـك، يبدو أن جلدي بدأ يزيد سُـمكًا. في اليـوم التـالي هاجمـت حظر الحكومـة المصرية مواقع التواصـل الاجتماعي، ومع حلول نهاية كانون الثاني/يناير، حملني الرئيـس أوباما مسـؤولية جلاء رد الإدارة المشوش على التطورات الجديدة في مصر.

في الثلاثـين المحمـوم مـن شـهر كانـون الثاني/ينايـر، ظهرتُ على شاشـات خمس برامـج تلفازيـة صبـاح يـوم الأحـد، في مـا يشـبه نوعًـا ممـا يعـرف بـ (غينسـبرغ كامل)، أعلنت للمـلأ – للمرة الأولى – وجهة نظـر الولايات المتحدة القائلـة بالحاجـة إلى نـوع من (الانتقـال المنتظم) إلى (حكـم ديمقراطي قائم

على المشـاركة) وإلى (نوع من التحول السـلمي إلى الديمقراطية الحقيقية) في مصر.

ثم ما لبثت أن وجدت نفسـي على الطريق إلى هاييتي لإحياء ذكرى زلزالها المرعب، شـابكة الرحلتـين الجويتين في اتصالات جماعية حـول مصر. يا إلهي! أناشـدك يـا دكتـورة! يتعبنـي إخبـارك عن هـذا كلـه، ألم تملي وتتعبـي بعد من الاستماع؟!

محركـة رأسـي يمينًا ويسـارًا قلـت، وكنت صادقـة فيما قلتـه: لا، أجد الأمر ساحرًا، وأشعر بميزة متابعة رحلتك عبر التاريخ. أتعلم منك أشياء كثيرة.

أدارت وجهها نحو الجدار، قدرتُ أنها كانت تحاول إخفاء دموعها.

2014 04 09

تابعت هيلاري كلامها قائلة: ما لبثت الاحتجاجات المصرية أن أصبحت أزمة السياسة الخارجية الأكثر حساسية بالنسبة إلى إدارة أوباما، وضاعف الرئيس من تعويله علي التماسًا للمشورة؛ كنت قد عرفت الرئيس مبارك منذ عشرين سنة كما كنت قد نسجت علاقة حميمة مع سيدة مصر الأولى سوزان مبارك بدعم نشاطها في مجال حقوق الإنسان.

حين رد مبارك بعنف على الاحتجاجات أوائل شباط/فبراير، بادرت إلى شجب مثل هذه الإجراءات ولاسيما تلك التي طالت الإعلاميين الذين كانوا يغطون الأحداث شجبًا قويًّا، وطالبت نائب الرئيس المصري عمر سليمان بإلحاح بإجراء تحقيقات رسمية لمحاسبة المسؤولين عن الانتفاضة.

حين أعلن فرانك فسنر؛ موفد الرئيس أوباما إلى مصر، صراحة أن رحيل مبارك يجب تأجيله لاستيعاب انتقال منتظم إلى حكومة أخرى، سارعت إلى توبيخه، رغم إحساسي بالشعور ذاته على نحو ما، يجب أن أعترف. أخيرًا تخلى مبارك عن الحكم في الحادي عشر من شباط/فبراير فيما تطورت مظاهرات الاحتجاج لتصبح ثورة 2011م المصرية، أبلغت المصريين أن الولايات المتحدة متفهمة أن أمام بلدهم عملًا كثيرًا وأوقاتًا عصيبة في المستقبل. منتصف

آذار/مارس زرت مصر ووعدت بدعم تحرك مصر نحو الديمقراطية، ولكنني حرصت على تجنب تقديم أي تعهدات ملموسة ومحددة بمعونة أمريكية.

لم يكن الرئيس أوباما راضيًا عن أجهزة الاستخبارات الأمريكية لإخفاقها في التكهن بالانتفاضة التونسية وسقوط زين العابدين بن علي كما بالاحتجاجات المصرية في عامي 2010م و 2011م، وردًّا على انتقاد أن وزارة الخارجية كانت قد أخفقت في توقع التطورات الحاصلة في مصر، دافعتُ عن الولايات المتحدة في مقابلة مع العربية، ثم حاولت تهدئة الخواطر المنفعلة قائلة: «لا أظن أن أي شخص كان يستطيع أن يتنبأ حين جرى هذا كله، بأننا سنكون جالسين هناك معًا ونحن نتحدث عن نهاية رئاسة مبارك».

متأملة لا الوضع في تونس ومصر فحسب، بل واحتجاجات 2011م اليمنية، واحتجاجات 2011م الأردنية، قلت في اجتماع رباعية الشرق الأوسط في شباط/فبراير إن وضع الأمر الواقع لم يكن مقنعًا، أضفت إن الانتخابات الحرة يجب أن تكون مشفوعة بحرية التعبير، وبقضاء حر، وبسيادة القانون كي تكون فاعلة، رغم احتمال ابتلاء عملية الانتقال إلى الديمقراطية بالفوضى، فالشعب الحر هو أفضل من يحكم نفسه آخر المطاف.

نظرت هيلاري إلي وقالت: هل تدوخين من هذه المعلومات كلها يا دكتورة؟ أعرف أنها ليست ممتعة دائمًا بالنسبة إلى غير السياسيين.

أربكني سؤال هيلاري قليلًا، أنا راسخة الإيمان بوجوب الصدق مع المرضى كما مع الجميع كلما كان ذلك ممكنًا، غير أنني لم أرغب في إحباط هيلاري وجعلها تعزف عن البوح بما يدور في خلدها، تذكرت حوارًا كان لي منذ زمن بعيد مع مدربي المحلل الدكتور تيودور رايك، حين قلت له إنني مللت من قصة طويلة كان أحد المرضى يرويها لي، قال لي: «الملل هو الثمن الذي عليك أن تدفعيه بانتظار ظهور المادة الدسمة على السطح».

آخـذة تعليـق الدكتـور رايـك في الحسـبان، قلت: بالطبـع أنا لسـت دائخة يا هيـلاري، علـى الـدوام أريـد سـماع ما تفكريـن به. كذبـة بيضاء صغـيرة! نعم، ضروريـة! نعـم أيضًـا، علـى الرغـم مـن أننـي- علـي أن أعترف- فوجئـت بأن هيـلاري بـكل مـا لديها من مهـارات تحـري واسـتقصاء اسـتثنائية، لم تكن قد اكتشفت خدعتي، أو ربما كانت قد فعلت ولكنها قررت تجاهل الأمر. لا يستطيع المرء أبدًا أن يكون متأكدًا مع هيلاري كلنتون.

اسـتأنفتُ كلامهـا قائلـة: بدأت حرب عـام 2011م الأهليـة الليبية منتصف شـباط/فبراير، ثـم مـا لبثـت أن تكثفـت لتغـدو صراعًـا مسـلحًا، حـين سـجل المتمـردون بعض النجاحـات العسـكرية أوائـل آذار/مارس، عـبرت عـن رأيي للرئيس أوباما حول وجوب رحيل القذافي من دون مزيد من التأخير، ومع مبادرة القذافي إلى خوض هجمات مقابلة ضد المتمردين، ترددت في البداية (كما كان أوبامـا قـد فعـل) حول فرض منطقة حظر طـيران ليبية، ومع تزايـد احتمالات انتصار القذافي وحصول حمام دم، سافرت إلى أوروبا وشمال إفريقيا، ووجدت أن تأييد التدخل العسـكري بات متزايدًا لدى القادة الأوروبيين والعرب، فغيرت رأيي وشجعت الرئيس على دعم تحرك الأمم المتحدة لفرض منطقة حظر جوي والتفويض بتحركات عسكرية ضرورية أخرى.

وافق مجلس الأمن الدولي على منطقة حظر جوي في آذار/مارس، وتضمن القـرار بنـودًا حول المزيد من التحـركات للحيلولة دون تعرض الأهداف المدنية للهجوم، أسـهمت في كسـب الدعم المالي والسياسي للعديد من البلدان العربية، ولاسيما في إقناع قطر، والإمارات العربية المتحدة، والأردن، بأن من شأن منطقة الحظر الجوي ألا تكون كافية، وبأن هجمات جوية أرضية سـتكون ضرورية. أما فيمـا يخـص وجوب قيام الولايات المتحدة بإرسـال أسـلحة إلى القـوات المعادية للقذافي، فقد قلت إن من شأن هذا أن يكون مسموحًا به بموجب القرار، غير أن قرارًا يقضي بفعل ذلك لم يتخذ بعد.

2014 04 14

تابعت هيلاري تقول: انطوت سياسة الولايات المتحدة إزاء الاضطراب الحاصل في بلدان الشرق الأوسط على مساندة أنظمة معينة، وتأييد محتجين متظاهرين ضد أنظمة أخرى، ومع حلول ذلك التاريخ كان العداد قد سجل (465000) ميلًا في طائرتي البوينغ 757، مسافة أطول من المسافة التي كان أي وزير خارجية أمريكي قد قطعها في مدة مماثلة، وكنت قد زرت تسعة وسبعين بلدًا. كتبت مجلة تايم أن قدرتي على التحمل أسطورية، وأن من شأني أن أظل مثابرة في أواخر أيام عمل طويلة حتى بعد أن يكون أعضاء هيئة أركاني قد باتوا مشلولين. تمثل اللغز بقابليتي للنوم بحسب الطلب، في أي وقت ومكان، لأخذ غفوات قصيرة.

يا للعجب! فكرت. تستطيع أن تنام كلما أرادت أن تفعل. ليتني أستطيع، سيتعين علي أن أستفهم عن ذلك منها.

كذلك كنت أرى التغييرات السياسية المحتملة في الشرق الأوسط فرصة لإحداث تغيير أعمق في العالم. (تابعت تقول): فتمكين النساء، وهو أمر رأته مجلة نيوزويك موضوع اهتمامي الرئيس في الحياة، علقت على هذا في بلدان مثل مصر قائلة: «أي بلد لا يعترف بحقوق الأقليات وبحقوق الإنسان، بما فيها

حقوق النساء، لن ينعم بالاستقرار والازدهار الممكنين». في اليمن، تحدثت عن الرئيسة نجود علي وحملتها ضد الزواج القسري في سن مبكرة، لا أستطيع تصور إجبار ابنتي العزيزة تشلسي أو إجباري أنا على الزواج من غريب في الثانية عشرة من العمر أو أقل، لم أكن لأتردد في قتل الزبون!.

حول موضوع النساء والبنات، توسعت أكثر فأكثر، قلت إن حقوقهن كان هو المشروع غير المنجز في القرن الواحد والعشرين، كذلك زعمت أن لرخاء النساء في البلدان الأخرى تأثيرًا مباشرًا في المصلحة الذاتية الأمريكية، إنها صفقة كبرى بالنسبة إلى القيم الأمريكية والسياسة الخارجية الأمريكية ومصالحنا، غير أنها مهمة أيضًا بالنسبة إلى أمننا، حيثما تكون النساء محرومات من إنسانيتهن وطاقتهن، نكون أكثر عرضة لرؤية التطرف المفضي إلى تحديات أمنية بالنسبة إلينا جميعًا. كثير من العمل الذي قمت به في وزارة الخارجية خدمة لقضايا المرأة وحقوق الإنسان لم يكن لمجرد اهتمامي بالموضوع، وهو صحيح، بل لأني أراه سبيلًا لمضاعفة الأمن من أجل ضمان المصالح الأمريكية.

في زحمة هذه الفوضى كلها التي اشتملت أيضًا تعهدي بدعم الحكومة لليابان في أعقاب زلزال وتسونامي توهوكو لعام 2011م، عبرت في مقابلة كانت في منتصف آذار/مارس مع وولف بليتزر من ألـ سي إن إن، عن عدم اهتمامي بأن أكون وزيرة خارجية فترتين رئاسيتين، وزيرة دفاع فترة واحدة، نائبة رئيس جمهورية، أو مرشحة رئاسة جمهورية من جديد، شددت على عمق حرصي على منصبي الراهن؛ لأنه الموقع الأفضل الذي أستطيع الحصول عليه في أي وقت من الأوقات.

إلا أنني كنت منهكة من التعب جراء السفر المتواصل، مع عدم الالتحاق بركب الحلقة الداخلية الحميمة لأوباما، ومتطلعة إلى وقت أقل كثافة ضغوط، جنبًا إلى جنب مع الفرصة المناسبة للعمل والكتابة خدمة لقضية حقوق المرأة على الصعيد الدولي.

2014 04 18

كنت من رواد غرفة عمليات البيت الأبيض الذين كانوا يحصلون ساعة بساعة على أخبار موجزة عن البعثة المكلفة في أيار/مايو 2011م بمهمة قتل أسامة بن لادن، بداية العام كانت ألـ سي آي إيه تعتقد أنها قد اكتشفت مخبأه، وعقد البيت الأبيض مناقشة أخيرة في الثامن والعشرين من نيسان/أبريل لحسم مسألة السير قدمًا والانقضاض عليه لقتله، وكيف تقتله.

أيدت فكرة إرسال عناصر من سلاح البحرية من منطلق عدم قدرة الولايات المتحدة على تحمل تجاهل فرصة قد لا تتوافر ثانية إلى الأبد، واغتيال أسامة بن لادن كان بالغ الأهمية وطاغيًا على أي أخطار.

كان ثمة نقد لاحق من أمريكيين مختلفين تركز على أن باكستان كانت قد سمحت لابن لادن أن يتخفى على نحو مكشوف لسنوات، ومن منطلق عدم الرغبة في أي مزيد من الإشكالات مع باكستان، أطريت سجلها السابق في مجال مساعدة الولايات المتحدة على مطاردة الإرهابيين؛ فتحالفنا مع باكستان أسهم، آخر المطاف في تعزيز جهودنا الرامية إلى تفكيك القاعدة.

ومن ثم أثَّرت بصورة مهمة في قرار الإدارة بعدم نشر صور لجثة ابن لادن، ناقلة رأي حلفاء الولايات المتحدة في الشرق الأوسط الذين لم يكونوا مع نشر مثل تلك الصور، اتفقت مع الوزير غيتس حول أن من شأن مثل هذا النشر أن يؤدي إلى إطلاق حملة معادية للولايات المتحدة فيما وراء البحار، وكما هي العادة في مثل هذه الظروف، كان ثمة كلام عن أن ابن لادن لم يمت فعلًا؛ لأن أحدًا لم يكن قد رأى أي صورة لجثته، غير أن ذلك كان بنظري مثيرًا للسخرية، كنا متوفرين على ما يكفي من البراهين على موته من أناس شاهدوا جثته.

رحلة حزيران/يونيو عام 2011م إلى إفريقيا تزامنت مع انشغالي بمواساة صديقتي ومساعدتي العريقة هوما آبدين، بعد انتشار فضيحة السكست التي تورط فيها زوجها أنتوني فاينر، كنت أعرف بدقة كيف شعرت، ليس العالم لطيفًا مع النساء، كذلك أنكرت بقوة تقارير عن رغبتي في أن أصبح الرئيسة التالية (للبنك) الدولي الذي كان بحاجة إلى خلف روبرت زويليك الذي انتهت ولايته منتصف 2012م. لم يصدقني أحد بالطبع، هل تستطيعين أن تقولي لي– يا دكتورة– لماذا لا يصدقني أحد؟

ابتسمتُ وحركتُ رأسي.

إلا أنها واصلت الكلام قائلة: في تموز/يوليو، بادرت (بنبرة ثقة تفوق شعوري) إلى طمأنة الصين وحكومات أجنبية أخرى إلى أن أزمة سقف الدين الأمريكي الراهنة لن تدفع بلدنا إلى التخلف، في تنبؤ تبين أنه كان صحيحًا لدى إقرار قانون مراقبة موازنة عام 2011م وتوقيعه في الدقيقة الأخيرة، يا إلهي! كم كنا محظوظين تلك المرة! أنتفض حين أتصور ما كان يمكن لبلدنا أن يتعرض له فيما لو تخلفنا عن سداد الديون، ولكن من يعرف ما ستجلبه الأزمة التالية معها؟

قضيت جزءًا كبيرًا من ذلك الصيف ساعية عبثًا لإقناع السلطة الوطنية الفلسطينية بالعزوف عن محاولاتها الرامية إلى أن تفوز بعضوية الأمم المتحدة

الكاملة في اجتماع أيلول/سبتمبر عام 2011م للجمعية العامة، ومع حلول أيلول/سبتمبر عام 2012م، وتعرض طلبها للتجميد جراء عجز أعضاء مجلس الأمن عن إصدار توصية إجماعية، حاولت السلطة الفلسطينية الحصول على صيغة متقدمة من (كيان مراقب) إلى (دولة مراقبة غير عضو).

عُرض الطلب على التصويت في الجمعية العمومية بتاريخ 29 تشرين الثاني/نوفمبر، وإضافة إلى منح فلسطين مكانة (دولة مراقبة غير عضو)، طالب القرار مجلس الأمن بدراسة الطلب المقدم في أيلول/سبتمبر عام 2011م من قبل دولة فلسطين للحصول على عضوية الأمم المتحدة الكاملة التي كانت معطوفة على حل الدولتين وفق حدود ما قبل 1967م.

قرار الجمعية العمومية رقم 6719 اعتُمد في 2012/11/29م بأكثرية (139) صوتًا مقابل (9) أصوات، رافعًا فلسطين إلى مرتبة دولة مراقبة غير عضو في الأمم المتحدة، وهذا التغيير وصفته الإندبندنت بـ (اعتراف فعلي بدولة فلسطين السيادية).

كان التصويت منعطفًا تاريخيًّا بالنسبة إلى فلسطين ونكسة دبلوماسية هائلة بالنسبة إلى كل من إسرائيل والولايات المتحدة؛ فمكانة فلسطين الجديدة في الأمم المتحدة تتيح للسلطة الفلسطينية فرصة عقد المعاهدات والتعامل المباشر مع أجهزة الأمم المتحدة ومنظماتها، تُمكِّن فلسطين من المطالبة بحقوق مشروعة في مياهها الإقليمية ومجالاتها الجوية، وتمنح الفلسطينيين حق التقاضي في محكمة العدل الدولية طلبًا للتحكم في الأراضي التي تعتقد أنها عائدة لها قانونًا، وسمحت لها بممارسة حق توجيه تهم جرائم الحرب ضد إسرائيل في المحكمة الجنائية الدولية، راعني اعتماد القرار، وأعتقد أنه كان خطأ جسيمًا وفادحًا سيؤدي إلى تأجيل مسيرة السلام عددًا من السنوات، ولأكون أكثر وضوحًا أقول إنني أشعر بالغثيان كلما تذكرت التصويت.

تابعت الحصول على مراتب عالية في استطلاعات الرأي، حيث أكسبني استطلاع لبلومبرغ نيوز في أيلول/سبتمبر عام 2011م نسبة تفضيل بلغت أربعًا وستين بالمئة، أعلى رقم تحققه أي شخصية سياسية في الأمة، ثلث أولئك الذين استُطلعت آراؤهم أفادوا بأني كنت مؤهلة لأكون رئيسة جمهورية أفضل من أوباما، ملاحظة أوافق عليها من أعماق قلبي، غير أني حين سئلت عن مستوى احتمال نزولي في سباق ضد الرئيس، أجبت: (دون الصفر). كنت مؤمنة بأن أحد الأشياء العظيمة الكامنة في كوني وزيرة للخارجية هو قدرتي على البقاء فوق السياسة والحفاظ على كرامتي؛ فبعد تجاربي المرعبة مع وسائل الإعلام في البيت الأبيض، لم أكن مستعدة للتعرض من جديد لموجة رشقات الأوحال. من الطبيعي أن الأمور كانت ستشهد تغييرًا لافتًا فيما بعد، غير أنني لم أكن أعرف ذلك آنذاك.

تساءلتُ: هل تعني أنها ستترشح للرئاسة في 2016م؟ غير أني كنت أعرف ما هو أفضل من السؤال.

تابعت هيلاري كلامها: بعد إعلان أوباما التاريخي في تشرين الأول/أكتوبر عام 2011م أن انسحاب القوات الأمريكية من العراق كان سيتم مع حلول نهاية العام، سارعت إلى الدفاع عن القرار بحماسة، قلت إن الولايات المتحدة، رغم غياب القوة العسكرية، ملتزمة بتعزيز النظام الديمقراطي في العراق. كذلك كلت المديح لفاعلية سياسة أوباما الخارجية بوجه عام، مشيرة- للدلالة- إلى مقتل معمر القذافي الذي وضع حدًّا للتدخل الليبي. من حيث الجوهر قام هذا التصريح على تجنب استثارة النقد من أولئك العازمين على الفوز بترشيح الحزب الجمهوري لرئاسة الجمهورية في انتخاب عام 2012م، في تشرين الأول/أكتوبر 2011م زرت طرابلس، وكنت بيني وبين نفسي حذرة بعض الشيء وقلقة على مستقبل ليبيا في أعقاب النجاح الذي حققه المتمردون، شريط فيديو فيه صرختي المعبرة عن الدهشة لدى الاطلاع للمرة الأولى على نبأ اعتقال القذافي وزِّع على نطاق واسع. قلت: «جئنا، شاهدنا، أنه مات».

2014 04 21

دخلت هيلاري غرفة استشاراتي باكية، ومسحت الدموع المنهمرة على وجنتيها، راعني المشهد، تساءلت عما حصل. عمليًّا مرضاي جميعهم بكوا، إلا أنني قلقت أكثر عندما وجدت هيلاري باكية؛ فهي لا تبكي بسهولة.

قالت بصوت مخنوق: كنت أفكر عما كنت سأتحدث عنه معك اليوم فتذكرت، مع عظيم حزني، أن أمي؛ دوروثي رودهام، ماتت في واشنطن بتاريخ 2011/11/1م/ ألغيت رحلة مخططة إلى المملكة المتحدة وتركيا، لأكون معها وهي على فراش الموت.

توقفت وبقيت صامتة لبضع لحظات بدت لا نهائية بالنسبة إلي، ثم قالت بصوت مرتعش: في النهاية ضغطت على يدها وقلت لها: أحبك. هي أيضًا ضغطت بلطف على يدي وقالت: «أنا أيضًا أحبك يا هيلاري، أكثر من أي شخص في العالم»، ثم أغمضت عينيها للمرة الأخيرة، كان انهياري كاملًا وعجزت عن العمل لأسابيع. كما تعلمين يا دكتورة، أحببت أمي بعمق، وكنت أعرف أن علي أن أتماسك كرمى لعين تشلسي ومن أجل البلد، غير أني لم أكن أعرف كيف سأتمكن من أداء وظائفي من دون أن تكون أمي متابعة لما أفعله من خلف الستارة، كانت موجودة دائمًا دعمًا لي، بصرف النظر عن مدى هول

المشكلة؛ كان الحديث معها عن الأمور يشعرني دائمًا بأنني أفضل حالًا؛ كانت صديقتي، ومعلمتي، وولية نعمتي، ومستشارتي الأفضل. فقدان أمي كان أسوأ خسارة أتعرض لها في حياتي.

سأل بل عما إذا كان احتمال رؤيتي لأمي ثانية ذات يوم كافيًا، نظرًا إلى إيماني بحياة أخرى. لا، لا شيء كان كافيًا، ولكنني كنت بطريقة ما، ربما بفضل ما كانت قد أضفته علي من قوة، قادرة على الإفادة من طاقات مجهولة المصدر وصولًا إلى الالتحاق بركب العالم شيئًا فشيئًا.

أغمضت عينيها وفتحتهما لتتابع الكلام متحدثة عن موضوعات أقل عاطفية. تمكنتُ من رؤية (ميزان زئبقها) مساهمًا في إعادتها إلى التوازن.

حين بدأت مظاهرات 2011م إلى 2012م الروسية، بدأتُ في 2011م احتجاجًا على نتائج الانتخابات الروسية، كنت بالغة الصراحة حول افتقار الروس إلى عمليات ديمقراطية؛ قلت إن الشعب الروسي جدير بأن يُسمع وبأن تُحصى أصواته الانتخابية، أضفت أن المقترعين الروس جديرون بتحقيقات شفافة وشاملة للكشف عن التزوير الانتخابي المحتمل، وبالمقابل سارع رئيس الوزراء الروسي فلاديمير بوتن إلى انتقادي علنًا، متهمًا الولايات المتحدة بدعم المحتجين الروس ماليًّا وبصب الزيت على نار الاحتجاجات، وحين فاز بوتن بالرئاسة الروسية في آذار/مارس عام 2012م، أراد بعض المسؤولين في وزارة الخارجية أن أبادر إلى شجب السياسة الروسية ثانية غير أن البيت الأبيض تفوق عليهم، اعتقدت رغم هجوم بوتن عليَّ، أن من شأن الاكتفاء بقول: «ثمة فائز واضح في الانتخاب، ونحن جاهزون للتعاون مع الرئيس المنتخب بوتن» أن يوقف كل أشكال التقاذف بالاتهامات.

أوائل كانون الأول/ديسمبر عام 2011م، قمت بالزيارة الأولى لوزير خارجية أمريكي إلى بورما منذ توقف جون فوستر دالاس هناك في عام 1955م، توسلت دعم إصلاحات عام 2011م الديمقراطية البورمية، والتقيت القادة البورميين

جنبًا إلى جنب مع زعيمة المعارضة آونغ سان سو كيي، ولأننا؛ سو كيي وأنا، كنا على صلة فيما بيننا لسنوات، وجدتني شاعرة كما لو كنت أزور صديقة لم أرها منذ سنوات، وإن لم يكن ذلك سوى لقائنا الأول.

سأقول لك المزيد عن ذلك في الجلسة القادمة؛ فعلاقتنا بالغة الأهمية بنظري، وتستحق وقتًا يخصها.

أدى تطاولي إلى بورما- بالطبع- إلى استثارة الانتقاد، إذ راحت عضوة الكونغرس اليانا روس-ليهتينن تقول إنها وجهت رسالة غير صحيحة إلى حكام بورما العسكريين الأوغاد، آخرون قالوا إن زيارتي قامت على المزاوجة بين المثالية وفن السياسة؛ إذ حاولت إبقاء بورما خارج دائرة النفوذ المباشر للصين، وقد تعين علي أن أتغلب على معارضة البيت الأبيض والبنتاغون، جنبًا إلى جنب مع معارضة زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ ميتش ماكونيل؛ كي أتمكن من القيام بالزيارة. شخصيًّا ناشدت أوباما وفزت بموافقته، أظن أن من الصعب عليه أن يقول لي: لا. ولميشيل العملاقة أيضًا، ربما.

حين سئلت عما إذا كنت أرى أن النظام البورمي كان سيفي بتعهداته الإصلاحية، عبرت عن عدم قدرتي على التنبؤ بما كان سيحصل، إلا أنني أكدت أهمية وقوف الولايات المتحدة مع الإصلاح الديمقراطي، وأضفت (بذكاء، أعتقد)، «إنه الموعد الأول، ليس زواجًا، ومثل كل المواعيد لا أحد يستطيع أن يتنبأ بالمصير الذي سيقود إليه».

كذلك واصلت مقاربة هواجس الحقوق؛ حقوق المثليين في هذه الحالة، في خطاب ألقيته في كانون الأول/ديسمبر عام 2011م أمام لجنة حقوق الإنسان الدولية، قلت إن الولايات المتحدة ستقف في صف حقوق المثليين في الخارج. (حقوق المثليين هي حقوق إنسان)، قلت على نحو عفوي في تصريح ما لبث أن أصبح ذائع الصيت. و(لن أكون جريمة أبدًا إذا كنت مثلية). أدى هذا- بالطبع- إلى استجرار فيض من الانتقادات الخبيثة.

في نهاية العام عاود الأمريكيون من خلال (غالوب) إعطائي لقب المرأة الأكثر إثارة للإعجاب في العالم، تلك كانت المرة العاشرة على التوالي والسادسة عشرة إجمالاً، إذا ظلوا يفعلون هذا فقد يتعين علي أن أصدقهم.

2014 04 23

بدأت هيلاري الجلسة قائلة: قبل بدء اليوم أردت أن أتقاسم معك– يا دكتورة– نبأ بالغ الإثارة.

قلت: هيا، هاتي!

قالت: للتو أعلنت أن تشلسي حامل! سأصبح جدة!

مبارك، هيلاري! يجب أن تكوني غارقة في بحر من الفرح.

ابتسمت وتابعت بنبرة أكثر جدية: نعم بالطبع، سأنتظر مجيء ذلك المولود إلى العالم بفارغ الصبر. حسنًا، لنعد إلى العمل، ما رأيك؟

أومأت موافقة.

في السادس والعشرين من كانون الثاني عام 2012م في إحدى قاعات اجتماع وزارة الخارجية أبلغت العالم بحاجتي إلى النزول عن السلك المشدود للسياسة الأمريكية بعد عشرين سنة من التوازن المرهق! أذكر أنني قلت «أوضحت أنني سأبقى إلى أن يقوم الرئيس بتعيين آخر في المنصب وحصول الانتقال». كانت

العملية تجربة وشرفًا شخصيين استثنائيين، إلا أنني بحاجة فعلًا إلى استعادة وقتي، أريد فقط أن أكون ذاتي، وقد أكتشف المزيد عمن تكون هذه الذات!

سألتها: ما الذي دفعك فعلًا إلى ترك المنصب، يا هيلاري؟

ردت: شعرت بأني أدليت بدلوي على صعيد جعل العالم مكانًا أفضل للعيش، وما كفى كفى، حتى بالنسبة إلي، لقد زرت مئة واثني عشر بلدًا إبان وزارتي، أكثر من أي وزير آخر للولايات المتحدة في التاريخ، أجهز التعب علي ببساطة، وأصبحت بحاجة إلى بعض الوقت أقضيه مع أسرتي وأقوم ربما بتأليف كتاب آخر.

نظرتْ إلي بفزع: تنتقدين قراري، دكتورة؟ هل تعتقدين أن علي ألا أترك؟

أنا لست أباك، أعتقد أن عليك أن تفعلي ما يسعدك.

نظرتْ إلي وابتسمتْ.

مع اشتداد الحرب الأهلية السورية الوحشية، بادرت الولايات المتحدة إلى اقتراح قرار من الأمم المتحدة يدعو الرئيس السوري بشار الأسد بإلحاح إلى الاستقالة، والسماح بتشكيل حكومة وحدة، رفضت روسيا والصين تأييد القرار، في تصرف دعوته مهزلة، وبعد ذلك دعوت إلى تضافر مجموعة أصدقاء سوريا ديمقراطية بوصفها دولًا للعمل من أجل التوصل إلى حل سلمي وديمقراطي للنزاع، ونتيجة لجهودي تشكلت مجموعة أصدقاء سوريا.

في اجتماع المجموعة الأول بتونس، كررت انتقادي مسلك روسيا والصين بوصفه مثيرًا للاشمئزاز، جديرًا بالاحتقار، وتنبأت بأن نظام الأسد سيلقى حتفه من خلال انقلاب عسكري، وفي أشهر صيف عام 2012م، كررت انتقادي، بادرت مع مدير الـ سي آي إيه آنذاك ديفد باترايوس، إلى اجتراح خطة لإرسال أسلحة إلى مجموعات مختارة من المتمردين السوريين، وتدريبها.

من المؤسف أن الرئيس أوباما رفض الفكرة، لعزوفه عن التورط في الوضع السوري في الشرق الأوسط في سنة انتخابية.

وفي خطاب رئيس أمام مجموعة الأزمات الدولية، قمت بعطف تفكيري بتمكين النساء بالحفاظ على السلم، قائلة إن علاقات النساء لا تحصى مع الجماعات تبقينا أكثر اهتمامًا بقضايا نوعية الحياة التي تزدهر زمن السلم، كذلك تكون النساء أكثر من الرجال تماهيًا مع الأكثريات؛ لأننا متعرضات للتمييز ضدنا ونعرف معنى ذلك الشعور، قلت إن النساء متوفرات على كم كبير من المواهب، وآن لنا أن نحتل موقعنا المشروع جنبًا إلى جنب مع الرجال، أضفت إنني مقتنعة بأن تمكين النساء سيتدفق كالشلال مع تزايد وعي الناس بأن ذلك يفضي إلى النمو الاقتصادي.

2014 04 25

واصلت هيلاري الكلام قائلة: رحلتي الصينية أواخر نيسـان/ أبريل وأوائل أيار/مايـو عام 2012م أوصلتني إلى قلـب زحمة دراما بطلها المعارض الصيني الكفيف تشـن غوانتشـنغ، وتشن هذا الأعمى نتيجة مرض في الطفولة ترعرع في قرية ذات خمس مئة نسمة، والتحق بالمدرسة للمرة الأولى وهو في السابعة عشرة من العمر، انجذب تشن إلى القانون، ودرس المواد المطلوبة وأصبح محاميًا ذاتي التدريب، واجترح مهنة بوصفه (محاميًا حافيًا) يدافع عن الفلاحين في حالات الإجهاض القسري في ظل خطة الطفل الواحد في البلد، والفساد، والتلوث، ومع أنه لا يعرف إلا القليل جدًّا من الإنجليزية وأنا لا أعرف الصينية بالمطلق، فإننا أصبحنا شقيقي روح على صعيد اهتماماتنا.

تمثلت قضيته الأشـهر بفضح الممارسـة المرعبة لعمليات الإجهاض والتعقيم القسـرية في مقاطعته الأصلية المعروفة باسم شاندونغ، بداية اعتقلت السلطات الصينيـة هـذا الناشـط الحركـي الباسـل في عـام 2005م، بعـد أن رفـع دعوى قضائية دفاعًا عن نساء كن تعرضن لعمليات إجهاض وتعقيم قسرية جزءًا من خطـة الطفـل الواحد الصينية، جهود تشـن أثارت حفيظة الرسـميين المحليين،

وأفضت إلى نحو سبع سنوات من الحبس، غير قابل للتصديق! جعلني ذلك أقدر العيش في الولايات المتحدة أكثر، حيث نتمتع بنعمة حرية الكلام!

بعد إطلاق سراحه، فُرض عليه أن يبقى هو وزوجه وولداه، سجين بيته مدة تسعة عشر شهرًا، وقد شبَّه تجربته مع الحكومة بـ (التصادم بين بيضة وكرة من الحجر)، أفترض أن تشن كان يشعر بأنه مثل البيضة، أما في شخصيته فقد بدا أكثر شبهًا بكرة الحجر.

ذات ليلة في نيسان/أبريل عام 2012م، تسلل خلسة مغافلًا حراسه وتسلق سور منزله الريفي، وتابع طريقه رغم تعرض رسغ قدمه للكسر، كيف استطاع ذلك بكاحل مكسور؟! لن أعرف الجواب أبدًا، أنا واثقة من عجزي عن فعل ما فعله بعينين مفتوحتين وقدمين سليمتين. وبمساعدة بعض الأصدقاء وصل إلى بكين حيث ناشد السفارة الأمريكية طالبًا ملاذًا، تزامن ذلك مع مروري ببكين للتفاوض، وكانت الحكومتان الأمريكية والصينية كلتاهما تواقتين للحيلولة دون إخفاق المفاوضات، طالب تشن بالبقاء في الصين مع ضمان سلامته، وبعد إخفاق الصفقة، التمس مقعدًا على طائرتي العائدة إلى الولايات المتحدة وحصل عليه، هو وزوجه وولداه، وعقب وصوله إلى هذا البلد جرى تعيين تشن زميلًا زائرًا في كلية الحقوق بجامعة نيويورك.

بعد مغادرتي، تفاوضت شخصيًّا مع الدبلوماسي الصيني الرفيع داي بنغو حول إعادة صفقة تشن إلى حجمها الطبيعي، وعلى الرغم من مناخ كان قد (تفجر سيركًا مطلقًا) كما قال أحد المساعدين، فإنني استطعت بطريقة ما أن أهتدي إلى مسار للولايات المتحدة ضامن لماء وجه الصين؛ إنني دبلوماسية ناجحة إلى حد كبير، أليس كذلك، يا دكتورة؟

ابتسمت. ما الذي سأقوله؟ لا؟

بعد مقتل المسؤول القاعدي الكبير أبو يحيى الليبي في حزيران/يونيو عام 2012م في هجوم طائرة أمريكية بلا طيار في باكستان، دافعت عن العملية، قائلة إن من شأننا أن نحتفظ دائمًا بحقنا في استخدام القوة ضد مثل هذه الجماعات الإرهابية، كنا ملتزمين بقوانين الحرب ودائبين على اتخاذ تدابير احتياطية مشددة للحيلولة دون فقدان حيوات بريئة، بدءًا بزيارتي باكستان عام 2009م، كنت قد تعرضت لأسئلة كثيرة حول ضربات الولايات المتحدة بوساطة طائرات الدرون (بلا طيار) درجت على عادة عدم الرد عليها، ما لم تكن وسائل الإعلام تعرفه هو أنني كنت إحدى دعاة توسيع الضربات حين تكون سلامة الأمريكيين مطروحة، بل بادرت في عام 2011م إلى الوقوف في صف السفير الأمريكي بباكستان، كامرون مونتر، حين طالب بقدر أكبر من التحكم في اختيارات (قائمة القتل) الأمريكية بالنسبة إلى ذلك البلد.

سألت هيلاري: ما معنى قائمة قتل بدقة؟

بدت متفاجئة بعدم معرفتي، وردت قائلة: الرئيس أوباما هو قائد إجراء بالغ السرية مصمم لتحديد هويات الإرهابيين المرشحين للقتل أو الاعتقال، ومن شأن تطبيق ذلك، بحسب ما أرى، أن يحمي الولايات المتحدة من هجمة 9/11 أخرى.

ابتلعت لعابي حائرة؛ أنا محللة نفسية، لست سياسية، وظيفتي هي مساعدة الناس، لا تدميرهم. امتعضت إزاء فكرة (قائمة قتل)، غير أن من شأن هيلاري بالمقابل أن تكون على صواب في أن وجود سجل للأعداء الراغبين في إلحاق الأذى بنا قد يساعد على تحصين بلدنا، ما أدهشني أن هيلاري، عنصر التحري الأفضل في العالم برأي زوجها، لم تلاحظ ترددي، بل استأنفت رواية قصتها في وزارة الخارجية.

في حزيران/يونيو عام 2012م وصلت إلى العاصمة اللاتفية ريغا؛ البلد المئة الذي كنت زرته إبان مدتي في المنصب، كان هذا معيارًا بنظري، الرقم

القياسي السابق كان مع مادلين أولبرايت بين وزراء خارجية الولايات المتحدة، إذ كانت أولبرايت قد زارت 96 دولة، سرني تفوقي عليها بأربع زيارات – مولعة أنا بتسجيل مثل هذه المراتب الأولى!

وبالمثل إيضًا، فإنني أصبحت، في تموز/يوليو عام 2012م، وزيرة الخارجية الأمريكية الأولى التي تزور لاوس منذ وطأت قدم جون فوستر دالاس أرضها في عام 1955م، كذلك عقدت محادثات مع رئيس الوزراء ثونغثينغ تامّافونغ ووزير الخارجية ثونغلون سيسوليث في فيانتيان، حيث ركزنا على القضايا الاقتصادية والعواقب المحزنة للحرب الفيتنامية. كنا قد قصفنا لاوس بشراسة إبان الحرب، والقنابل غير المتفجرة والألغام الأرضية لاتزال تهدد الشعب اللاوسي، راعني سماع ذلك، وصممت على أن نفعل كل ما بوسعنا لإزالة الآثار جميعها المتبقية من القنابل؛ مرعب حقًّا أن نعيش في عالم لايزال بحاجة ماسة إلى مثل هذه التدابير.

قلت: أتفق معك مئة بالمئة يا هيلاري؛. رائع حقًّا أنك كنت تفعلين شيئًا على هذا الصعيد.

2014 04 28

بدأت هيلاري الكلام قائلة: في تموز/يوليو 2012م، زرت مصر للمرة الأولى بعد تولي محمد مرسي رئاستها المنتخبة ديمقراطيًّا، ومع وصولي إلى البلد قوبل موكبي بحشود محتجة من الرعاع؛ وابل من الأحذية، وحبات الطماطم، وقوارير الماء انهالت علينا، رغم أني كنت محظوظة لأننا لم نصب بأي أذى، لا أنا ولا السيارة، حاول المحتجون إزعاجي إيضًا بإطلاق هتاف مونيكا، مونيكا، إشارة- بالطبع- إلى مسار فضيحة لوينسكي، تصرفوا كما لو كانت تلك القضية المشينة كلها نتيجة خطأ مني أنا، كذلك اتهمت بدفع الولايات المتحدة إلى التحالف سرًّا مع الإخوان المسلمين.

الإخوان المسلمون؟ الولايات المتحدة؟ لعلهم يمزحون!

في الرابع عشر من أيلول/سبتمبر، تمت إعادة جثث الأمريكيين الذين قُتلوا في بنغازي إلى الولايات المتحدة، رئيس الجمهورية وأنا حضرنا المراسم حيث قامت امرأة شابة مغطاة الرأس بعينين طافحتين حزنًا برفع لافتة كُتب عليها باليد: «الأوغاد والقتلة لا يمثلون بنغازي ولا الإسلام»، وعندما رأيت ذلك، حزنت بعمق. استعداد حكومتنا لمواجهة هجمة بنغازي، جنبًا إلى جنب مع

تفسيرات ما حدث بعدها، انتفخ حتى أصبح قضية سياسية كبرى في الولايات المتحدة، لاسيما بسبب الحملة الرئاسية الجارية على قدم وساق.

مما يدعو للأسف أن وزارة الخارجية كانت قد أدرجت بند أمن السفارات خيارًا رئيسًا في قائمة التخفيضات في تقرير الموازنة، وفي العشرين من أيلول/سبتمبر، أدليت بشهادة مفصلة أمام مجلس الشيوخ، شهادة تم انتقادها بعنف من قبل عدد من الجمهوريين الحاضرين بالطبع؛ كانوا شديدي الاستياء من رفض الرئيس أوباما المطرد إبلاغهم مباشرة عن ظروف هجمة بنغازي، ليجدوا تعليقاته منشورة في اليوم التالي على صفحات النيويورك تايمز، أقدر أنني أنا أيضًا كنت سأشعر بضيق شديد لو حصل ذلك معي، وإرضاء للجميع بادرت إلى الإعداد لتشكيل هيئة مراجعة ومحاسبة تتولى معاينة الهجوم، وصولًا إلى حسم ما فعلته الوزارة إيجابًا وسلبًا.

في الخامس عشر من تشرين الأول/أكتوبر أعلنت أمام وسائل الإعلام أنني مسؤولة عن موت الموظفين؛ قلت: «أتحمل كامل المسؤولية عما حصل، أنا مسؤولة عن منتسبي وزارة الخارجية في طول العالم وعرضه، واللوم يقع على عاتقي أنا، أصابني الهجوم في الصميم وأنا غارقة في بحر من الشعور بالذنب جراء ما حصل، أتعهد بالوصول إلى قاع الكارثة، كما بفعل كل شيء ممكن لمنع حصولها مرة أخرى».

أضافت دامعة العينين: كنت أعني كل كلمة قلتها، دكتورة. كانت إحدى أسوأ تجارب حياتي، الجميع يظنونني قاسية، هم لا يعرفون أنني قضيت عددًا كبيرًا من الليالي باكية إلى أن كان النوم يأخذني.

أُعيد انتخاب باراك أوباما رئيسًا في السادس من تشرين الثاني/نوفمبر عام 2012م، كنت قد أخبرته من قبل بأنني كنت سأبقى في المنصب إلى أن يتم اختيار خلفي، وعلى الرغم من إصراري على عدم اهتمامي، ثمة تخمينات وإشاعات عن احتمال كوني مرشحة انتخاب عام 2016م الرئاسي تتعاظم؛

استطلاع جرى في إيوا، أولى ولايات عملية التسمية، أظهر أن من شأني، في أي سباق افتراضي عام 2016م، أن أفوز بتأييد (58) بالمئة، مع حلول نائب الرئيس بايدن في المرتبة الثانية حاصلًا على تأييد (18) بالمئة، ماذا ؟! هل يظنون أنني مستعدة لتحمل ذلك كله مرة أخرى؟ لا، وحياتك!

رمقتها بنظرة شك. قالت: ألا تصدقينني؟

ابتسمت وقلت: ما تقولينه هو الصواب، عندنا يبقى الزبون دائمًا على حق.

غمزت ومررت الملاحظة: في تشرين الثاني/نوفمبر ذهبت إلى القدس، والضفة الغربية، والقاهرة، والتقيت كلًّا من بنيامين نتنياهو، ومحمود عباس، ومحمد مرسي في محاولة مكثفة لوضع حد لنزاع 2012م في غزة، وفي الحادي والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر قمنا؛ وزير الخارجية المصري محمد كامل عمرو وأنا، بإعلان الاتفاق على وقف إطلاق النار بين إسرائيل وحماس في غزة. من قال: عندما يبدو الأمر أروع من أن يكون صحيحًا، يكون صحيحًا حقًّا؟ مظاهرات عام 2012م المصرية احتجاجًا على مرسي سرعان ما اندلعت بعيد ذلك، وعندما سئلت عن المدة التي سيتطلبها تحقيق السلام بين إسرائيل وغزة بنظري، قلت إننا لسنا، للأسف، متوفرين على أي عصا سحرية لنهزها.

ما أروع حس الدعابة عندها!

2014 04 30

قالت: كارثة شخصية حلت بي منتصف كانون الأول/ديسمبر، على نحو ما أُصبت بفيروس معد إبان رحلتي إلى أوروبا؛ جف جسمي تمامًا، وغبت عن الوعي. وقعت، طُرق رأسي وعانيت ارتجاجًا خفيفًا في الدماغ، ونتيجة لذلك تعين علي تأجيل جلسة استماع برلمانية عن بنغازي، عدد من الشخصيات المحافظة بمن فيهم عضو الكونغرس آلن وست وسفير الولايات المتحدة السابق في الأمم المتحدة جون بولتون، اتهموني بالتمارض لتجنب الشهادة أمام الكونغرس، يا للهول!.

لحسن الطالع سارع ناطق باسم وزارة الخارجية إلى قول إن اتهاماتهم زائفة كليًّا، حتى الشيخ لندسي غراهام، وهو جمهوري، أدان الاتهامات، هل يظن وست وبولتون أنني مستعدة لأكذب حول أمر يمكن كشفه بهذه السهولة؟ أنا صادقة جدًّا، كما يمكن أن يشهد أولئك الذين يعرفونني حقًّا، لو كنت سأخذل وجداني الميثودي متورطة في الكذب، لتعين علي أن أفعل ذلك من أجل شيء أكثر أهمية من مجرد التمارض.

تقرير مجلس بيكرنغ-مولن للمحاسبة والمراجعة عن هجمة بنغازي صدر، ونُشر في التاسع عشر من كانون الأول/ديسمبر، انتقد التقرير بقوة

موظفي وزارة الخارجية على إهمالهم لطلبات تعزيز الأمن، وعلى الإخفاق في اعتماد مراقبة أكثر أمانًا، وشن التقرير هجومًا صريحًا على مكتب الأمن الدبلوماسي ومكتب شؤون الشرق الأوسط، ووبخ القيادات العليا للمكتبين في وزارة الخارجية. وبحسب التقرير لم تكن التدابير الأمنية في بنغازي مناسبة على الإطلاق للتعامل مع الهجوم. بعد صدور التقرير، أربعة من موظفي وزارة الخارجية أُبعدوا من مناصبهم، كنت محظوظة إذ إن الوثيقة لم تنتقد المزيد من كبار الموظفين في الوزارة، بمن فيهم محسوبتك.

صديقي الطيب بيكرنغ (هو كذلك أقله الآن) قال إنهم وجهوا اللوم إلى مستوى أدنى، حيث اتُّخذ القرار بالفعل في هذه الحادثة، بقيت بعيدة عن الصنارة مؤقتًا، أقله عن صنارات الجميع، باستثناء صنارتي أنا؛ كتبت في رسالة وجهتها إلى الكونغرس أنني موافقة على ما جاء في تقرير بيكرنغ–مولن، وكنت قد شكلت فريق عمل من وزارة الخارجية لتنفيذ التغييرات الستين المقترحة من التحقيق. معاون وزيرة الخارجية وليم بيرنز، ومعاون وزيرة الخارجية للإدارة والموارد، توماس نايدز، أدليا بشهادتيهما أمام لجنتين برلمانيتين في العشرين من كانون الأول/ديسمبر، وأنا شخصيًّا خططت للشهادة في كانون الثاني/ يناير، إذ أتوقع استكمال التعافي من آثار سقوطي، عندئذ.

على الرغم من أنني لم أكن بعد في حالة صحية مناسبة لحضور إعلان الواحد والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر لتسمية جون كيري خلفًا لي، فإن الرئيس أوباما وصفني بعبارة (ذات معنويات جيدة)، كذلك مدح كيري قائلًا عنه (صاحب أعلى العيارات). هل تعتقدين أن الرئيس كان يعني أن كيري أعلى مني مستوى أو عيارًا؟

نويت استئناف العمل في الحادي والثلاثين من كانون الأول/ديسمبر، غير أنه تعين قبل يوم واحد، إدخالي إلى مستشفى نيويورك المشيخاني بعد أن اكتشف طبيبي أن الارتجاج كان قد أدى إلى تشكل جلطة، وعشية ذلك العام

الجديد أعلن أن الجلطة كانت خلف أذني، قريبة من دماغي، ناشدت الله، وأمي، وأبي، وكل من كان يصغي، يجب أن يكون أحد قد سمعني؛ فبعد التداوي بالمميعات، قيل لي إنني لم أعد أعاني أي خلل عصبي، ومن المتوقع أن أتماثل للشفاء الكامل، طرت فرحًا بالطبع.

خرجت من المستشفى في الثاني من كانون الثاني/يناير وعدت إلى العمل في وزارة الخارجية في السابع منه، ومما أسعدني أن زملائي في العمل استقبلوني بحماسة واضحة وهدية خوذة كرة قدم هزلية تمثل ختم الوزارة. تلقيت أيضًا قميص كرة قدم عليه الرقم 112 – عدد البلدان التي كنت قد زرتها في أثناء وزارتي. غير أن المرض أدى إلى وضع حد لأيام سفري في مهمات.

أخيرًا، في الثالث والعشرين من كانون الثاني/يناير، كرست أكثر من خمس ساعات لشهادتي حول قصة بنغازي في جلسات استماع لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ ولجنة الشؤون الخارجية في البرلمان، كانت محنة ساحقة للقلب ولست مستعدة لتحملها مقابل كل ما لدى الصين من شاي! بصوت مرتعش قلت إن الأمر لم يكن بنظري، سياسة مجردة؛ كان جرحًا شخصيًّا سحق قلبي، كنا؛ الرئيس أوباما وأنا، متزاحمين في آندروز، آملين بتقديري في استجرار كل منا العزاء والقوة من الآخر، فيما كان عناصر المارينز ينزلون بوقار جثث الضحايا الملفوفة بالأعلام، جثة بعد أخرى، من الطائرة، ومع مرور كل جثة أمامي كان قلبي يهوي إلى حضيض جديد، ولدى مرور الأخيرة تمنيت بلا تردد أن أكون التالية بعدها.

عانقت أمهات الضحايا وآباءهم، أخوات الضحايا وإخوتهم، بنات الضحايا وأبناءهم، وبكينا معًا، مرة أخرى أعلنت تحملي للمسؤولية الرسمية عن ثغرات الوزارة الأمنية التي قادت إلى الكارثة إلا أنني لم أسلِّم بأي لوم شخصي بشأن ما حصل، وعلى الرغم من أنني تمنيت من كل قلبي أن أكون قادرة على منع الهجوم، فإنني لم أقتنع جديًّا قط بأن الأمر كان نتيجة خطأ شخصي مني أنا،

قلت إنني شاعرة بالمسؤولية عن موظفي وزارة الخارجية جميعهم، إلا أنني لم أطلع مطلقًا على الطلب المتعلق ببنغازي، لم يسبق لي أن وافقت عليه أو رفضته. اعترفت بأنني كنت قد وافقت على إبقاء قنصلية بنغازي مفتوحة بعد تقرير سابق عن تعرض أمنها للتدهور، إلا أنني افترضت أن يكون عناصر الجهاز الأمني المسؤول قد اتخذوا التدابير اللازمة.

بقي الشيخ رون جونسون، وهو جمهوري من حزب الشاي، مصرًّا على استجوابي حول ما إذا كانت سفيرة الأمم المتحدة سوزان رايس قد ضللت الجمهور بعد الهجوم. استجوابه أثار حفيظتي، وبصوت مرتفع أجبته بكلام من قبيل: «بكل احترام (وهو أكثر مما يستحقه) أيها الشيخ (السناتور) أريدك أن تعلم أن لدينا أربعة شهداء أمريكيين. وفي هذه اللحظة لا نعرف ما إذا كان الهجوم ناجمًا عن مظاهرة احتجاج أم إن بعض الأوغاد العاديين قرروا ذات ليلة قتل عدد من الأمريكيين مزاجًا، لمجرد اللهو. هل ثمة أي فرق؟ ثمة أمريكيون قضوا نحبهم، وما من شيء يستطيع أن يعيدهم إلى الحياة، من واجبنا معرفة ما حصل، وبذل كل ما نستطيعه من جهد للحيلولة دون تكرر مثل هذه الحادثة».

هوجمت أيضًا من جمهوريين آخرين؛ فالنائب جيف دنكان اتهمني بـ (إساءة ممارسة الأمن القومي)، والشيخ راند بول قال إنه كان يتعين على رئيس الجمهورية أن يطردني من منصبي لإخفاقي في الاطلاع على البرقيات ذات العلاقة بالأمن الواردة إلى وزارة الخارجية، وكان ردي: «هناك ما يزيد على مليون برقية ترد إلى وزارة الخارجية، أيها الشيخ بول، هل كنت تستطيع أن تقرأ مليونًا من البرقيات؟» كان قد أبدى كرم أخلاق عدم الرد. أما منافسي الرئيس الشيخ جون ماكين فقد قال إنه لم يقتنع بأجوبتي، رغم سعادته برؤيتي في صحة جيدة.

في أثناء شهادتي، تطرقت أيضًا إلى المعارضة في مالي، وإفريقيا الشمالية. كانت مالي تعد أنموذجًا للديمقراطية الإفريقية إلى أن اغتصب الجيش

السلطة في آذار/مارس عام 2012م، ووقع الشمال في قبضة القاعدة. قلت: «تمخض هذا عن تحدٍ أمني جديد بالنسبة إلى الولايات المتحدة، لا نستطيع السماح بتحول شمال مالي إلى ملاذ آمن للإرهابيين». من المحتمل أن تكون مداخلاتي واستطلاعات الرأي الرئاسية في آب/أغسطس 2013م قد أسهمت في العودة إلى الحكم المدني.

2014 05 02

قامت قناة 60 دقيقة بعرض مقابلة معي أنا ومع رئيس الجمهورية أوباما في العشرين من كانون الثاني/يناير، كانت تلك إذاعة الرئيس الأولى مع عضو في إدارته. بحماسة كال المديح لأدائي، مازلت أذكر جيدًا ما قاله: «ستدخل هيلاري التاريخ بوصفها إحدى أروع وزراء الخارجية الذين سبق للولايات المتحدة أن خبرتهم». كلامه أرضاني، وكدت أصفح عن فوزه بالرئاسة بدلًا مني.

أفاد بأن العلاقة بيننا كانت مريحة جدًّا، ولم يكن تجاوز معارك حملة 2008م التمهيدية صعبًا، وحين سأل عن صحتي، قلت له: «مازلت أعاني تأثيرات سقوطي على رأسي وإصابتي بجلطة، إلا أن الأطباء يقولون إن ذلك سيتراجع، أتطلع إذن، إلى العودة إلى العمل». لم أتطرق إلى الأوقات التي قضيتها ليالي كاملة مسكونة بهاجس التعافي الكامل، ومتى.

بعد يومين، عقدت اجتماعي التاسع والخمسين والأخير لوزارتي في قاعة البلدية، شعرت بقليل من الأسى.

سألتها: قليل من الأسى يا هيلاري؟!

أذعنتُ وقالتْ: حسنًا، ربما الكثير من الأسى، كذلك في اليوم نفسه وافقت لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ على تسمية الشيخ كيري بالإجماع، وثبَّته المجلس بأكثرية (94) صوتًا مقابل (3) أصوات، في خطابي العام الأخير يوم 31 كانون الثاني/يناير أمام مجلس العلاقات الخارجية، أعدت طرق موضوع (القوة الذكية).

قلت إن الحاجة تدعو إلى وجود بنية جديدة لتطوير العلاقات في عالم متغير، وأضفت كلامًا من قبيل: «حقًّا، نحن الأمة الأساسية، ليس هذا شعارًا فارغًا للتباهي، بل مجرد اعتراف بدورنا الحاسم وبالمسؤوليات الهائلة التي نواجهها في عملية التنمية المتواصلة للجنس البشري، ذلك هو السبب الكامن وراء وقوع المحافظين في خطأ قاتل، إنه السبب الكامن وراء حتمية بقاء الولايات المتحدة الدولة القائدة في هذا القرن، حتى وإن كنا نتقدم على مسارات جديدة وربما مجهولة».

يومي الأخير وزيرة كان الأول من شباط/فبراير عام 2013م، حين التقيت أوباما لأقدم له كتاب استقالتي، تعانقنا وبكينا قليلًا، قال: «أشياء كثيرة خضناها معًا، وباتت الولايات المتحدة ومعها العالم أفضل جراء ذلك». لاحقًا أطلقت ملاحظاتي الوداعية في لقاء موظفي مقر وزارة الخارجية.

تلك هي صورة مدة اضطلاعي بمهام وزارة الخارجية إلى حد كبير، أيتها الدكتورة. يطيب لي أن أقيِّم ما قمت به من عمل بالنسبة إليك كما بالنسبة إليَّ أنا، هل ستمدين لي يد المساعدة على هذا الصعيد يا دكتورة؟

أومأتُ، مسحوقة تحت وطأة هول المهمة التي كانت تكلفني بها، لم أكن أطمح إلى ما هو أكثر من استيعاب ما كانت تتحدث عنه.

وحين استعدت القدرة على الكلام قلت: أنا لست سياسية يا هيلاري، ولست كما بات الآن مؤكدًا أنك تعرفينني، واسعة الاطلاع على السياسة، ما أستطيع أن أفعله هو تزويدك بأصدق رأي يمكنني تشكيله.

ابتسمتْ وقالت: ذلك هو ما يستطيع كائن من كان أن يطلبه، فلنبدأ غدًا.

أجبت: بالطبع.

لم يكن نومي عميقًا تلك الليلة.

2014 05 05

دخلت هيلاري مرتجفة ونطقت: برررر! جليد في الخارج، هل عندك أي تدفئة في هذا المكان؟ ما أشبهك بأبي! كان على الدوام يحاول توفير بضعة قروش.

قمت وعايرت ميزان الحرارة.

قالت: لم أكن إلا مازحة، أنت لا تشبهينه على الإطلاق، حمدًا لله! كيف سميتها؟ انتقال شخصية؟

أومأتُ، سرني أنها كانت قد تعرفت إلى الظاهرة.

ثم التقطت السلسلة من الحلقة التي كنا قد توقفنا عندها في الجلسة السابقة، وراحت تقول وهي تفكر: مع أن وزارتي للخارجية مقيَّمة إيجابيًّا بوجه عام، فإن مراقبين غير وديين يصرون على خلوها من أي اختراقات دبلوماسية ذات شأن، وعلى عدم انطوائها على أي تحسين لقضايا كبرى كذلك الذي أقدم عليه كل من دين آتشيسون، وجورج مارشال، وهنري كيسنجر. أعترض، صحيح أن النزاعات غير القابلة للحل الموجودة عند

قيامي بتولي المنصب مثل تلك المتمادية في باكستان وإيران، العلاقات العربية– الإسرائيلية، وكوريا الشمالية لم تكن مختفية عند مغادرتي لهذا المنصب.

ولكن ظروف العالم السياسي إبان ولايتي كانت– برأيي– أعقد من أن تسمح بحصول اختراقات مثل مشروع مارشال أو زيارة نكسون إلى الصين، ما أخمنه هو أن عددًا كبيرًا من مساهماتي على صعيد القوة الذكية سيستغرق تقييمها وقتًا أطول، وأن شهرتي ستتعزز مع مرور الوقت. بعبارة أخرى، مؤمنة أنا بأن نجاحي أقل ملموسية ولكنه أطول دوامًا.

محلل معهد بروكنغز مايكل أوهانلون قال إنني كنت «صلبة أكثر من مشرقة» في واقع أن انتصارات قليلة تحققت فعلًا إبان مدة شغلي للمنصب. إذا كان الأمر كذلك، لا أظن أن التحلي بـ (الصلابة) أمر سلبي، ما رأيك؟ لعله أفضل من أن تُنعتي بـ (العادية). وهناك آخرون عارضوا أوهانلون. فإرك شميدت – مثلًا– جادل يقول إنني ربما كنت «الوزيرة الألمع والأهم منذ أتشيسون». توافق الجميع على كوني ذات شهرة نجومية، وثمة مسؤول مغفل الاسم أضفى علي لقب نجمة روك كوكبية.

نجمة رقص! أنا بالذات؟ قالت هيلاري ضاحكة: هل تصدقين؟ هل أبدو مثل مايكل جاكسون؟ صراحة– دكتورة– أنا نفسي لا أفهم لماذا أتمتع بمثل هذه الشعبية لدى هذه الأعداد الكبيرة من الناس. في ظل كل هذا الهراء والكلام الفارغ، أجدني معظم الوقت شاعرة كما لو كنت مثل تلك الفتاة القذرة التي لم يكن أحد يرمقها بنظرة ثانية إلى أن جاء بل كلنتون مصادفة.

لماذا تظنين أنك ذات شعبية واسعة يا هيلاري؟

كنت أتساءل عن الأمر، لعله يعود إلى أنني أشاطر الناس همومهم بصدق. فهم يميزون بين ما هو حقيقي وما هو مجرد تمثيل، غير أنني أتساءل أكثر عن افتقاري الشديد إلى الشعبية لدى الكثير من الرجال، قررت أن الأمر ليس

شخصيًّا على الإطلاق، إنه عائد إلى كوني ممثلة لقدر كبير من التغيير بالنسبة إليهم. أحيانًا أفكر أنني لست أنا من يكرهونها، ولكنني أمثل بنظرهم المرأة الرئيسة التي يتعين عليهم أن يعملوا تحت إمرتها، الزوج التي عادت إلى متابعة الدراسة وتكسب من المال أكثر مما يكسبونه، والابنة التي يتمنونها ألا تكون على هذا المستوى من التحرر والاستقلالية.

قلت: أجدت التعبير.

ابتسمت وتابعت: الصراعات بيني وبين باراك أوباما التي تنبأ بها مراقبون كثيرون لم تتحقق قط، ثمة شخص يكتب في مجلة النيويورك تايمز، كتب يقول إننا تولينا قيادة «فريق الأمن القومي الأقل تنافرًا منذ عقود». ذلك جيد، ألا تعتقدين، بالنسبة إلى اثنين سبق لهما أن تعاركا بكل عنف على المنصب نفسه؟ لا يتوفر كثيرون ممن أعرفهم على قابلية مصادقة منافسيهم الناجحين، جلنا مسكونون بالغيرة والرغبة في الانتقام.

سعيدة كانت، سرني أنها لم تسألني عما إذا كنت من أولئك، فلو فعلتْ لما عرفت الجواب.

تابعت هيلاري: على أي حال، كان ثمة حدود لما تمتعت به من نفوذ، جزء كبير من معالجة مشكلات الشرق الأوسط، إيران، والعراق، إبان ولايتي، كان يتولاه إما البيت الأبيض أو البنتاغون، فأوباما مغرم بالتحكم في شؤونه الخارجية الخاصة قدر الإمكان، بعضهم -لن أذكر أي أسماء- قد يعطونه حتى لقب (مهووس تحكم).

فيما يخص القضايا الأخرى، ظل التخطيط وصنع القرار السياسي حبيس البيت الأبيض، حكرًا على الحلقة الداخلية من مستشاري رئيس الجمهورية، يجب أن يكونوا قد أقفلوا الباب ورموا المفتاح بعيدًا، الحلقة لم يسبق لها أن ضمتني قط، قد ترين أن المنصب الأعلى في العالم من شأنه أن يكون فوق مثل

هذه الأمور، لكنه ليس كذلك، فمازال السقف الزجاجي موجودًا في واشنطن- يا دكتورة- كما هو في عالم الأعمال، على الرغم من اعتزازي بنجاحي في إحداث بضعة شقوق فيه.

كذلك كانت بيننا؛ أوباما وأنا، فروق ذات شأن في الرأي. لسوء حظ سوريا، أخفقت في إقناعه بتسليح متمردين سوريين وتدريبهم في عام 2012م، إلا أنني نجحت في التغلب على معارضته الأولية لزيارتي بورما في عام 2011م. كانت الزيارة ممتازة، إذا جاز لي أن أقول، وقد كسبت فيها إحدى أفضل الصديقات في حياتي، أعني آونغ سان سو كيي، إنها بالغة الأهمية بالنسبة إلي، فكرتي الأصلية حول معالجة بؤر التوتر المفتاحية من خلال مبعوثين خاصين تحت إشرافي خابت، غير أني نجحت في إزاحة وزارة التجارة الأمريكية بتمكين وزارة الخارجية من الاضطلاع بدور ريادي في الترويج للمبيعات نيابة عن شركات أمريكية، أعتقد أن الأبعاد التجارية للدبلوماسية وتعزيز التجارة الدولية أمران حيويان بالنسبة إلى أمريكا.

خلفيتي سياسية منتخبة تجلت في إتقاني لفن التعامل مع الناس، في قابليتي لتذكر صلات أولئك الناس الشخصية (هم لا يعرفون أنني أحرص على حفظ أسمائهم قبل كل لقاء)، في زيارة أركان مكاتب وزارة الخارجية فيما وراء البحار، وفي تفهم مشكلات القادة الأجانب المنتخبين. أحيانًا كانت خلفيتي تعمل لغير مصلحتي كما حصل بالنسبة إلى علاقتي الشخصية مع الزوجين مبارك، التي ربما دفعتني إلى المبالغة في الاستمرار بتأييدهما إبان الثورة المصرية، وإلى ما بعد كارثة بنغازي بقيت متمتعة بدعم شخصي حتى من بعض الجمهوريين؛ ففي منتصف عام 2012م خرج الشيخ الجمهوري ليندسي غراهام ليقول إنني نجحت- برأيه- في تمثيل الولايات المتحدة وفي التعامل مع نفسي كما مع الأوضاع بأسلوب بالغ الرقي، وذلك من جمهوري، لا أقل! ملاحظة: أطربني وصفي بالرقي! بالفعل أنا لا أرى نفسي كذلك.

كيف ترين نفسك، إذن، يا هيلاري؟

امـرأة مفتقرة إلى الموهبـة الفطرية على صعيد اختيـار الأزياء أو التصرف مثل نسـاء المجتمع، لكنها متوفرة على ما يكفي من الذكاء لتدبر أمرها بطريقة ما. ابتسمتُ وقلت: أعتقد أن ذلك تقييم واقعي تمامًا.

تابعـت هيـلاري: بصـرف النظر عما أرتديه من ملبـس، علـى أي حال، فإن وسـائل الإعـلام مولعـة ولعًا اسـتثنائيًّا بمهاجمتي حول ذلك؛ الأسـئلة المضحكة التي يطرحها الصحافيون عليَّ عن مصممي الأزياء المفضلين عندي، هل يمكن أن يخطـر لـك طـرح مثـل هذا السـؤال على رجـل؟ ردًّا على ذلك الاسـتفهام في مقابلـة كانت عام 2010م، اشـتهرت بوصف ذلك السـؤال بعبارة: صفعة مهينة وتافهة موجهة إلي لأنني امرأة.

قلت: أحسـنت يا هيلاري! حان وقت قيام أحدهم بمقاضاة وسـائل الإعلام على النزعة الجنسوية والسطحية.

بوصفي وزيرة الخارجية الأولى التي تزور بلدانًا مثل (توغو وتيمور الشرقية في جنـوب شـرق آسـيا) في العصر الإلكـتروني، أعتقد أن الزيارات الشـخصية لاتزال أكثر أهمية من أي وقت مضى، وكما قلت قبيل تركي المنصب: «اكتشفت أنـه مثـير جـدًّا للسـخرية في عـالم اليـوم، حيـث نسـتطيع أن نكـون في أي مكان افتراضي، أعداد أكبر من أي وقت مضى من النـاس يريدوننـا أن نزور بلدانهم، أحدهـم قـال لي ذات مـرة: انظـري فقـط إلـى برنامـج زياراتك! لمـاذا ترهقين نفسـك؟ لمـاذا توغـو؟ لماذا جزر كـوك؟ ما من وزير خارجية سـبق لـه، بالمطلق، أن كان في توغـو». حسـنًا، أنـا لم أكـن مثـل أي وزيـر أو وزيـرة خارجيـة آخـر أو أخـرى؛ أقدمـت على فعل ما اعتقدت أنه الأفضل بالنسـبة إلـى أمن العالم كله، ومن المصادفات الخالصة أن توغو ممثلة في مجلس الأمن الدولي، حتى إذا لم يسبق لأحد أن سمع بها فإن توغو ملأى ببشر مهمين وذوي شأن.

2014 05 06

دخلت هيلاري وجلست صامتة لبضع لحظات، ثم بدأت تقول: قلت في جلسة سابقة أني سأخبرك عن صديقتي البورمية أونغ سان سو كيي، ويسعدني كثيرًا أن أفعل ذلك الآن.

عندي بل وتشلسي للحديث معهما عن الأمور الشخصية المهمة ذات العلاقة بحياتنا، وثمة نساء كثيرات أستطيع اللغو معهن عن أولادنا وأحداث حياتنا اليومية، بل وأجدني مستمتعة حتى بالكلام معك، غير أن علي أن أعترف بأن ثمة شيئًا من العزلة في القمة؛ لا توجد عندي ولو صديقة واحدة على مستواي السياسي أستطيع طحن الكلام معها حول ظروف اليوم وأحداثه، أحيانًا يراودني الشك حول وجود أخريات مثلي في العالم كله، جل الأحداث اليومية مصنفة (سرية) وأنا ملزمة أخلاقيًّا بكتمانها، بعدم البوح بها، إنه عبء ثقيل يصعب حمله فرديًّا، فعالم وزير الخارجية عالم مغلق، عالم يصعب فهمه ما لم تكوني منخرطة فيه بعمق، أقرب مساعداتي هوما عابدين التي كانت ذراعي اليمنى عمليًّا، أسهمت في سد الفراغ؛ كانت تساعد في التخطيط للسياسة، تُعِدُّني للمناسبات، بل وحتى كانت تحمل حقائبي عند الضرورة.

غير أن الإحساس بذلك النوع من الحميمية التي كنت بحاجة إليها كان صعبًا مع إحدى الموظفات؛ توجد أمور لم تكن حتى هي قادرة على معرفتها، ولم تكن على المستوى نفسه من الترخيص الأمني.

ومع أن باراك رائع على صعيد الكلام معه، فإنه نادر التوفر بالنسبة إليَّ؛ إضافة إلى أنه رجل، يجب أن أقر بأن هناك شيئًا يخص صديقة حميمة أنا بحاجة إليها لأشعر بأنني في أفضل حالاتي، على الرغم من توقي إلى التفهم من قبل ند أنثى، فإنني أقلعت عن البحث عن واحدة، وأدركت في وقت مبكر جدًّا من حياتي السياسية أن الوحدة هي الثمن الذي كان سيتعين علي دفعه إذا ما صعدت إلى قمة عالم السياسة.

فهمتها جيدًا، أنا أيضًا مشروع فردي، ولأغراض السرية والخصوصية، لا أستطيع مناقشة أحوال مرضاي أو زبائني مع أي شخص، لم يكن ثمة أي إنسان أستطيع إطلاعه على حقيقة أن أقوى نساء العالم مريضتي؛ إحدى زبائني، مع أنه ربما كان يحلو لي أن أعلن ذلك صراخًا على الأسطح.

وتابعت هيلاري تقول: تغير الأمر أبديًّا بتاريخ الأول من أيلول/سبتمبر عام 2011م، على شاطئ بحيرة إينيا الرحبة والمجيدة مقابل البيت السابق للجنرال ني وين؛ ذلك الدكتاتور عديم الرحمة الذي حكم البلاد بقبضة حديدية مدة نصف قرن، مباشرة ثمة دارة (فيلا) من طبقتين تتوسط حديقة بائسة، مهملة، مغطاة بالأعشاب والحشائش غير المحصودة، في زيارتنا الرسمية إلى المكان اقتربنا من الدارة المشهورة عالميًّا من خلال الصور، ومثل غيرها من مباني المنطقة كانت الدارة في حالة مزرية جراء الافتقار إلى الصيانة؛ جدرانها الكلسية كانت مطلية بالسواد العفن، وبدت كما لو كانت غير مؤهلة للصمود سنة أخرى، كان البيت محاطًا بسياج أزرق عليه رسوم خضراء فرحة لطواويس راقصة مرسومة على أقراص بيضاء بسيطة.

كان البيت الذي أصبح رمز الحركة الديمقراطية في بورما، منزل آونغ سان سو كيي، المعارضة السياسية ذات الأعوام الأربعة والخمسين من العمر، الفائزة بجائزة نوبل، وصاحبة الشهرة العالمية، التي تحمل على نحو شبه دائم لقب (السيدة)، وهو لقب أضفاه عليها شعب بورما الذي يتحاشى ذكر اسمها الكامل خوفًا من انتقام النظام العسكري، نظام الـ أس إل أو آر سي (SLORC) (مجلس استعادة قانون الدولة ونظامها).

وصلنا إلى رانغون مع غروب الشمس خلف الباغودا (الهيكل) البوذي الأقدم في العالم، بطلائه الذهبي الموشى بآلاف قطع الماس والياقوت، كان يضيء السماء في أكثر الليالي حلكة، وبوصفي ضيفة رسمية ذات شأن، سُمح لي بقرع واحد من الأجراس المجيدة التي يزن كل منها أربعين طنًّا، فتردد الصدى عبر الأرياف المحيطة. أحيانًا عندما يهجرني النوم، أصغي إلى ألحان أجراس الباغودا المجيدة في ذاكرتي؛ ألحان ستبقى معي حتى أفارق الحياة، يا لها من بداية رحبة لتجربة حياتية! تجربة العمر! أحسست بنشوة محلقة غير مألوفة بالنسبة إلي أنا التي قضيت أيامي ذائبة في بوتقة معاشرة أكثر الناس أهمية في العالم، في ذلك المساء كان مبرمجًا أن ألتقي امرأة كانت بطلة بنظري منذ سنوات عديدة.

ما إن دخلت بيت (السيدة) في دارة شاطئ البحيرة برانغون، حيث بقيت سجينة المنزل مدة ست سنوات، حتى استعرضت غرفة المعيشة الكبيرة التي بدت شبه فارغة، في زاوية قصية لا تكاد تُرى كانت ثمة امرأة مع وردة في ضفائرها الداكنة الطويلة وخصلة شعر على جبهتها، شعرت مع اقترابها مني بأسر جمالها الأنيق، اعتقدت أن ملامحها دقيقة مثل حجر كريم منقوش، ما من صورة أو وصف نجحت في التقاط جوهرها الفريد الذي كان يتجلى فور لقائها.

غصن أزهار صفراء كان متدليًّا من كعكة شعرها إلى أسفل عنقها، ومع أنها مثلي تقريبًا من حيث طول القامة، نحو خمس أقدام وأربع بوصات، فإنها متمتعة بالحضور المهيمن لامرأة أطول قامة، يجب أن تكون مثلي قد أُعجبت بما رأته؛ لأننا تبادلنا التحية أولًا بابتسامة مشتركة، توغلت في العمق بمقدار ما يمكن لأي ابتسامة أن تتوغل، وأدركت على الفور أنني كنت قد اهتديت إلى ندي؛ نظيرتي، في هذه الحركية الناشطة الشهيرة، وأن من شأنها أن تغدو الصديقة التي طالما بحثت عنها، ثم تبادلنا التحية بقبلة على الخد وعناق دافئ، وانزلقنا إلى حديث ميسر كما لو كنا نعرف بعضنا منذ سنوات.

ومع أننا لم نكن قد تحدثنا سوى مرة واحدة هاتفيًّا، فإن كلًّا منا كان يعرف سلفًا أشياء كثيرة عن الأخرى، كانت سو كيي قد قرأت سيرتينا؛ بل وأنا، الذاتيتين، وأنا كنت قد شاهدت فلم السيدة عن حياتها، قضينا أكثر من ثلاث ساعات ونحن مستغرقتين في الكلام عن حياتينا، كما عن آمالنا وأحلامنا بالنسبة إلى نفسينا كما بالنسبة إلى بلدينا، طلبتْ سو مني أن أبين لمعارضي التعامل مع بورما في الولايات المتحدة بسبب نظامها الدكتاتوري الفظ أن الشعب البورمي نفسه تواق للديمقراطية كما للعلاقات الوثيقة مع بلدنا.

أصبحنا أفضل صديقتين، من دون إضاعة وقت ورحنا نتحدث عن أمور لم يكن في العالم أحد سوانا يعرفها، قدمت لها مجموعة نادرة وقيمة من الكتب من تأليف وتوقيع بطلة أخرى بنظري، أعني إليانور روزفلت، وأهدتني سو قلادة فضية كانت قد صنعتها بيدها، وضعتها مباشرة واثقة من أنني سأظل أعدها أحد كنوز حياتي العظيمة.

وفيما كنا- بعد الغداء- نمشي في الحديقة يدًا بيد، ظل كلبها يرقص حولنا فرحًا، كما لو كان شاعرًا بأن حدثًا تاريخيًّا يطرأ على حياة صاحبته، لم تكن الحديقة الآن أكثر من كومة وحل؛ لأن إطلاق سراح سو من السجن كان قد تزامن مع أوج الفصل الموسمي حين تقلب الأمطار الغزيرة مساحات شاسعة

من الأرياف إلى عالم مائي يلفه الضباب، عالم ضبابي ممتد من شواطئ بحر آندامان إلى سفوح الهيمالايا، راحت سو تفسر معتذرة أن حديقتها كانت جميلة جدًّا يوم اعتقالها، كانت حافلة بمساكب ساحرة من زنبق المادونا، والفرنجيباني الأرجواني، والغاردينيا الصفراء مع الياسمين، كانت تعشق العمل في الحديقة؛ كان ذلك أحد أسباب فرحها العظيم، إلا أنه كان يكلف مبالغ كبيرة من المال، ولم تعد قادرة على توفيره. تحدثت بلكنة بريطانية رشيقة كانت قد اكتسبتها بجامعة اكسفورد.

أحيانًا كانت تعجز حتى عن دفع ثمن الطعام؛ تعرضت لسوء تغذية، تساقط شعرها، بالكاد كانت تستطيع الخروج من الفراش زحفًا، خافت أن تقضي نحبها جراء توقف قلبها، ضعف بصرها، التهبت فقراتها، تدهور وضع عمودها الفقري، ما أدى إلى جعل الحركة مؤلمة. بعد إطلاعي على هذا كله، لاذت بالصمت، منتظرة استيعابي لما قالته على ما بدا، ثم أشارت إلى رأسها وقالت بكبرياء: «غير أني لم أسمح لهم قط بالوصول إلى هنا، حيث تكمن الأهمية كلها».

طوال حياتها ظلت سو مسكونة بهاجس أبيها؛ الجنرال العظيم آونغ سان، الذي اغتيل حين كانت في الثانية من العمر، خسارة حددت مسار حياتها؛ لأنها شعرت بأنها ملزمة أن تعيش حياته نيابة عنه هو، عنها هي، وكرمى لعين بلدهما. كان آونغ سان ثوريًّا بورميًّا، وطنيًّا، ومؤسس الجيش البورمي الحديث، الذي عُدَّ الأب المؤسس لبورما اليوم الحديثة، كان الرجل العظيم صاحب الفضل في استقلال بورما عن الحكم الاستعماري البريطاني، إلا أنه اغتيل قبل الاستقلال بستة أشهر.

تصوري أن تفقدي أباك في مثل هذه السن الصغيرة! كنت امرأة متوسطة العمر حين رحل أبي، إلا أني كنت متمتعة بنعمة وجوده، أقله وأنا في مرحلة النمو، كان صاحب التأثير الأكبر في حياتي، ومازلت أحزن عليه كل يوم، كيف

نجحت سو في إنجاز كل ما أنجزته وهي محرومة تمامًا من نعمة الأب؟! أمر لا أستطيع فهمه، أنا واثقة من أنني ما كنت قد وصلت إلى ما وصلت إليه لولا تأثير أبي إبان سنوات نشأتي.

قدرت أنها كانت ستفعل، غير أني لم أبح بذلك. علاوة على ذلك، من منا يستطيع أن يعرف مثل هذه الأمور يقينًا؟

قالت سو: «على الدوام بقيت شاعرة بأني قريبة من أبي، لم يغب عن ذهني قط أنه كان يريدني أن أفعل شيئًا لبلدي». لدى عودتها إلى بورما، رأت حياة السياسة لا تناسبها، إلا أن الشعب كان يطالب بالديمقراطية، وشعرت بأنها ملزمة بأن تأخذ مكان أبيها.

زميلة لسو قالت لي أنها تشبه أباها كثيرًا؛ كانت عديمة الخبرة في السياسة عند عودتها إلى بورما، إلا أنها موهوبة مثل أبيها.

كنا نرنو بإكبار إلى أونغ سان سو كيي التي كانت تخاطب حشدًا مطوفًا للمكان، أتذكر كلامها بوضوح، قالت: «علينا أن نتجنب الأفكار المتطرفة، فكروا قبل أن تقدموا على أي حركة، فالنضال في سبيل حقوق الإنسان والديمقراطية في بورما كفاح من أجل الحياة والكرامة، إنها معركة شاملة لسائر تطلعاتنا السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية». وحين أنهت سو كلامها، بقي الحشد صامتًا للحظة طويلة، ثم انفجر مصفقًا تصفيقًا دام عشر دقائق كاملة.

حانت لحظة إنهاء سهرتي مع صديقتي؛ أولًا تبادلنا كلمات الوداع السياسي، عبرت سو عن شكر بلدنا على مساعداته كلها، وعلى سعيه للتواصل مع الحكومة البورمية، ثم انتقلنا إلى عبارات وداعنا الشخصي كما إلى كل ما عناه اللقاء بالنسبة إلى كلتينا - عبارة سأحفظها في قلبي إلى الأبد، ومع شروعنا في الافتراق على مضض، تعانقنا بدفء واتفقنا على التواصل المتكرر هاتفيًّا وإلكترونيًّا، وهو ما فعلناه، وحين لوحنا مودعتين للمرة الأخيرة، اغرورقت

عينـاي بالدمـع ولاحظـت أن عيني سـو أيضًـا كانتا دامعتين، شـعرت كما لو كنت أغادر أختًا مفقودة منذ زمن طويل.

نفوذ سو في بورما يوازن الدعم المتأرجح لحقوق الإنسان بوعد الدعم للنظام المثير للريبة سابقًا، وقد أدى إلى انفتاح ذلك البلد على العالم للمرة الأولى منذ عقـود، يسـعدني أن أخـبرك- يا دكتورة- أن أونغ سـان سـو كيي هـي الآن حرة وحزبها يشـارك بنشاط وفاعلية في الجهود الإصلاحية المبذولة في بورما، نبقى علـى صلـة كمـا تواعدنـا، ولا يمر يوم واحـد مـن دون أن أفتقدها، وأنا متشـوقة لرؤيتها وهي في زيارة للولايات المتحدة.

كلتانـا؛ هيلاري وأنا، كنا شـديدتي الانفعال والتأثر حتـى بتنا عاجزتين عن الكلام، قامت وغادرت من دون أن تنبس أي منا ببنت شفة.

2014 05 07

في اليوم التالي بدأت هيلاري الكلام قائلة: حسنًا، دكتورة، أنت لم تردي على سؤالي: هل ترين أن وزارتي للخارجية كانت ناجحة؟

سألتها: كيف تلخصين أنت مدة شغلك للمنصب؟

تأملت السؤال بأناة قبل أن ترد، ثم قالت أخيرًا: ثمة إيجابيات وسلبيات؛ قبل كل شيء، ما لم أنجزه. ما يؤسفني كثيرًا أنني أخفقت في جلب السلام إلى ربوع الشرق الأوسط، ولم أكن ناجحة كليًّا في وضع أفغانستان على طريق الازدهار والاستقرار، لم أتمكن من منع إيران أبديًّا من مواصلة تطوير برنامجها النووي، غير أن القرن الواحد والعشرين شهد تغيرًا كبيرًا في طبيعة القوة؛ قوة الولايات المتحدة أكبر من مجمل نجاحاتنا وإخفاقاتنا مع جملة المشكلات التي نتصدى لها، لم نعد في وضع يمكننا من تحديد أهداف البلدان الأخرى والأساليب التي يتعين عليها اعتمادها لبلوغها، مثل أب يرسل ولده إلى الجامعة، علينا أن نتيح للبلدان الأخرى فرصة اجتراح طرائقها، مهما حصل.

كنت وزيرة الخارجية الأولى على صعيد تطبيق مفهوم (القوة الذكية)، وفي ظل ولايتي باتت الموازنات الآن مشتملة على أموال مخصصة لبند الجنس

(الجندر)، ثمة مكاتب لوزارة الخارجية في البنتاغون، والإدارة الاقتصادية صارت الآن جزءًا من المسؤولية الدبلوماسية، أنا فخورة بهذه الإنجازات ومصممة على تواصل عملي بعد أن تركت المنصب، أتوقع توظيف الكثير من الوقت لمتابعة خلفائي وتزويدهم بالنصح، إذا سمحوا لي.

غير أن ما يطيب لي قوله هو أن أروع مساهمة لي بوصفي وزيرة للخارجية لم تتمثل بهذه الحركات المنفصلة، على أهميتها المحتملة، بل بإعادة موضعة بلدنا في موقع القائد الأول في عالم متغير، أسهمت في تمكين الولايات المتحدة من أن تصبح رئيسة كوكبية عظيمة مؤهلة للمساهمة في التعامل مع أزمات متوقعة، لابد من حصولها، من الخضّات الاقتصادية إلى التغيرات البيئية والاضطرابات الاجتماعية.

مشغولون نحن راهنًا بخلق عالم قرن جديد، تمثل جزء مسؤوليتي بتقديم الولايات المتحدة إلى كل بلد، وحكومة، وجماعة بشرية ذات شأن بالنسبة إلى مُثُلنا وأمننا، الأمور أعقد مما كانت من قبل، وقد لا نكون مهددين بخطر الهجوم النووي نفسه الذي كان يتهددنا عندما كنت صغيرة، عندما كان يقال لي أن أنزل إلى ما تحت المقعد اتقاء القنبلة الذرية (كما لو كان مقعد خشبي بسيط قادرًا على حمايتي من شجرة ساقطة ناهيك عن قنبلة ذرية)، حين كنا على مفترق طريق حرب باردة مع الاتحاد السوفياتي. بدلًا من ذلك نعيش الآن مسكونين بالخوف من حصول المنظمات الإرهابية الانتحارية على مواد وأسلحة نووية.

نحن على عتبة القيام بشيء غير مسبوق، شيء نتائجه مجهولة، وبعد سنوات في المستقبل سينظر الناس إلى الخلف قائلين: «كانوا على صواب، أو كانوا على خطأ، كان عليهم أن يفعلوا هذا، أو كان يجب أن يفعلوا ذلك»، غير أن الحقيقة هي أن كل ذلك إن هو إلا فضاء غير مستكشف، لا نستطيع إلا أن

نبذل كل ما نستطيعه من جهد بغية جعل العالم أكثر جدوى بالنسبة إلى أولادنا وأحفادنا.

بلا أدنى شك تبقى أمريكا القوة الأولى في العالم على مختلف الأصعدة السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، وهي تتوقع وتعول على أن تظل كذلك؛ لأن الأمر هو بالمطلق في مصلحتنا كما في مصلحة العالم كله، ومع أن أمريكا ليست في وضع يمكنها من حل المشكلات العالمية كلها، فإنني لا أعتقد أن هناك مشكلة كبرى على كوكب الأرض يمكن حلها بمعزل عنا؛ لذا فإننا لانزال محافظين على مكانتنا الرفيعة.

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، كنا في ذلك الموقع بلا نقاش، وبدأنا أولًا ندرك أهمية التحالفات، ما أدى إلى ولادة الناتو، عقدنا معاهدات دفاع مشترك مع كل من اليابان، وكوريا الجنوبية، وتايلندا، والفلبين في آسيا، جنبًا إلى جنب مع بلدان أخرى، ولدى زوال الاتحاد السوفياتي، برز نوع من الافتراض الفج، الزائف القائم على: «انتهى الأمر، هُزمت الشيوعية، الاتحاد السوفياتي لم يعد موجودًا، يا للفرح! بتنا قوة أكثر هيمنة مما كنا من قبل، ولم نعد إذن بحاجة إلى نسج مثل تلك العلاقات». لا، ليس صحيحًا، أي بيت من ورق اللعب يمكن دائمًا أن يتداعى، فتبادر أيد كثيرة دائمًا إلى إعادة بنائه من جديد.

وفي الوقت نفسه، آن لنا أن ندرك أننا لا نستطيع الاضطلاع بفعل كل شيء وحدنا، ما من أحد أو بلد على ذلك المستوى من كلية المعرفة أو كلية القوة، لسنا قادرين على حمل العبء النفسي (السيكولوجي) أو المسؤوليات المالية للعالم كله. نريد عالمًا تكون فيه القوى الموجودة ونظيرتها الناشئة أطرافًا شريكة مسؤولة، ولا يتعين علينا أن نتابع المسيرة وحدنا؛ مصلحتنا العميقة والأساسية تقضي إذن ببناء سلسلة من التحالفات والشبكات العالمية الشاملة.

نظـرتُ إلـى هيلاري برعب، معجبـة بإخلاصها للإنسـانية، وألقها، وروحها الإبداعيـة الخلاقـة. قلـت: لديـك يـا هيـلاري قـدر هائـل مـن الطاقة، لمـاذا لا تستمرين وزيرة للخارجية إبان فترة أوباما الثانية؟

لأنني أعرف كم كنت متعبة. قد أبدو امرأة خارقة (سوبرمان) خارجيًّا، إلا أن شغل منصب وزارة الخارجية تجربة بالغة الكثافة، تشترط التزامًا دائمًا 24 على 7 (24 ساعة في كل يوم من أيام الأسبوع السبعة)، كان من الممكن إيقاظي منتصف الليل لسؤالي عن أمر ما ذي شأن، كثيرًا ما عملت وفق برامج متواصلة علـى مـدار السـاعة، ربمـا كنت في سـفر، غائبة اثنتي عشـرة سـاعة ونائمة، إلا أن واشـنطن كانت يقظة، أردت إعطاء الوظيفة كل شـيء أو لا شـيء؛ لا أريد أن أسـتبقي شـيئًا، أردت أن أبذل كل ما اسـتطعته من جهد لدعم الرئيس والبلد، رأيـت أن مـن الضـروري والمهـم شـخصيًّا بالنسـبة إلي أن أقول: «سـأتولى هذه المهمة كاملة لمدة أربع سـنوات، ثم أنتقل إلى أمور أخرى لأنني بشـر ولا أسـتطيع تقديم المزيد».

رفعتْ رأسها، رمقتْني، وقالت: حسنًا، دكتورة، هل ستردين على سؤالي؟ هل تعتقدين أن مدة اضطلاعي بتولي وزارة الخارجية كانت ناجحة أم لا؟

سألتها: ما رأيك أنت يا هيلاري؟

صرخت وعيناها تبرقان: نعم! كانت ناجحة.

قامت ببطء عن الأريكة ومشت نحوي، بكينا كلتانا.

2014 05 09

تقـرر أن يكون اليوم موعد جلسـة هيلاري الأخيرة، تسـاءلت: كيف ستسـير الجلسـة؟ هـل سـتكون سـعيدة؟ هل سـتكون حزينة؟ هل سـتبكي كمـا هي عادة العديد من الزبائن عند المغادرة؟ هل سأكون آسفة على الانتهاء منها؟

دخلـت في وضـع لا يختلـف عـن وضعهـا في جُـل الجلسـات الأخـرى من دون الكثير من التعابير على وجهها، فاجأتني إذ قالت بإحساس عميق: أجدني- يا دكتـورة- بحاجـة إلى أن أشـكرك على كل ما بذلته مـن جهد من أجلي؛ وهبتني أشـياء كثـيرة، وأنـا أحبـك لذلك، ومع ذلـك أعتقـد أني أسـتطيع الآن أن أتدبر أمري بنفسي.

عـبرتُ عـن حُكْمي المهنـي المتمثل بأن هذه الإنسـانة الجامـدة ظاهريًّا باتت الآن قـادرة علـى التعبـير عن محبتهـا لي، أي منا نحن الاثنتـين لم تتكلم لبعض الوقت، متقاسمتين لحظة ود حميمي.

أخـيرًا قلـت: أعتقـد أنـك جاهـزة أيضًـا للمغـادرة، توصلـت إلى تسـوية مع صراعـك الأكبر، ذلك الذي أوصلك إلى هنا، وتجاوزت ازدواجيتك حول البقاء

مـع بـل، كذلك تحسـنت كثيرًا علـى صعيد ما عددتـه كبرى مشـكلاتك؛ صعوبة التسليم بمشاعرك وقابلية التعبير عنها.

قالـت: مـع ذلـك أكـره أن أتـركك، قبل مجيئي إلـى هنا اليوم، خطـر لي أنه يجب أن أكون فاقدة لعقلي إذا تركت هذه المرأة الرائعة، الإنسانة الوحيدة التي عرفتها والتي تقبلني كما أنا.

أجبتهـا: لـن تتركينـي أبـدًا يـا هيـلاري، أكثر ممـا تركـت أبويك؛ أسـتاذي الدكتـور تيـودور رابـك قـال ذات مـرة: «النـاس الذيـن يحبون بعضهـم لا يتعين عليهم أن يبقوا معًا كي يكونوا سوية». فأنت ستأخذينني معك حيثما ذهبت.

مهما كان ذلك المكان.

قلـت مازحـة: يمكنك أن تخبريني عنه الآن يا هيلاري، أين هو ذلك المكان؟ هل ستترشحين للرئاسة؟ أعدك بألا أخبر أحدًا.

رفعـت رأسـها وأطلقـت واحدة مـن ضحكاتها الصاخبـة التي لا تكتم شـيئًا وقالت: تعرفينني جيدًا جدًّا يا دكتورة، سأترك الجواب لك أنت.

قلت: آخ.. غوول!. (هدف كرة القدم).

حين يكون الوقت مناسبًا لأي مريض – زبون لإنهاء العلاج، أشعر بالارتياح بوجـه عـام، أصغيـت إلـى مـا كان حدسـي يقوله عـن هيـلاري، ومـع أنني كنت واثقة من أنني سـأفتقد صِدْقَها، واسـتقامتها، وعبقريتها السياسية، وحتى روح الدعابة الطريفة عندها، أيقنت أن ساعة الفراق قد دقت.

قمت ومددت يدي، ومتجاهلة يدي الممدودة للمصافحة، ألقت بذراعيها على كتفي وضمتني في عناق دافئ. بادلتها العناق بوصفها غالية. غادرت الغرفة كما غادرت الأشياء الأخرى كلها، لم تلتفت إلى الخلف.

في تلك الليلة رأيت حلمًا أجاب عن سؤالي الأساسي، وهو السؤال الأساسي الذي يشغل أذهان أكثر الناس في الولايات المتحدة؛ حلمت بأنني كنت في مرتفعات راشمور* (Mount Rushmore)، ورأيت أن هناك جبلًا خامسًا عليه وجه بشري، كان الوجه هو وجه هيلاري، فكرت أن اللاوعي عالم بالغيب، نافذ البصيرة، كان هذا اللاوعي الحالم يفيدني بأن هيلاري ستترشح فعلًا للرئاسة.

كان أيضًا يقول إنها لن تفوز في الانتخاب لتصبح رئيسة جمهورية الولايات المتحدة وحسب، بل وستكون بين أعظم رؤساء الجمهورية الذين سبق لبلدنا أن عرفهم منذ وجوده. أغنية قديمة ترددت أصداؤها في ذهني؛ تقول الأغنية: «لم يتعين عليك أن تخبرني؛ كنت على علم بالخبر اليقين الوقت كله».

قلبت على جنبي الآخر وعدت إلى النوم، مطمئنة وضامنة بعد أن عرفت حقيقة موقف هيلاري، وأيقنت أن بلدنا ستنعم برعاية يديها الكفؤتين. ومن من شأنه أن يعرف آخر المطاف على نحو أفضل مني أنا؟!

---

* جبل راشمور: هو نصب تذكاري لأوجه أربعة رؤساء أمريكيين منحوت في الجرانيت بارتفاع 60 قدمًا (18م). والرؤساء هم: جورج واشنطن، وتوماس جيفرسون، وثيودور روزفلت، وأبراهام لينكون. يقع الجبل بالقرب من كيستون بولاية داكوتا الجنوبية الأمريكية.

عن المؤلفة

الدكتورة آلما اتش بوند (Alma H. Bond) مؤلفة أو شريكة تأليف أكثر من عشرين كتابًا منشورًا، منها:

- جاكي أو: على الأريكة Jackie O: On the Couch.
- الليدي ماكبث: على الأريكة Lady Macbeth: On the Couch.
- مارلين مونرو: على الأريكة Marlyn Monroe.
- ميشيل أوباما: سيرة حياة Michelle Obama: A Biography.
- السيرة الذاتية لحياة ماريا كالاس: رواية The Autobiography of Maria Callas: A Novel .
- مارغريت ماهلر: سيرة حياة محللة نفسية. Margaret Mahler: A Biography of the Psychoanalyst .
- كاميل كلود: رواية Camille Claude: A Novel .
- محاربة أمريكا الأولى: قصة ديبورا سامبسون America's First Woman Warrior: The Story of Deborah Sampson .
- من قتل فيرجينيا وولف؟ سيرة حياة نفسية Who Killed Virginia Woolf? A Psychobiography.

حصلت الدكتورة بوند على الدكتوراه في الفلسفة في علم النفس التنموي من جامعة كولومبيا، تخرجت في برنامج ما بعد الدكتوراه في التحليل النفسي بالجمعية الفرويدية، وعملت محللة نفسية خاصة مدة (37) عامًا بمدينة نيويورك. تقاعدت لتصبح كاتبة متفرغة للكتابة الوقت كله.

الدكتورة بوند عضو في الجمعية الأمريكية للصحافيين والمؤلفين، وفي نقابة المسرحيين، وفي نقابة المؤلفين، جنبًا إلى جنب كونها زميلة وعضو هيئة تدريس في معهد التحليل النفسي للتدريب والبحث، وجمعية التحليل النفسي الدولية،

ورابطة علم النفس الأمريكية. كانت إحدى أوائل المحللين غير الطبيين التي انتخبت لرابطة التحليل النفسي الدولية.

نشأت الدكتورة بوند في فيلادلفيا، حيث حصلت على شهادة ما قبل التخرج في علم النفس من جامعة تمبل، وملتحقة بالخدمة العسكرية الطوعية، انتقلت إلى نيويورك، حيث حصلت على شهادة التخرج في علم النفس من جامعة كولومبيا.

طويلة الإقامة في مدينة نيويورك، عاشت نحو اثنتي عشرة سنة في فلوريدا، وتقيم الآن في ضاحية كارليل البنسلفانية.

Bibliography

Note: The author asked for an interview with Hillary Clinton. The request was not granted.

BOOKS

Anderson, Christopher. Bill and Hillary: The Marriage. New York: William Morrow, 1999.

Bernstein, Carl. A Woman in Charge: The Life of Hillary Rodham Clinton. New York: Knopf, 2007.

Bond, Alma H. Jackie O on the Couch. Baltimore: Bancroft Press, 2011.

Bond, Alma H. Marilyn Monroe on the Couch. Baltimore: Bancroft Press 2013.

Carosella, Melissa. Hillary Rodham Clinton: First Lady, Senator, and Secretary of State. California: Teacher Created Materials, 2012.

Chafe, William H. Bill and Hillary: The Politics of the Personal. New York: Farrar, Straus, and Giroux. 2012.

Clinton, Bill. My Life. New York: Knopf, 2004.

Clinton, Hillary Rodham. An Invitation to the White House: At Home with History. New York: Simon & Schuster, 2000.

Clinton, Hillary Rodham. Hillary Rodham Clinton: Living History. New York: Simon & Schuster, 2003.

Clinton, Hillary Rodham. It Takes a Village, and Other Lessons Children Teach Us. New York: Touchstone, 1996.

Doak, Robin S. Hillary Clinton. New York: Scholastic Inc., 2013.

Estrich, Susan. The Case for Hillary Clinton. New York: HarperCollins, 2005.

Ghattas, Kim. The Secretary: A Journey with Hillary Clinton from Beirut to the Heart of American Power. New York: Times Books, 2013.

Harris, John F. The Survivor. New York: Random House, 2006.

Heilmann, John and Mark Halperin. Game Change: Obama and the Clintons, McCain and Palin, and the Race of a Lifetime. New York: HarperCollins, 2010.

Klein, Edward. The Truth about Hillary. New York: Penguin, 2005.

Krull, Kathleen. Hillary Rodham Clinton, Dreams Taking Flight. New York: Simon & Schuster Books for Young Readers, 2008.

Kuiper, Thomas. I've Always Been a Yankees Fan: Hillary Clinton in Her Own Words. Los Angeles: World Ahead Publishing, 2006.

Levin, Robert E. Bill Clinton, the Inside Story. New York: Shapolsky Publishers, Inc., 1992.

Limbacher, Carl. Hillary's Scheme: Inside the Next Clinton's Ruthless Agenda to Take the White House. New York: Crown Publishing, 2003.

Maraniss, David. First in His Class: A Biography of Bill Clinton. New York: Simon & Schuster, 1995.

Marton, Kati. Paris: A Love Story. New York: Simon & Schuster, 2012.

Noonan, Peggy. The Case Against Hillary Clinton. New York: HarperCollins, 2000.

Osbourne, Claire G. The Unique Voice of Hillary Rodham Clinton: A Portrait in Her Own Words. New York: Avon Books, 1997.

Rodham, Hillary. There is Only the Fight: An Analysis of the Alinksy Model. Wellesley College Archives, 1969.

Reik, Theodore. Listening With the Third Ear. New York: Farrar, Straus, and Giroux, 1983.

Shambaugh, Rebecca. Leadership Secrets of Hillary Clinton. New York: McGraw Hill, 2010.

Sheehy, Gail. Hillary's Choice. New York: Ballantine Books, 1999.

Victor, Barbara. The Lady: Burma's Aung San Suu Kyi. Thailand: Silkworm Books, 1999.

PERIODICALS

Hillary Rodham's Shocking Drug Diary! Posted by Frank Marafiote on February 13, 2013 in Life.

One on One with Hillary Rodham Clinton, by Richard Wolf, USA Today, May 19, 2012.

ملحق رقم (1)

الدكتورة آلما إتش بوند تطلق أحدث حلقات سلسلة على كرسي الاعتراف

للدكتورة آلما إتش بوند، تأليفًا أو شراكة تأليف، أكثر من عشرين كتابًا وهي معروفة بـ (سلسلة على كرسي الاعتراف) التي تعالج نفسيًّا فردًا شهيرًا أو شخصية متخيلة ذائعة الصيت من خلال افتراض نوع من الحوار معهما، والدكتورة بوند حصلت على درجة الدكتوراه في الفلسفة في اختصاص السيكولوجيا التنموية من جامعة كولومبيا، وتخرجت في برنامج ما بعد الدكتوراه بمادة التحليل النفسي في الجمعية الفرويدية، وعملت محللة نفسية في عيادة خاصة مدة (37) سنة قبل التقاعد والتحول إلى كاتبة متفرغة.

وفي هذه الحلقة من السلسلة تعمل الدكتورة بوند من خلال شخصيتها الخيالية، الدكتورة دارسي ديل التي هي محللة نفسية تشجع الفرد على الانفتاح والبوح من خلال سلسلة من الجلسات المتخيلة، أما موضوع أحدث كتب السلسلة فهي مرشحة الحزب الديمقراطي لرئاسة الجمهورية في عام 2016م، هيلاري رودهام كلنتون، تحت عنوان:

هيلاري رودهام كلنتون على كرسي الاعتراف: داخل عقل هيلاري كلنتون وحياتها (2015)

في هذا الكتاب الرابع من سلسلة (على كرسي الاعتراف) تكتب الدكتورة بوند، للمرة الأولى عن شخصية مشهورة مازالت على قيد الحياة، وفي هذه الرواية الخيالية تبادر كلنتون إلى التماس المساعدة من الدكتورة دارسي ديل في التعامل مع مغامرة زوجها الأخيرة، والدكتورة ديل تشجعها على الانفتاح والبوح وصولًا إلى إماطة اللثام عن ماضيها. وعلى امتداد الجلسات التسع والستين المتخيلة يُكشف عن أمور كثيرة، والدكتورة بوند تقدم رؤى مخترقة لحالة كلنتون الذهنية من وجهة نظر محللة نفسية، فتأتي النتيجة متمثلة بنظرة تفصيلية

عميقة إلى حياة هيلاري كلنتون في عمل روائي أكثر إثارة وجدوى من أي سيرة/ سيرة ذاتية، والكتاب الوحيد الذي يقدم حياة هيلاري الشخصية، كما قال بعضهم.

ملحق رقم (2)

عن كتاب هيلاري رودهام كلنتون: على كرسي الاعتراف

من هي هيلاري كلنتون حقيقة؟

نظرًا إلى احتمال أن تصبح رئيسة جمهورية الولايات المتحدة الأولى، بعد الإعلان سلفًا عن ترشحها للرئاسة في انتخابات 2016م الرئاسية، فإن هذا الكتاب يغدو أثقل وزنًا... وأوفر أهمية.

لحسن الطالع أنجزت مؤلفة سير الحياة النسوية المعروفة آلما إتش بوند، تلك المحللة النفسية المانهاتنية منذ (35) سنة قراءة جُل ما كُتب ونُشر عن السيدة الأولى، عضوة مجلس الشيوخ الأمريكي، ووزيرة الخارجية السابقة، وكتبت كتابًا ساحرًا، جذاب القراءة، وحميمًا زاخرًا بفيض غزير من الأساطير عن إتش آر سي.

قالوا عن الكتاب

«يجـب علـى كل أمريكي أن يقرأ هذا الكتـاب، ويجب على كل زعيم عالمي أن يفعـل ذلـك، بل لابد لأهل كل بلد في طول العالم وعرضـه أن يقرؤوا هذا الكتاب في الحقيقـة؛ لأن مـن الواضـح علـى ما يبـدو لي، أنها سـتكون رئيسـة جمهورية الولايات المتحدة المقبلة».

الدكتورة إيب بورتز؛ مؤرخة.

«بسِـفرها الأخـير، هيلاري رودهـام كلنتون على كرسـي الاعتراف، نجحت الدكتـورة آلما إتشـ بوند مرة أخرى في توظيف مهاراتها بوصفها محللة نفسـية، داعمة تلك المهارات ببحوث واسـعة، لتشـكيل نظرة باهرة إلى حياة موضوعها، وهـو هـذه المـرة السـيدة الأولـى السـابقة هيـلاري رودهـام كلنتـون... ببراعـة فائقـة قامـت بتجميـع تاريخ نابض بالحياة لسـيدة قوية واجهـت تحديات هائلة في حياتهـا، وكانـت قـادرة علـى تجاوزها بصـرف النظر عن مـدى غنى الرحلة بالآلام، وتناول بوند لتفاصيل حياة هذه المرأة الآسـرة مؤثر ومقنع، حتى إذا لم تكـن، مثـل كثيرين، معجبة بهيـلاري، وكنت ربما ميالًا، مثل كثيريـن أيضًا، إلى التشكيك بإنجازاتها إذا قررت دخول السباق الرئاسي».

نورم غولدمان؛ ناشرة.

«في الحلقة الرابعة من سلسلتها التي تحمل عنوان (على كرسي الاعتراف)، تقوم كاتبة سـير الحياة النسـوية الشـهيرة الدكتورة آلما بوند بالغوص في رأس وحيـاة المرشـحة الرئاسـية، وتطلـع الناخبـين علـى ما اكتشـفته، لعل هـذا أكثر المفاهيم التي صادفتها أصالة! ويا لها من قراءة غير عادية! شعرت كما لو كنت ذبابـة علـى الجدار في عيادة الدكتورة دارسـي ديل، نظرًا إلـى توفر المؤلفة على موهبـة تصويـر الحدث كما لـو كان واقعًا فعلًا؛ كل فصـل كان بابًا مفتوحًا على

غرفة ملأى بحشد من التفاصيل الحميمة عن حياة السيدة الأولى السابقة، ما أدى إلى جعل الجلسات أكثر واقعية؛ من الولادة إلى بنغازي، وبعدها تتولى هذه الرواية استكشاف كلنتون بأسلوب بالغ الإمتاع، وقاطع للنَفَس أحيانًا. لست من المهووسين بالسياسة، إلا أن هيلاري رودهام كلنتون ظلت على الدوام توقد نار فضولي، سبق لي أن قرأت عددًا من المقالات في السابق، غير أن للقصة عمقًا أبعد مما تصورت أساسًا. سيرة الحياة موسعة جدًّا؛ ما أدى إلى جعلها ذات مرجعيات كثيرة. حين يعاين المرء ما تعرضت له هذه المرأة وكيف صمدت بدأب، لا يستطيع إلا أن يُعجب بها. أنجزت دكتورة الفلسفة آلما إتش بوند تفسيرًا لشخصية ملأى بالألغاز! كتاب خارق للعادة. أعتقد أنه ممتاز!».

مجلة (Literery Melting Pot)

«تأتي هيلاري كلنتون بحثًا عن نجدة نفسية لتتمكن من التعامل مع مغامرة زوجها الغرامية الأخيرة، تشجعها الدكتورة دارسي ديل على الانفتاح والكشف عن ماضيها، بما فيه من خير وشر، من إيجابي وسلبي. كمٌّ كبير من المعلومات عن السيدة الأولى يُماط اللثام عنه إبان هذه الجلسات المتخيلة والمؤسطرة. النتيجة: نظرة عميقة وتفصيلية إلى حياة هيلاري بأسلوب أكثر إثارة من أي سيرة/سيرة ذاتية أنموذجية؛ لأن المؤلفة قادرة فعلًا على تجسيد هيلاري بإضفاء الحياة عليها وجعلها تبدو من البشر، إنها أكثر من ذلك اللقب الذي ألبسوها إياه في سنواتها الأولى، لقب (الأخت ثلاجة)؛ غنية هي بالعواطف، بل وتذرف الدموع، لا في أثناء الجلسات وحسب، بل وتصرح أنها بكت في منعطفات صعبة أخرى في حياتها. هي مسلية، مع مسحة سخرية، وشديدة الذكاء. تقدم بوند رؤى مثيرة مخترقة لما كان يمكن لهيلاري أن تكون مفكرة به حول هذا أو ذاك من الأمور، كما لحالتها الذهنية من وجهة نظر محللة نفسية، يسهل التعرف إلى هيلاري وتتولد الرغبة في سماع قصتها».

مجلة (Book Readers)

«كثيرة هي الكتب التي أُلِّفت عن سيدة آركنسو الأولى، سيدة بلدنا الأولى، عضوة مجلس الشيوخ، ووزيرة الخارجية هيلاري كلنتون، لم تكن جميعًا موفقة في إلقاء ما يكفي من الضوء على هذه الشخصية، كما يمكنني أن أضيف، لدى النظر إلى الصورة على غلاف هذا الكتاب، سترون سيدة أكبر سنًّا؛ تجاعيد وجهها واضحة لأنها كرست حياتها كلها لمساعدة الآخرين، انظروا إلى عمق عينيها للوقوف على الحب العظيم الذي تكنه لبلدنا ولأسرتها. تدلنا المؤلفة على ما جعلها المرأة التي هي هيلاري اليوم، بدءًا بسنواتها المبكرة ناشئة مع أبويها، كان أبوها يحكم بقبضة فولاذية. لم يكن يعرف أي معنى للتنازلات في الأمور المتعلقة بأولاده، ومع أن هيلاري كانت البنت الوحيدة فإنها عوملت مثل أخويها من نواحٍ كثيرة، وفيما يخص المدرسة فإن تقدير (ب) لم يكن مقبولاً في بيت رودهام، كان لا بد للتقديرات جميعها من أن تكون (آ)، عشت في آركنسو بضعة أعوام، وقرأت ما كان المراسلون يكتبونه عنها. شُرِّحت ومُزِّقت إربًا بسبب جملة من الأمور- الأمور جميعها بدءًا بطريقتها في الملبس، إلى سبب تحملها لبل كلنتون وخليلاته. هيلاري امرأة قوية، غير أنها بشر مثلنا تمامًا؛ تتألم، تبكي حين لا يكون أحد موجودًا. يبدو أن الناس ميالون إلى نسيان إنجازاتها. نجح هذا الكتاب في فتح عيني وفي تمكيني من رؤية هيلاري الحقيقية ولماذا هي هكذا، وفي تسليط الضوء على ما مكنها من التغلب على هذه السلسلة الطويلة من العقبات التي اعترضت طريقها، وبحسب ما أرى شخصيًّا فإن رجالاً معينين يخافونها، لم يسبق لهيلاري قط أن كانت جديرة بأي من الوخزات التي تعرضت لها. من هي تلك التي تتوفر على القدر الأكبر من الخبرة لتكون رئيستنا المقبلة؟ من هي تلك التي تتمتع بعناد الكفاح في عالم ذكوري حين يكون الأمر متعلقًا بنساء أمريكا؟ من هي التي ستعترف عندما تخطئ؟ إذا ترشحت فإن هذا الصوت الجمهوري مضمون لها».

مؤسسة (Midwest Book Review)

«من هي تحديدًا السيدة هيلاري رودهام كلنتون؟ فرص أن تصبح المرأة الأولى التي تترشح للرئاسة تضفي المزيد من الأهمية على هذا السؤال، ولتقديم صورة لشخصية هذه المرأة عكفت المؤلفة الدكتورة في الفلسفة آلما إتش بوند على ابتكار سلسلة من الجلسات التي عقدتها السيدة كلنتون مع الدكتورة دارسي ديل، التي هي محللة نفسية خيالية، كانت المحصلة بسيطة، وميسرة، وممتعة».

إيزاك كوهن؛ صاحب شركة.

«كتاب مسل تمامًا؛ يروي الكتاب قصة حياة هيلاري كلنتون من خلال سلسلة من جلسات العلاج المتخيلة، من الواضح أنكم بحاجة إلى تعليق الإيمان قليلًا إلى أن يفعل الكتاب فعله، وإذا فعلتم فإنكم ستكتشفون أنه كتاب ممتع تمامًا. القصة مروية كليًّا تقريبًا من خلال منولوجات هيلاري أمام طبيبتها، في فقرات كبيرة موشاة برؤى صغيرة صادرة عن المحللة. تشكل الخلطة صورة خفيفة الظل ولكنها مثيرة لهيلاري، الشخص، الإنسان».

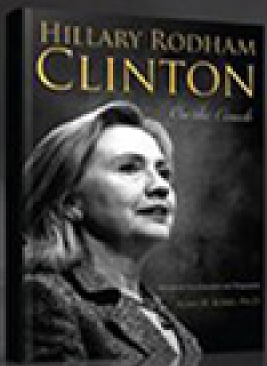
إيلي رايت، شوداون.كوم.

«للتو انتهيت من قراءة/مراجعة كتاب آلما بوند عن هيلاري، وكما على الدوام فإنها جديرة بالتهنئة على إنجاز مثل هذه المأثرة الفاتنة، كان العمل شديد الإقناع إلى حد أنني كنت أحيانًا أضطر لقرص نفسي لأتذكر أنني كنت بصدد عمل روائي من صنع الخيال إضافة إلى كونه عملًا غير روائي، وجدت نفسي كارهة والد هيلاري القاسي ومتسائلة عن مقدار الصدق في ذلك الوصف، وأحيانًا كنت أيضًا أجد هيلاري التي أنا شديدة الإعجاب بها متعجرفة، وإن كانت- نظرًا إلى ما أنجزته- جديرة بالاعتزاز الكامل، بالمقابل يجري تصويرها متجاوزة طفولتها الشقية بنجاح، بفضل دعم أمها المحبة وتشجيعها. إنه كتاب عظيم، أشجع الإعلاميين جميعهم على قراءته فور صدوره، لاسيما إذا كانوا ميالين للاقتراع لصالح المرشح الجمهوري».

آرلاين زاكس؛ مؤلفة العديد من الكتب.

«يالـه مـن كتاب مدهش! حقًّا؛ تنجح الدكتـورة بوند في الوصـول إلى أعماق عقول موضوعاتها، وهيلاري رودهام كلنتون ليست هذه المرة استثناء. بلا عناء يسـتطيع القـارئ أن يتصـور كلنتـون جالسـة على أريكـة مريحة أمـام الدكتورة الخياليـة ديـل وهــي تدلـق قلبهـا وأسـرارها، مع كـوب شـاي بجانبهـا، وهاتفها الذكـي مقفـل بعناية لمدة خمسـين دقيقة دفعة واحدة، غـير أن ذلك لا يعني خلو الوجبـة مـن الدسـم؛ فتصوير بونـد لكلنتون ينقـب في خلفيتهـا، في علاقتها مع بل (بكل ما فيها من إيجابيات وسـلبيات)، في سـنواتها محامية ومعيلة للعائلة، وفي طبيعـة مشـاعرها حـول الأمومة، وحـول الاضطلاع بدور الجـدة. كتب بوند السـابقة عالجـت نسـاء سـبق لهـن أن دخلـن التاريـخ، أمـا كلنتون فهـي الأولى التـي مازالت مسـتمرة في الحياة؛ لذا فإن من السـهل رؤيـة الدكتورة ديل مولعة بهيلاري معظم الوقت. لا خوف لدى محترفي السياسة مع ذلك: رغم بحث بوند الدقيـق فـإن من غير المحتمل أن يتمكن الكتاب مـن تغيير رأي المرء بكلنتون إذا كنتم مؤيدين السـيدة الأولى، عضوة مجلس الشيوخ، ووزيرة الخارجية السابقة فإنكم ستسعدون بذلك القرار، أما إذا لم تكونوا فقد تجدون سهامًا تدعم وجهة نظركم، ما قد يكشف عن نجاح خلفية بوند النفسية في تزويدها سفينة مستوية تسـحب منها قاربها التحليلي النفسي. وعلى أي حال، فإن السفر قراءة ساحرة عـن فتاة شـابة، سـاذجة ما لبثت أن غدت امـرأة ناجزة مندفعـة، حتى لو كنت متوهمًـا بأنـك كنـت تعرف هيلاري، فـإن من شـأن الكتاب أن يفتـح عينك على أشياء جديدة».

آن بيرزلي؛ مؤلفة.



من هي هيلاري كلنتون حقيقة؟

تأتي هيلاري كلنتون بحثًا عن نجدة نفسية لتتمكن من التعامل مع مغامرة زوجها الغرامية الأخيرة؛ فتشجعها الدكتورة دارسي ديل على الانفتاح والكشف عن ماضيها، بما فيه من خير وشر، من إيجابي وسلبي.

في هذه السيرة كمٌ كبير من المعلومات عن السيدة الأولى؛ أميط اللثام عنه إبان هذه الجلسات المتخيلة والمسطرة.

والنتيجة؛ نظرة عميقة وتفصيلية على حياة هيلاري بأسلوب أكثر إثارة من أي سيرة ذاتية أنموذجية؛ لأن المؤلفة قادرة فعلًا على تجسيد هيلاري وبارعة بإضفاء الحياة عليها، وجعلها تبدو من البشر. إنها أكثر من ذلك اللقب الذي ألبسوها إياه في سنواتها الأولى، كانت تلقب بـ الأخت ثلاجة؛ بالرغم من أنها غنية بالعواطف، بل وتذرف الدموع، لا في أثناء الجلسات وحسب، بل وتصرح أنها بكت في منعطفات صعبة أخرى في حياتها؛ إنها مسلية، مع مسحة سخرية، وشديدة الذكاء.

تقدم المؤلفة رؤى مثيرة مخترقة لما كان يمكن لهيلاري أن تكون مفكرة به حول هذا أو ذاك من الأمور، حسب حالتها الذهنية من وجهة نظر محللة نفسية؛ في هذه السيرة المتخيلة سوف يسهل التعرف إلى هيلاري كلنتون؛ وسوف وتتولد لديك الرغبة في سماع قصتها.

يجب على كل أمريكي أن يقرأ هذا الكتاب، كما يجب على كل زعيم عالمي أن يفعل ذلك، بل لابد لأهل كل بلد في طول العالم وعرضه أن يقرؤوا هذا الكتاب، في الحقيقة؛ لأنه من الواضح، على ما يبدو لي، أنها ستكون رئيسة جمهورية الولايات المتحدة المقبلة.

د. إيب بورتر

مؤرخة

ISBN: 978-603-503-863-8

موضوع الكتاب: كلنتون - السياسيون الأمريكيون